# قصص أزهري

عبد الحفيظ أبو السعود

مكتبة مصر
٦٣ شارع الفجالة بالقاهرة

عبد الحفيظ أبو السعود




طبع بدار الكتاب العربي بمصر

« جميع الحقوق محفوظة للمؤلف »

بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهـــداء

إلى الذى دفع بى إلى لجة الأزهر ، فتى حدثا فى الحادية عشرة من العمر . .

إلى الذى كان جباراً حين يغضب لله ، قوياً حين ينتصر للحق . .

إلى الذى كان يلين ويتلطف ، فلا تجد أقرب منه إلى النفس والروح . .

إلى الرجل الأزهرى الورع . .

إلى جدى الراحل : أحمد أبو السعود ! !

القاهرة

عبد الحفيظ أبو السعود

# تقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدى رسول الله .

وبعد : فهذا لون من ألوان القصص ، أعتقد أنه جديد وطريف ، يرضى العاطفة ، ويغذى الشعور ، على اختلاف ألوانه ، وتباين صوره ، وتعدد نواحيه .

وليس لى فى هذا الكتاب سوى الصياغة ، والحبكة الفنية ، وعسى أن أكون قد وفقت فيهما ، وتمكنت من إبراز النواحى العجيبة الغريبة ، التى تهدف إليها كل قصة من هذه القصص .

أما الفكرة ، فقد تجاوبت بها أركان الأزهر المعمور من قديم الزمان ، وسارت بين أبنائه وطلابه مسير الشمس ، تشرق فى كل أفق ، وتطلع على كل نفس بالخير والبركة ، والتقوى والصلاح .. قصص وأفكار يتوارثها جيل أزهرى عن جيل ، كقصتى : (التلميذ ، السعى) وغيرهاتين .: وقصص أخرى ، فيها جدة الجيل الجديد ، وفيها طرافة الانتقال بالأزهرمن عهد إلى عهد .. من عهد الاختبار الشفوى لاغير ، حيث العبرة بقوة البيان ، والمقدرة على الجدل ، والبراعة فى النقاش ، والمحاورة والمداورة .. إلى عهد جديد يدخل في حسابه القدرة على الكتابة والتحبير ، وأن المشافهة ليست كل شىء ، كما يبدو هـذا فى قصتى : (التصحيح ، المصححان) . . وقصص لاتزال قصص أفراد قلائل من الأزهريين كقصتى : ( الجزاء ، اللحن ) . .

هذا اللون الجديد من القصص أدين به أكثر ماأدين ، لجدى المرحوم ، الشيخ أحمد أبو السعود ؛ ذلك الرجل الداعية إلى الله ، طوال حياته فى الدنيا ، والذى أراد أن أكون مثله ، فنقلنى من التعليم المدنى ، التى كنت قد اتجهت إليه بالفعل ، إلى التعليم

الدينى ، أو بالحرى التعليم الأزهرى ، الذى كنت بعيداً عنه .. ولقد كان لهذا الرجل رأى فى الأزهر الشريف ، ورجاله الأطهار ، لايتطرق إليه شك ، ولا تخالطه ريبة ، ولا يناله وهن ولا ضعف ، يدافع عنه فى كل مكان ، وبكل قوة وعزم .. كان يعتقد أن الدين عصمة من كل شر ، وحصن من كل سوء ، وأن الأزهرى يكون دائما فى طاعة ربه ؛ ما دام لا يعكف على المادة ، يطلبها فى نهم وشره ، ولا يفكر فى أمر غده ، ما دام يعتقد أن له إلهاً ، بيده مقاليد السموات والأرض ، لاينسى عبداً خلقه وسواه ..

ولقد استمعت إليه كثيراً كما استمع إخوتى .. كما استمعت واستمع غيرى إلى مشايخنا فى الأزهر العتيد ، يرددون هذه الأقاصيص فى افتخار وعظمة ، جديرة بالنظر ، حقيقة بالعناية .

أجل كنت أستمع إلى شيختنا يرددون هذه الأقاصيص ، فأجد فيها اللذة والمتعة ، وأشعر بالفرح والسرور . ولست أدرى لماذا كنت أصيخ إليها ، وأعلق عليها اهتماماً أكثر مما أصيخ إلى الدروس ، وأعلق عليها ؟ .

كانت غايتى من العلم ، أن أكون عالماً فحسب ، متفقهاً فى علوم الدين ، متذوقاً مسائله ، سائراً على نهجه لا أريم . . وأما الرزق ، فكنت آنف أن أتعلم لأحصله بالعلم ، وكنت أحتقر نفسى حينما يهجس فى خاطرى أن أكون مدرساً وأجعل العلم سبيلا لهذا ، أو قاضياً ، والعلم سبيل ذلك ، أو موظفاً كائناً ما كان ، والعلم طريق إلى الوظيفة . !!

وكانت بعض المسائل أثناء الدرس تروقنى ، والكثير منها لايروقنى بحال . ومن العجيب أننى كنت فى الحالين مصيخ الأذن ، حاد السمع ، ملتفتاً إلى أساتذتى فى شغف ونهم .. بيد أننى ناقم فى سرى على ما لايروق ، مغتبط بما يروق ، ولا أحرك ساكناً . !!

وفرق بين الحالين كبير . . بين شعورى نحو المسائل العلمية ، وشعورى نحو

الأقاصيص التى تتصل بالأزهر ورجاله العاملين . . لقد كنت حينما تقص القصة ، أذنا مصغية ، وقلباً واعياً . . أتجه إلى الأستاذ بكليتى ، وأتكئ على القمطر ، وأحد إليه بصرى ، محملقا فيه ، وكأننى ألتهمه التهاما ، وألقف كل ما يقول . . !!

ولم يكن الأستاذ يقص القصة على هذا النحو ، وتلك الصورة التى أقصها الآن . . كان أسلوبه ملتوياً حيناً ، غامضاً حيناً ، فيه شىء من الجفاف فى كثير من الأحايين . . فلم يكن ليوضح موضع العبرة ، وموطن العظة ، أو يبين الغرض من الحديث كما يجب أن يبين ، ولم يجعلنا نلمس المغزى بأيدينا ، وبخاصة وأن أكثرنا ليس عنده الاستعداد للوصول إلى ذلك كله بنفسه . .

وكانت عبارات بعض الأساتذة تحمل الكثير من الألفاظ الصريحة ، وبخاصة عند ما يجئ ذكر المرأة فى بعض الأقاصيص . . لقد كانت أسارير الشيخ تتهلل ، وشيبته تهتز ، ويتلمظ فى حرقة ، أسفاً على الشباب المضاع ، الذى لايعود ، ثم لا يجد مدحاً لذلك الشباب ، سوى قول القائل :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

أجل ، لم يكن الأستاذ يقص القصة كما أقصها الآن ، فهى لا تستغرق منه إلا بضع دقائق ، يرويها كما سمعها ، كحادثة أشبه ماتكون بحوادث الصحف الآن ، التى لاتزيد على بضعة سطور ، ولكنها كانت تتسع فى خيالى الصغير ، وتتسع . . وتتسع . . وتتلون بألوان مختلفة ، وتتكيف بمزاجى الخاص ، وتحمل اتجاهى فى الحياة ، حتى لا أكاد أجد اتفاقا بينها وبين القصة الأصلية إلا فى الفكرة والغرض . .

وبتوالى الزمن ، أخذت هذه الأقاصيص الصغيرة فى النمو ، والتوالد ، والتفريع والتضخم ؛ بحيث بلغ من تضخمها أن أحداً لن يمكنه أن يردها إلى أصلها إذا أراد ، وبخاصة وأننى لم أجعل القصة خاصة بشخص ، وإنما جعلتها عامة ، تحمل فكرة جيل ، فجردتها من أسماء أبطالها الحقيقية ، لتسير عظة ، وتمضى عبرة ، وتخلد ذكرى جميلة من ذكريات ذلك العهد الجميل ، عهد التلمذة والجد . .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذه المجموعة ، تصوير لما يجول في الأزهر الحديث من أفكار ، ويتراءى فيه من صور ، وما كان يجول في الأزهر القديم من أفكار ويتراءى فيه من صور . .

ومهما يكن من شيء كذلك ، فهي لون من ألوان الفكر الأزهري ، ونوع من وفاء الجيل الأزهري الجديد ، لذلك الجيل الأزهري القديم ، الذي سمع منه ، وروى عنه .. وصورة من وفاء الجيل الأزهري الجديد ، للأزهر الشريف ذاته ، ذلك المعهد العتيد ، الذي أشرق على الكون كله ، شمساً مضيئة نيرة ، تبدد حلكة الجهالة ، وتقضي على الظلم ، وتكشف كيد الكائدين .. ذلك المعهد الذي يكن له كل مسلم ، وكل عربي ، حباً من شغاف القلب ، وعطفا من صميم الفؤاد ، وتقديراً دونه كل تقدير ؛ ولا يعدل ذلك كله ، إلا حبه لدينه وعروبته وعطفه عليهما ، وتقديره لهما ، وجهاده في سبيل رفعتهما وإعلاء شأنهما .

بقي الأزهر معقل الإسلام ، وحصن العروبة ..

ودام أهله أئمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتجهون بالمجتمع إلى الحياة الروحية السامية ..

وعاش الأزهر وأهله ، مسدد الخطا ، موفقاً على الدوام . ! !

عبد الحفيظ أبو السعود

# السعى . . !!

— وما دخل الألوهية فى موضوعنا الذى نتحدث فيه ؟

— لأن الإله خلق العبد ، وكفل له الرزق ، وضمنه له ما دام حياً . .

— ولكنه لم يأمره بالتواكل والتكاسل . . !

— لقد أمره بالتوكل عليه ، وطالبه بالاتجاه إليه ، والثقة به . .

— إن معنى التوكل غير ما تفهم دون ريب . . فليس معناه النوم والخمول ، والقعود عن طلب الرزق ، والخلود إلى الراحة . . لقد أمره بالسعى والكد ، والعمل الدائب ، والحصول على الرزق الحلال . .

— ألا تذكر قول الله تعالى : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ؟

— أذكره ولا أنساه . .

— ألا تذكر قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ؟

— وأذكر هذا أيضاً ولا أنساه . .

— إذن فكيف تتمسك برأيك إلى هذا الحد ؟

— لأننى أذكر بجانب ما ذكرت قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » ، وأذكر كذلك قوله الكريم : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . . » وأفهم كذلك أنه لا منافاة بين الآيات جميعها ، لأنه أمر بالسعى والعمل ، وضمن لك الرزق حينئذ ؛ فما على العبد إلا أن يسعى ، ويعمل ويكد ، ويتعب ويجد ، ويناضل مكافحاً فى هذه الحياة كفاح الأبطال ليعيش عيشة الأحرار . .

• • •

وعبثاً حاول الشيخ عبد الرزاق أن يقنع زميله وصديقه الشيخ محمد بوجهة

نظره في الحياة ، ورأيه في الوجود . وإنه ليعجب أشد العجب ، كيف استعصى على زميله أن يفهم ذلك مع وضوحه وظهوره . ! إنك لو سألت أى إنسان كائناً ما كان هذا السؤال :

— من يرزقك ؟

لقال لك على الفور دون تفكير ولا تردد :

— الله ! !

إن السعى ليس شرطاً فى الرزق ، وإلا ، فمن يرزق الطير الصغير الذى لا ينقل رجلا ، ولا يحرك جناحاً ، لأنه لا يقوى على الطيران ؟ !

ومن يرزق الحراء الصغيرة، أو الأشبال التى تكمن فى عرينها ولا يمكنها أن تنقل قدماً ، أو تخرج إلى رحبة الفضاء ، حيث الرياح الهوج العاصفة ، أو القيظ الشديد الذى يذيب الرءوس ، أو البرد الذى يفتت الأبدان والأجسام ؟ !

ومن الذى يرزق الطفل الصغير ، الذى لا حول له ولا طول ، ولا قدرة على السير أو النهوض من مكان إلى مكان ؟ . . .

ومن ؟ ومن ؟ إلى مالا نهاية له ، مما نشاهده فى الكون ، ولا نكاد نفكر فى أمره ، أو نأبه له . . لا جرم أن الله وحده يرسل لهم الرزق على يد الأمهات والآباء ، دون أن يحركوا ساكناً ، أو ينقلوا قدما . .

فلماذا يتمسك زميله محمد برأيه فى السعى ، ويصوب إليه العبارات اللاذعة ، والأساليب القارصة من حين إلى حين ؟ !

حقا لقد شعر من نفسه بأنه عبء ثقيل على الشيخ محمد ، الذى يتولى الإنفاق عليه . . يطعمه ويسقيه ، ويشركه فى كل ما يرسله له والده من نقود قليلة ، لا تكاد تكفى شخصاً واحداً ، بله شخصين . .

إنه يعلم هذا ؛ ويعلم كذلك أن الشيخ محمداً ، قد بلغ به الكرم إلى التغاضى عن مضايقاته له طوال هذه المدة . . . مدة المجاورة فى الأزهر . . ثلاث سنوات كاملة ،

وأنه كأى إنسان دون ريب ؛ لابد أن يمل هذه الحياة الثقيلة ، وبخاصة وأنه ليس بينهما قرابة ، ولا نسب يجمع بينهما ، ولا وشيجة مصاهرة أو نحو ذلك ، ولا صلة أخرى غير صلة الدرس . . ! !

أجل ؛ إنه يشعر بهذا تماماً ، ولكن ماذا يفعل ، وقد بلغ به الفقر مبلغاً كبيراً ، وفقد العائل والنصير ؛ فمات والده عقب التحاقه بالأزهر مباشرة ، وتجاهله عمه الغنى الثرى ، ولم يذكر فى وقت من الأوقات أن له ابن أخ فى حاجة ماسة إلى النفقة والكسوة ، ورعاية مصالحه وشئونه ، وأنه إذا رعاه ، فلا يلبث أن يصبح عضواً عاملا له أثره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ومكانته بين الناس . .

لقد كان عمه جاهلا ، وليس من رأيه التعليم ، بل من رأيه النزول إلى ميدان الحياة ؛ فيزاول الإنسان عمله فيها ، من تجارة أو زراعة . والحياة مدرسة لها قداستها وقيمتها وأثرها . . ولقد عارض أخاه حينما أرسل بابنه عبد الرزاق إلى الأزهر ، ورأى فى ذلك الخطأ الذى لا يغتفر ، ولهذا تجاهل ابن أخيه ، وتركه للحياة تعركه . فإما جاهد وقاتل وناضل . وإما لم يكن جديراً بهذه الحياة ، وخير له أن يموت ، ويفارق الوجود . . !

وكان أخشى ما يخشاه عبد الرزاق أن يصارحه زميله محمد بمضايقته له ، وينفض يده من مساعدته ومعاونته . وإنه لو فعل لما كان غريباً منه أن يفعل ، والغريب ألا يفعل طوال هذه المدة ، وأن يتسع له كرمه الشرقاوى ، وجوده الحاتمى ، وعطفه وشفقته إلى هذا الحد العجيب ، الذى أثار اهتمام من حولهم جميعا . .

يالله ! إنه ليخيل إليه أن هذه المناقشة الحادة ، وتمسك زميله بهذا الرأى ، تلميح بأنه سينفض يده منه . .

حقا . . يجب أن يبحث عن عمل يحصل منه على القوت الضرورى ، الذى يكفيه المسئلة والاستجداء ، ومضايقة الغير بغير حق . .

وهل ينكر أن عمله هذا من قبيل المسئلة والاستجداء ؟ !

● ● ●

بيد أن الشيخ عبد الرازق الطالب بالأزهر الشريف تكاسل وتراخى ، وكثيراً ماصمم على العمل والسعى ، ولـكنه سرعان ما يستمرئ الراحة ، ويؤثر العافية ، ويمنعه حياؤه من مزاولة بعض الأعمال التى تدر عليه شيئاً من المال ، ويؤثر التغاضى عن العزة والـكرامة مستندا إلى ذلك الرأى الخطير . . التوكل على الله ، زوراً وبهتانا . . فليس معنى التوكل أن تنام وتقعد عن طلب الرزق ، ثم تقول بعد ذلك فى إصرار : إن الله كفل لى الرزق ، ووعد به . . أما وقد علمت أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . . وأنه لاينجح فى الحياة إلا الدائب السعى والعمل ، فما ينبغى أن يتغلب عليك الكسل ، ويجرفك فى تياره الخمول . .

إن الذى ضمن لك الرزق ، ووعد به ، أمرك بأن تحصله من طرقه المشروعة ، وسبله المعروفة ، فإذا تكاسلت وتوانيت ، ضاع منك الـكثير ونالك القليل ، الذى لا يطمع فيه السباع ، وإنما ينالك فتات الموائد مما لا يليق بإنسان له كرامة وعزة ، بل لا يليق إلا بالكلاب تحوم من هنا وهناك ، لاتطمع فى غير الدون ، والتافه من الطعام والشراب . .

ولقد حاول الشيخ محمد مرات عديدة ، أن يصارحه بكل شىء ، وأنه يجب أن يعمل عملا ما ، وأن العمل يخلقه الإنسان خلقاً إذا أراد ، ولا يضير الإنسان أن يزاول عملا ما ، يجد فيه رزقه ، ورغد عيشه . ولكنه لم يجد أذنا مصغية ، وبخاصة وأن حياءه يمنعه من إعلان الأمر صريحا ، فكان يذهب به مذاهب شتى . فى صورة محاورة ، أو مناقشة لرأى من الآراء ، أو مجادبة لأطراف أحاديث شتى . . ! !

وهداه تفكيره أن يفعل أمراً ، واعتقد أن هذه هى الجولة الأخيرة ليقنع زميله عبد الرازق بوجهـة نظره ، حتى يعمل عملا يتسع به رزقهما قليلا ، وبخاصة وأن والده أخذ ينقص النقود التى يرسلها له كل شهر ؛ ولا بد أن يكون السبب فى هذا هو ضيق ذات يده ، فهو يعمل كفلاح أجـير لا يملك شيئا من حطام الدنيا ، وزينة الحياة . .

أجل . يريد أن يقنعه بهذا ، وهو لاينوى أن يحرمه مما يرسل إليه ، ولايريد أن يتركه لنفسه ، ولا يعطيه شيئا ؛ بل يريد أن يسعى كل من جهة ، فبذلك لايقاسيان هذه الشدة الأليمة . ولا يعانيان هذا الألم العنيف : إذ أن ما يرسله له والده الآن ، أصبح لا يكفى شخصا واحداً إلا فى شىء من التقتير والضيق الشديد . .

إن زميله عبد الرزاق لو أطاعه لذهبا سويا إلى قرافة المجاورين ، وباب الوزير ، والماليك ، ظهر الخميس من كل أسبوع ، يقرآن القرآن رحمة ونوراً ، فينالهما من وراء ذلك ما يرسله الله لهما من رزق ، لا جرم أنه يكفيهما فى سعة ورخاء طوال الأسبوع ، فيستقيم لهما الأمر ، ويستقر الحال . .

وأخذ يعد العدة لينفذ الفكرة التى اهتدى إليها ، مع أنها ستكلفه بعض المال الذى هو فى حاجة ماسة إليه . . وانتظر حتى أذن الشهر العربى بالانصرام والإنتهاء . وفى ليلة من ليالى السرار حيث تظلم الدنيا ، ويتوارى القمر ، ويخبو الضوء ، صعد إلى سطح الجامع الأزهر ، حيث يجلس دائما مع زميله عبد الرزاق . .

● ● ●

كان الجو جميلا ، والنسيم عليلا رقراقا ، وقد اضطجع الشيخ عبد الرزاق فى بساطة وارتياح ، لا يفكر فى شىء ، ولا يعنيه من أمر الدنيا أكثر مما يعنى الطفل الصغير ، الذى لا حول له ولا طول .

وشعر بلذة لا تدانيها لذة لهذه العزلة الهادئة ، وبخاصة عقب المجهود اليومى الشاق الذى يبذله دائما فى استذكار دروسه ، وحفظ حصته من القرآن الكريم ، والمتون المختلفة ، التى يرى فيها أساسا لايستغنى عنه طالب الأزهر بحال من الأحوال ؛ فهى تسعفه بالجواب فى كل فن ، وتمكنه من السيطرة على الموقف ، وامتلاك زمام الأمر . .

وأحس بأقدام تقترب منه فى حيطة وحذر ، ثم بأشخاص يجلسون فى هدوء مبالغ فيه ، وكأنهم يخشون أن يحس بهم أحد ، أو يراهم إنسان ؛ فاسترقوا الخطا استراق الظلال على صفحة الأرض . .

إن الظلام حالك شديد الحلكة ، وإنه لا يكاد يرى كفه ، فالنجوم تلقى بشعاع خافت واهن ، لا يميز معه شيئا مما حوله . .

وعجب فى نفسه لهؤلاء الذين جلسوا بالقرب منه ، وهم على هذه الحال من الصمت والسكون . . إن هذا لم تجر به عادة ، فكل من يصعد إلى سطح الأزهر يحدث ضوضاء وجلبة إذا كان مع غيره ، أو يتحدث معه على الأقل أحاديث مختلفة ، أو يناقشه فى موضوع من الموضوعات الخاصة أو العامة ، أو مسئلة من المسائل ، أو بحث من البحوث .

وإذا صعد بمفرده جعل من القرآن خير رفيق له ، وأنيس يدفع عنه الوحشة ، ويزيل عنه الاضطراب ، لأنه إذا صعد صامتا ، خيل إليه أن هناك أنواعا من الجن لا حصر لها ، وألوانا من المردة لا حد لها ، وشكولا من الشياطين تتخطفه ، وتتجاذبه فى سخرية واستهزاء ، وتتقاذفه فى سرعة وحرص ، كما تتقاذف الكرة أيدى اللاعبين . . ! !

لهذا فإنه لا بد وأن يرفع صوته بالآيات يجودها أو يرتلها ، أو بالذكر والتسبيح ، والتكبير والتهليل ، أو يمطط صوته بلحن جميل يناجى به الليل ، أو نشيد صوفى مما يشيع فى مثل هذا الوقت ، حيث يغيب القمر ، ويختفى النور والضياء . . ! !

فلماذا يبالغ هؤلاء فى الاختفاء ؟ ولماذا يكتمون أصواتهم ، بل يكادون يكتمون أنفاسهم ؟ لا بد أن يكون فى الأمر شيء . .

وأدركه ضرب من الرهبة والخوف ، ولون من الفزع والاضطراب ، فتحسس حذاءه ، وجذبه إليه ، خوفا من هؤلاء الصامتين . . فمن يدرى ؟ ربما كانوا لصوصا يسرقون الأحذية والملابس والكتب ، لتباع بثمن بخس لا يقع موقعا من ثمنها ، ويبقى الطلاب بعد ذلك بحسرة هذه الأشياء المسروقة ، والتى قد لا يحصلون عليها مرة أخرى إلا بعد جهد ومشقة وعناء . . وتجمع فى نفسه وانكمش ، واستعد للقاء هؤلاء إذا دعا الأمر ، ولزم الحال . .

ومضت دقائق خالها ساعات ، وإذا به يشم رائحة الشواء ، ونكهة الخبز الطازج . وما أسرع هذه الرائحة اللذيذة إلى أنف الجائع الطاوى . . إن بدنه كله فى ذلك الوقت يصبح أنوفا لا حصر لها ولا عدد . . ! !

لقد جرى ريقه غزيرا ، وأخذ يتلمظ ويتحرق . . يالله ؟ ! إن هذا لون يسمع به ولا يستعمله . . لأنه لا يملك من ثمنه شيئا . . ولأن معدته لا تطيقه . . هكذا يقنع نفسه ، ولكنها لا تقتنع ، وكثيرا ماتتحداه بأنها تهضم اللحم شواء ونيئا . . ! !

ثم ماذا ؟ ثم سمع الأضراس تعمل عملها ، والأسنان والأنياب تفتك باللحم الغريض؛ فكاد يجن عقله ويقفز حيث يلتهم ماتصل إليه يده ، وتمكنه منه مقدرته وكفايته . .

آه لو علم من هذا الآكل ، أو بالحرى من هؤلاء؟ . . ربما كانوا أصدقاءه وأحبابه ، فينفحونه ببعض مامعهم ، أو يشركونه فيما يأكلون عن طواعية واختيار . .

إنهم لابد أن يكونوا كذلك ، فعمدوا إلى الصمت والهدوء ، لأنهم يخشون أن يأكل معهم ، ويشاركهم فى طعامهم الحبيب ، وبخاصة وهم يعرفون مكانه المختار ، الذي يجلس فيه دائما بجوار المئذنة . . هذا منطق معقول ، ورأى سديد . . إنهم لو كانوا من غير الأصدقاء والمعارف ، لما حاولوا هذا الصمت ، وتعمدوا هذا السكون والكتمان الشديد ، ولأكلوا كما يحبون ، لأنهم يأمنون جانبه ، ولايتوقعون منه مشاركة لهم . .

وكان صوت المضغ يصل إلى أذنيه حاداً عنيفا يكاد يفتك بهما ؛ فتململ فى مكانه واضطرب ، وقال فى صوت خافت حازم :

— يجب أن أعمل شيئا . . يجب أن أتحرك من هذا المكان ، وأغادره فى الحال ، لأمر بهؤلاء الآكلين . . إنهم على بعد خطوات منى . . يجب أن أقوم فوراً ، وإلا ضاعت الفرصة ، وقضوا على ذلك الشواء المسكين إلى آخر قطعة منه . .

وقام من فوره متجها نحو الصوت . . ولكنه توقف قليلا ، فلقد أدركه الحياء . وأحس بأنه سيكون فضوليا إلى حد لا تحتمله نفسه ، ولا يطيقه بحال من الأحوال . إنه فضولى على صديقه وزميله ، أما مع غيره فلن يقبل هذا أو يرضاه لنفسه . . وكيف يذهب إلى قوم لاصلة له بهم؟ آه . . ! لو علم من أمرهم شيئا ! إذن لما تردد فى الأمر ولأقبل فى عزم وجرأة وشجاعة وإقدام ، وانقض على الشواء انقضاض الصاعقة لاتبقى ولاتذر .

ورجع ثانية إلى مكانه حزينا كئيبا ، يائسا . . ! !

بيد أن بدنه ما كاد يلمس الأرض حتى قام مذعورا ، وكأنما لسعته أفعى ، واهتز كالمخبول ، وهو يقول فى نفسه :

— أجل ، سأمر بجانبهم ، وكأنما لا يعنينى من أمرهم شيئا . . إن نظريتى التى أدين بها وأسير عليها ، وأدافع عنها ، لن تفيدنى الآن شيئا ، إنى لو جلست بدون سعى فلن أحصل على شىء . . لابد أن آخذ بنظرية زميلى محمد ، وأمضى على بركة الله . . أجل لابد أن أتقدم إلى هؤلاء . . سأسعى . . سأسعى . . سأسعى إلى رزقى ، فالسعى واجب على كل فرد ، ومحال أن يعيش إنسان كائنا من كان بلا سعى فى الحياة . . ! !

• • •

وكاد الشيخ محمد ينفجر ضاحكا . . وكاد ينكشف أمره ، ويفتضح حاله ، ولكنه غالب نفسه ، فظل صامتا ساكنا ، وقلبه يرقص من الفرح والسرور ، والغبطة والانشراح . .

لقد أحكم وضع الخطة ، وتدبير الحيلة ، فأفلح ونجح ، ورأى ما كان من أمر زميله الشيخ عبد الرزاق ، وكيف بلغت به الحيرة والاضطراب هذا المبلغ العجيب . . وخيل إليه أنه كان يقرأ كل ما جال فى خاطره ، وهجست به نفسه . . وصدق حدسه ، إذ أيقن أنه لا بد وأن يتحرك لرائحة الشواء ، ونكهة الخبز الطازج اللذيذ ، ولابد أن يجاهد فى هذه السبيل ما وسعه الجهاد ، حتى ولو غير رأيه ، وتنازل عن نظريته التى يدافع عنها فى عزم وإصرار . .

وصمت حينما رآه مقبلا نحوه فى حذر وحيطة ، يسترق الخطا ، ويرهف الأذن ، ويحد البصر الكليل . .

وعجب عبد الرزاق حينما لم يجد أشخاصا كثيرين كما كان يعتقد ، ارتكانا على الجلبة التى سمعها ، والتى بولغ فى كتمانها ، وإخفائها إلى حد كبير . . ولكنه وجد شخصا واحداً مكبا على هذا الشواء يلتهمه ، وقد بدا للناظر كأنه يحميه من أن تتخطفه الأيدى ، لتقذف به إلى الأفواه المستعدة لابتلاعه بلا مضغ ، أو طويل عناء . . ! !

يا لله ! شخص واحد يأكل هذا الطعام اللذيذ ، الذى حرك مشاعره وأحاسيسه ؟ !
إن هذا لظلم صارخ . .

واكتفى بأن يمر بجانبه دون أن يطيل النظر إليه ، أو يحملق فيه . ولكى يشعر به ، ويلفت نظره إليه ، أخذ يسعل ويتنحنح ، فى تكلف مصطنع حتى حاذاه . .

وما كان أشد دهشته حينما سمع هذا الآكل يقول :

— « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ! !

يا لله ! إنه يعرف صاحب هذا الصوت . . إنه صوت صديقه الشيخ محمد ، فلماذا فعل ما فعل ؟ !

وسادت فترة صمت . ولم يندفع الشيخ عبد الرزاق هذه المرة ليأكل الشواء ، بل تمهل وتروى ، وفهم كل شىء . . فهم أن صديقه يريد أن يفهمه موقفه كما يجب أن يفهمه من أمد بعيد ، فقال فى عزم وإصرار :

— سأسعى من الغد . . سنكون معاً عند المقابر ظهر الخميس من كل أسبوع لنجول جولتنا ، ونحصل على ما يرزقنا الله به من رزق حلال . . ودعنى أشاركك طعامك الآن .

— بم تستحقه ؟ .

— بسعيي إليه . . ! !

وطفقا يأكلان فى جد ونشاط . . ! !

## المصحان . . !!

بلع الشيخ سلامه عبد البر ريقه وتجشأ مرات فى تكلف وتصنع ، ورفع يده اليمنى حتى انحسر عنها كم قفطانه وجبته ، وأخذ يمسح بها لحيته مرات ، فى عصبية ظاهرة ويجذب عنفقته فى عنف وثورة ، ويلعن هذا الزمن الذى زالت منه البركات وتغيرت فيه الأوضاع ، وأصبح الأزهر ألعوبة فى يد بعض المشايخ ، الذين ضيقوا الجبب والقفاطين ، وهذبوا العمائم واللحى ، فقصرت اللحى وخف شعرها بعد تكاثف حتى لا يكاد الرائى حينما يرى واحداً منهم يعلم أن له ذقنا إلا بعد طويل تحقيق ، وإنعام نظر . . وانكمشت العمائم حتى أصبحت كالقلنسوة الصغيرة البيضاء ، التى لا تمثل الهيبة والوقار فوق الرأس ، ولا تدل على علم أو فضل ، بل أصبحت تعطى لون العمامة فحسب ، ولا تعطى هيبتها ووقارها . . ! :

ويل للزمن وأهله . . !

أهكذا تتغير العقول ، وتتبدل الأفهام ؟ ويصبح للرأى الفطير مكانة ومنزلة ، مادام جديداً غريباً ، لم يقل به أحد من السلف الصالح ، عليهم من الله الرضى والرضوان ؟ !

إيه أيها الزمن ، لقد ساد فيك الجهلاء ، وتحكم المارقون ، وأصبح لهم دولة وصولة ، ومكانة ومنزلة . . هذه هى الفوضى الخلقية والعلمية ، بدعوى التجديد والمدنية . . عجل أيها الموت ، فقد فاض الكيل . .

● ● ●

ولم تكن حيرته بأقل من حيرة زميله فضيلة الشيخ معروف الغرباوى ، فهو أيضاً يبادله هذا الشعور ، ويقاسمه هذه النقمة الصاخبة ، على الأزهر الحديث من يوم أن تولى زمامه تلاميذ الشيخ محمد عبده ، الذين استمعوا إلى آرائه فى إصلاح الأزهر ، وإدخال العلوم الحديثة فيه ، من حساب وهندسة وجبر وطبيعة وكيمياء . .

إنهم لا يفهمون معنى لهذه العلوم ، التى حشرت حشراً فى مناهج الطلاب وشغلت جل أوقاتهم ، وصرفتهم عن العلم الصحيح ، الذى يجب أن يقبل عليه الطالب الأزهرى ، ولا يشتغل بسواه ولا يأبه بغيره كائناً ما كان . .

إيه أيها الزمن ، لقد انقلبت فيك الأوضاع ، فانخفض سوق الملازم الصفراء ، وكاد ينمحى ما فيها من علم وذخيرة ، وارتفعت أسهم هذه الكتب اللعينة البيضاء ، التى لا تحوى سوى الخزف ، ولا تضم غير الهراء الزائف ، والطلاء الكاذب ، والمظهر الخادع البراق . . ! !

● ● ●

— كم ورقة كلفنا بتصحيحها فى فترة الصباح ؟

— خمس عشرة ورقة . .

— اقرأ الأولى لأستمع إليك ، ثم نعطها الدرجة المناسبة . .

وأخرج الشيخ سلامة ورقة من الظرف الكبير ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وسمى باسم الله الرحمن الرحيم ، بعد ما خلع حذاءه ، وتربع على الكرسى الكبير ، وأخذ يقرأ بصوت مرتفع ، فيه تنغيم ، وغن ومد ، ولكنه لم يمثل المعانى التى تحملها الألفاظ . . ! !

فلقد كانت كل عنايته بشىء واحد ولا شىء غيره . . ذلك هو مخارج الحروف ، فتارة يستطيل الصوت ويمتد ، وتارة يقصر فى مسكنة وذلة ، ثم هو حينا مرتفع حاد ، وحينا آخر منخفض لا يكاد يسمع . . ! !

قال الشيخ :

— الرعد هو الصوت الذى ينشأ من اصطدام السحب بعضها ببعض ، والبرق هو اللمعان الذى ينشأ من هذا الاحتكاك ، أو بمعنى أوضح هو الشرارة الكهربائية التى تنتج من الاحتكاك ، كما تضرب حجراً بآخر ، فإنه ينتج عن دلك صوت ، ويصحب هذا الصوت شرارة ولمعان وبريق . . ! !

— كفى كفى يا شيخ سلامة . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . .

وألقى الشيخ سلامة بورقة الإجابة فى حنق وغيظ وقال :

تفسير آخر الزمن . . وماذا تنتظر يا شيخ معـروف من طلبة أفسد عقولهم القائمون بأمرهم . . هذا هو نتيجة الطبيعة والكيمياء التى تدرس فى الأزهر . . أعوذ بالله . . أعوذ بالله . ! !

— إن هذا كفر صريح ، يجب أن نحتج على هذه المعلومات . . إن هؤلاء الأفندية الذين يدرسون هذه المواد فى المعاهد والأزهر ، قد علموا جميع الطلاب الإلحاد وبذروا بذور الشك فى نفوسهم . .

— إن هذا يخالف تفسير الجلالين المقرر على هؤلاء ، أليس كذلك ؟

— أجل . . إنه مخالفة صريحة له . .

— ألا تذكر النص بألفاظه وحروفه ؟

— نعم . . الرعد هو الملك الموكل بالسحاب ، وقيل هو صوته . . والبرق هو لمعان سوطه الذى يزجر به السحاب . . ! !

— الله أكبر فتح الله عليك . . هذا هو التفسير الصحيح ، الذى ندين به ، ونعتقده ونموت عليه . . رضى الله عن الجلالين ، جلال الدين السيوطى ، وجلال الدين المحلى ونفعنا بهم آمين . .

— وما رأيك ، هل نقيم وزنا لهذا الهراء ؟

— لا سأشطب لك على هذا كله . . ! !

— اشطب بارك الله فيك ، أعطه صفراً . . ! !

● ● ●

هذه صورة خاطفة لما كان يجرى عليه التصحيح بين هذين الشيخين الناقمين على تطور الأزهر ، وإدخال العلوم الحديثة فيه . .

وهكذا سارا فى هذه الطريق إلى النهاية ، فلم ينج من قلمهما الأحمر إلا الأغبياء الذين يستظهرون الكتب ويحفظون الشروح والمتون ، ويرون فى تفسير كتاب الله

سبحانه وتعالى ، إعلاقا للفكر ، وتمسكا بما تحويه كتب التفاسير ، حتى ولو كان مخالفا للعقل السليم ، والمنطق القويم ، والرأى السديد . .

أما أولئك الذين يرون فى كتاب الله حلا لكل معضلة ، ودواء لكل داء ، ويستفيدون منه فى فهم مظاهر الكون ، وأسرار الوجود ، ويفتحون بجانبه كتاب العالم ، ليتخذوا من هذا كله منهاجا صحيحاً يسيرون عليه ، وسبيلا يدرجون فيها . . أما هؤلاء فلا قيمة لآرائهم ، ولا جزاء لهم إلا الصفر والرسوب . . .

● ● ●

— ما رأيك يا شيخ معروف فى هذا الطالب . . ؟

— إنه مجيد ، ولا بد أن يأخذ النهاية الكبرى ، واكتبها يا شيخ سلامة بالأرقام والحروف ، وإن شئت فاشكل الحروف . . ! ! فهذه هى الإجابة الصحيحة التى يجب أن تكون . .

— أجل إنه لم يترك حرفا واحداً ، وإنما جاء بالنص كما هو سليما لا غبار عليه . . ولم يجعل التفسير إنشاء ، كما يفعل غيره من بقية الطلاب المتفلسفين . . إنه تلميذى دون شك . .

— لا إنه تلميذى أنا . .

● ● ●

وكادا يشتبكان ، ويتراشقان بالألفاظ ، فكل منهم يدعى أن هذا الطالب الذى أجاب بالنص من الكتاب المقرر تلميذه ، ويفتخر بذلك ويرى فى هذا نصراً للقديم ، والعلم الصحيح . .

فغاية كل منهما أن يكون التلميذ صورة طبق الأصل من الكتاب ، ونسخة لا تختلف عن النسخة المطبوعة فى قليل ولا كثير . .

وأقسم الشيخ معروف لزميله الشيخ سلامة ، أن هذا الطالب الذى أجاب هذه الإجابة الحرفية تلميذه ، وأنه يكاد يذكر الدليل على ما يقول ، ليكون فيه القول الفصل ، والحجة الدامغة . .

— إذن فهات دليلك يا شيخ معروف ، لتقطع جهيزة قول كل خطيب . .

— لا لا . . إن هذا لن يكون . .

— ولم ؟ أهناك دعوى بغير دليل ؟ . .

— إن الدليل سر المهنــة ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن أعلنه لك . . إنه السر فى تفوقى ، وعظمتى العلمية . .

• • •

واتسعت بينهما شقة الخلاف ، وتطاول كل منهما على الآخر بألفاظ ما كان يجب أن تخرج من هذه الأفواه الطاهرة ، وكاد الوقت ينصرم ، ولا تزال الأوراق أمامهما كما هى ، لم يصحح منها سوى أربع . . ! !

وأخيراً رضى الشيخ معروف أن يعلن عن السر ، كدليل على دعواه ، بأن هذا الطالب من تلاميذه وطلبته ، على شريطة أن يقسم الشيخ سلامة أنه لن يتبع هذه الطريقة التى يحتفظ بها لنفسه والتى وفقه الله إليها ، وألهمه إياها . .

ورضى الشيخ سلامة بهذا ، وأقسم عليه ، فقال الشيخ معروف :

— إنى أسير مع تلامذتى فى التفسير . . تفسير كتاب الله ، على طريقة الكتاتيب ، تلك الطريقة المباركة ، التى تنتج أعظم النتائج ، وأبلغ الآثار ، وتخرج الفحول فى كل فن وعلم . .

— وماذا تعنى بطريقة الكتاتيب ؟

— أعنى أنى أحفظهم الجزء المقرر حفظاً . . على طريقة حفظ اللوح . . ! !

وصمت الشيخ سلامة ، مقتنعاً بما يقول ، وأعجبته هذه الطريقة ، بيد أنه أخذ يفكر فى اليمين والقسم . . إنه يريد أن يتبع هذه الطريقة دون ريب ، فهى منتجة إلى حد كبير . . طريقة اللوح . . الحفظ والتسميع . .

وفهم الشيخ معروف أن زميله قد أعجبته الفكرة ، فراح يقول فى عظمة ، ونخر وتيه ، ضاغطا على الألفاظ فى قوة جعلت لها رنيناً أجوف :

— إنها ابتكارى أنا دون سواى . . كان يجب أن يأخذوا رأيى حينما أرادوا أن يضعوا البرامج والمناهج الأزهرية لمختلف سنى الدراسة ، إذن لأسعفتهم بالطريقة المثلى ، التى تصلح بها العقول ، ويحفظ العلم ، وتصان المعارف على اختلافها وتباينها ، فالعلم ما حواه الصدر كما يقول القدامى ، وليس معنى لهذا عندى غير الحفظ عن ظهر قلب . . ! !

كان يتكلم فى حماسة بالغة ، ونشاط ظاهر ، محبذاً طريقته التى يتبعها مع طلبته من يوم أن قدر له أن يكون مدرساً فى الأزهر ، حتى الآن . . من يوم أن كان يدرس لطلبته على الحصير فى شبه حلقات جميلة رائعة ، كانت مظهراً جليلا للعلم والمعرفة وكانت البركة تنزل على الطلاب ، فيفهمون عنه كل ما يقول . ويأخذون عنه عباراته وجمله ، يتلقفونها فى حرص بالغ وهم أشوق الناس إلى العلم والمعرفة . .

لقد كانت أيام المردانى ، وأبى الذهب ، أياماً جليلة الشأن ، لها فى نفسه ذكريات لا تمحى ، وتحتل من تفكيره مكانا يملك عليه عواطفه وأحاسيسه . . أما الآن وهو يدرس فى هذه المعاهد الجديدة ، التى تشبه الحصون والمعاقل . . أو بمعنى أوضح تشبه المدارس التى لا علم فيها ولا معرفة ، وإنما هو الطلاء والزخرف ، والسراب الخداع . . هذه المعاهد ليست فى نظره ذات قيمة تذكر . . مع أنهم يسمونها نظامية ولو أنصفوا الواقع ، وأعلنوا كلمة الحق لسموها معاهد المسخ والجهل ، والفوضى والهمجية . .

فما قيمة هذه المقاعد التى يجلس عليها الطلاب ، وهم يلبسون أحذيتهم ، بجانب تلك الحلقات التى يجلس فيها الطلاب وقد خلعوا أحذيتهم وتطهروا من أدران الجسوم وأدران القلوب ؟ !

ما قيمة هذه الحصص القصيرة القليلة ، التى لا يكفى الزمن فيها لشرح مسألة من المسائل كما يجب أن تشرح بجانب تلك الحصص الطويلة فى الأزهر القديم ، والتى يجد فيها الشيخ فرصة سانحة ليفرغ كل مافى جعبته ، ويوسعه بحثاً ونقداً ، وتحليلا وتمحيصاً ؟!

إنها النقمة من الله ، وإنها اللعنة تصبها السماء على أهل الأرض ، وإنها علامة قيام الساعة ، أو قرب قيامها . . ! !

● ● ●

كان الشيخ يتكلم مندفعاً مع أفكاره ، سابحاً فى خياله الطليق ، وثورته المكفوفة ، وزميله وصديقه فى منأى عنه ، لا يكاد يتبين حديثه ، ولا يفهم حرفا واحداً مما يقول . . بيد أنه كان يسمع ضجيجاً ، وألفاظاً ترتطم فى عنف ، وتهدر فى صخب ، ولا يدرى من أمرها وما تهدف إليه شيئاً . .

كان مشغولا بما هو أهم من الاستماع لصديقه وزميله . . كان مشغولا بالتفكير فى الخروج من مأزق القسم الذى أقسمه له ، وإيجاد محلل ينقذه مما وقع فيه . . إنه يريد أن يتبع هذه الطريقة السحرية العجيبة ، ليأتى بأروع النتائج ، وأجمل الآثار .. طريقة الحفظ والتسميع . . ولابد أنه سيجد فى يوم من الأيام باباً يتحلل به من هذه اليمين ، التى ألقى بها دون روية أو تمهل ، والتمحلات والحيل إذا أراد الأزهرى واسعة الأبواب . .

ورآه الشيخ معروف على هذه الحال ، فثار وغضب ، لأنه أعرض عن كلامه ، ولم يستمع لرأيه الناضج ، ونظرياته التى لن يفلح الأزهريون إلا إذا أخذوا بها كمبدأ سليم ، وقاعدة يسير عليها كل من يريد النجاح الذى لايعرف الفشل والخيبة ، وقال فى ثورة حانقة :

— إنك كهؤلاء الذين يدعون إصلاح الأزهر .. و ..

وما كاد يتم هذه العبارة حتى ماتت الكلمات فى حلقه ، وكأنما أدركته غصة مميتة وحال لونه ، واكفهر وجهه ، وقام منتفضا فى خضوع بالغ ، واهتمام كبير ، وكذلك فعل الشيخ سلامة ..

وظلا واقفين مدة ، حتى مر عليهما أحد (المشايخ) الشبان من الذين نيط بهم أعمال الامتحان ، فتقدما نحوه فى انحناءة بالغة ، وكاد كل منهما أن يقبل يده ،

و (الشيخ) الشاب يأبى عليهما ذلك ، ويجذب يده فى أدب وتواضع ، ويخاطبهما فى وقار بالغ ، واحـترام كبير ، فهم من أساتذته ومربيه . ثم غادرهما وانصرف إلى حيث يؤدى عمله بهمة ونشاط .

● ● ●

وساد الصمت العميق ، ولا تزال أوصالهما ترجف ، وأسنانهما تصطك فى عنف وخوف ، ووجل واضطراب ، فقال الشيخ معروف فى صوت خفيض :

— أخشى أن يكون سمع طرفاً من حديثى إليك ؟!

— لا أدرى .. وأرجو ألا يكون قد سمع شيئا . .

ومضى يقرأ ورقة من أوراق الإجابة ، ويبالغ فى رفع صوته ، ليبدى الجد والنشاط ، وليقنع نفسه أن شيئاً مما كان لم يكن ، وأن أحداً لم يسمع حرفا مما قال . .!

# فراسة المؤمن !!

## ١

أغلق حلمى رجب باب غرفته فى عنف وشدة ، ومضى إلى حيث لايدرى من أمره شيئا ، ولايعلم إلاأنه مكروب بائس طرده صاحب المصنع دون أن يكافئه المكافأة اللائقة به .. لقد أعطاه بضعة جنيهات أنفقها لآخر مليم منذ شهرين ، وهاهوذا يتسكع هنا وهناك دون أن يعرف له مأوى يأوى إليه ، أو ملجأ يلجأ إليه .

إن صاحب المنزل يطالبه بإيجار هـذه الغرفة الحقيرة التى يسكنها على مضض ، وللرجل عذره ، فهو يريد حقه الذى خيل إليه أنه لن يحصل منه على شىء .. ثلاثة شهور لم يأخذ منه شيئا ، وهـذه مدة طويلة دون ريب ، ما كان يأمل أن ينتظرها ذلك الرجل البخيل ..

إنه الآن يطارده فى كل مكان ، ويلاحقه أينما حل ، وبخاصة وأن الحجرة خالية من كل شىء إلا من حصير حقير ، ولحاف ووسادة ، وبعض الأوانى الحقيرة التى إذا بيعت فلا تساوى أكثر من بضعة قروش .. !!

أخذ حلمى يتسكع هنا وهناك ، فى الشوارع والأزقة والحارات التى يعلم أنها بمعزل عن دائنيه من البدالين وغيرهم من أصحاب الحوانيت الذين يأخذ منهم حاجياته ، ولا يعطيهم شيئا .. حقا إنهـم لايزالون يحسنون الظن به ، ويعتقدون أنه سيقضى جميع ما عليه من الديون ، وأنه صانع ، والأيام لاتساعد ذوى الحرف والصناعات على الدوام ، وأن العسر يعقبه اليسر ، ولهذا لم يطالبوه بشىء ، بيد أنه أدركه الحياء لطول صبرهم عليه ، وسكوتهم عن المطالبة بما لهم عليه من دين ، سيقتضيه طويل الوقت حتى يقضيه لهم ، على فرض أنه وجد عملا ، وانخرط ثانيـة فى سلك الصناع والعاملين ..

يالله ! إنه يكاد يتحرق شوقا إلى المصنع وضجيجه ، والحركة الدائبة ، والعمل الدائم إن صوت الآلات لأجمل فى أذنيه وأحلى من توقيع الآلات الموسيقية التى يطرب لها الناس ، فمتى تعود تلك الأيام ، ويرجع ثانية إلى عمله ؛ فى أى مصنع من المصانع ، أو عمل من الأعمال . . ؟

إنه الآن لا يأنف من مزاولة المهن الحقيرة ، فليته يجد باباً من الأبواب ، يوفر عليه هـذا الجهد الذى يلاقيه ، والعناء الذى يكابده ، ويرهق أعصابه ، ويهدم بدنه هدما ذريعا . .

## ٢

وظل هكذا يضرب على غير هدى ، ويمضى إلى غير غاية ، وفجأة خطر له خاطر مفاجىء اضطربت له أعصابه وارتجف فؤاده ، ولـكنه مع ذلك أحس براحة وهدوء لهذا الخاطر ، وشعر بأنه المنقذ الوحيد من هذا الألم والضيق ..

وعزت الحياة وهى عزيزة ، وتمثل نفسه وهو قتيل ، تجتمع حوله الناس من كل ناحية ، وتقبل إليه من كل حدب وصوب ، ويعرفون أنه قد انتحر لضيق ذات يده ، ولما هو فيه من العسر والفقر . .

وهز رأسه اشمئزازاً وتأففا ، وطفق يسير ويسير ، حتى شعر بأنه تعب من المشى والسير على غير بصيرة ، فعاودته النقمة على الحياة وأنها لا تستحق منه كل هذا العناء ، والجهاد فى سبيلها إلى حد أنه يمشى هكذا جائعاً خاوى الوفاض . .

وتجسم هذا الشعور ، وبخاصة وأنه ليس وراءه من يحمل همه ، أو يحزن على فقده . . إنه لم يتزوج إلى الآن على الرغم من أنه فى العقد الثالث من عمره ، وكاد يشرف على نهايته ، ولقد مات والده من زمن بعيد وانقطعت الصلة بينه وبين أقاربه وبقية أهله وذويه ، ولم يعد هو فى ذاكرتهم على الإطلاق . .

لا حاجة به إذن إلى الحياة ، التى تؤلمه و تضنيه ، وتهد بدنه هداً ، وترهق

أعصابه إرهاقاً كبيراً ، حتى خيل إليه أن بدنه لا يتماسك من كثرة ما قاسى وجاهد ، فى هذا المحيط المكروب . . . ! !

وما قيمته فى هذا الوجود ، جائعاً فقيراً ، لا يجد قرشا واحداً ، يغنيه من عوز ، ويدفع عنه غائلة الذل ، وشبح الفاقة الأليم ؟

لقد اقترض كثيراً من زملائه وأصدقائه العمال ، حتى ضاقوا به ذرعا ، ومنعوه ما سأل مرات ومرات ، بدعوى أنهم لا يملكون ما يطلب ، وليس معهم ما يريد ، ولكنه يعلم تمام العلم ، ويوقن يقينا لا يعتريه الريبة والشك ، أنهم منعوه ما فى جيوبهم . !

وكانت عباراتهم تقع من نفسه موقعا أليما ، وبخاصة عبارات الذين ينظرون إليه فى تشف ونقمة ، وكأنما فعل بهم شراً ، أو قدم لهم إساءة ، ويعلم الله أنه كان أبعد الناس عن الإضرار بالغير ، والإساءة إلى الناس .

وأخذ يفكر فى الطريقة التى يتخلص بها من الحياة .!!

وتعقدت أمامه الطرق ، واشتبهت السبل ، وانبهمت المسالك ، وخيل إليه أنه لن يستطيع كذلك الخلاص والانتحار . . ! !

الغرق فى النيل ؟ ! الوقوف أمام قطار ؟ ! الاصطدام بسيارة أو ترام ؟ ! القفز من فوق عمارة أو بيت ؟ ! ضربة سكين ؟ ! طعنة خنجر ؟ ! رصاصة من مسدس ؟ ! تناول سم ؟ ! . .

هذه الطرق المختلفة مرت بذهنه فى سرعة وتتابع ، وكأنما لتقدم له الدليل على ارتباكه وضعف نفسه ، وضآلة تفكيره . .

ورأى فى كل منها حلا لمعضلته ، بيد أن السم كان أسهل هذه الأنواع فى نظره وأيسرها سبيلا ، إلا أنه لا يملك ثمن الجرعة التى تكفيه ليموت ، فزادت حيرته ، وعظم ارتباكه . . إذن فلتكن رصاصة من مسدس . . ولكن من أين له هذا السلاح ؟ إنه سلاح الأغنياء . . أما الفقراء فلهم الغرق بالمجان . . ! !

## ٣

واتجه إلى النيل فى سرعة ونشاط ، فهو خير من الاصطدام بسيارة أو ترام أو قطار . . فهذه مرهقة مضنية ، عنيفة حادة ، لايقوى قلبه على الوقوع فيها بحال من الأحوال . . أما النهر ، فأمره هين سهل . . سيصعد إلى أى جسر من الجسور التى على النيل ، ويلقى بنفسه إلى الماء ، ولن تمضى دقائق معدودات حتى يكون من الهالكين ، ولن يكتشف أمره أحد ، إلا بعد أن يكون جثة هامدة .

وبينما هو فى طريقه إذ مر بمسجد يرتفع من فوق مئذنته صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح ، ويعلن عظمة الله وكبرياءه ، وأنه أكبر الكبراء وأعظم العظماء .

ووجد نفسه مع المصلين ، ثم بين الملتفين حول الشيخ الأشيب ، الذى تبدو عليه علائم الصلاح والورع ، ويشع من عينيه نور عجيب ، وينبعث صوته فى رنة تأخذ على السامع الطريق ، وتملك عليه عواطفه وأحاسيسه ، فلا يجد بداً من الاستسلام لكل ما يقول ، والخضوع لما يريد . . ! !

وظل حلمى محملقا فى الشيخ ، لاتفوته كلمة من كلماته ، ولا عبارة من عباراته ، كلها واضحة مفهومة ، لا خفاء فيها ولا غموض . .

كان يتحدث عن التوكل على الله ، وأثر التوكل فى حياة الإنسان ، وأن بعض الناس لايفهمه على حقيقته ، فيتوانى فى عمله ، ويتكاسل عن طلب الرزق ، ظنا منه أن رزقه يأتيه وهو على حاله ، لايحرك رجلا ولا يرفع قدما . . إن هذا نكران لنعم الله فلقد وهب للإنسان عقلا مفكرا ، وبدنا نشيطا ، فيجب أن يستغل الإنسان وقته كله للكد والكدح فى هذه الحياة ، معتمداً على الله . . عليه أن يأخذ بالأسباب فحسب فإذا فشل أوخاب سعيه ، وضل عن الطريق الصحيح ، فليس الذنب ذنبه ، وإنما لعبت دورها الأقدار . .

وصمت الشيخ ، وصمت الحاضرون ، ثم ارتفع صوت يقول :

— وما الحل إذا لم يصادف الإنسان التوفيق . . ؟

— عليه أن يتذرع بالصبر ، ويتدرع بالجلد . .

— لقد طال الصبر بلا طائل . .

— كلا يا بنى عليه أن يصبر ما دام فيه نفس يتردد . .

٤

كان السائل حلمى ، ولـــكنه لم تبد على وجهه دلائل الاقتناع فآثر الصمت ، وبخاصة وأنه عما قريب سيغادر هذه الحياة .

وتابع الشيخ حديثه ، ولكنه اتجه به وجهة أخرى ، فترك حديث التوكل على الله والاعتماد عليه ، وأفاض فى التحدث عن النوائب تصيب الإنسان فيهلع ويجزع ، وكأنما قد أخذ على الله عهداً ، ألا يصيبه بأذى ، ولا يناله بمكروه . .

لقد بلغ السفه بالإنسان أن ينقم على القدر ، ويثور على القضاء ، إذا اشتدت به ضائقة الحياة ، مبلغا قد يجد فيه إرهاقا لنفسه ، وإثقالا عليه ، ولو فكر قليلا لعلم أنه بذلك يعرك نفسه عركا ، ليكفر ذنوبه ويمحو سيئاته وآثامه ، أو يزيد فى أجـره ، ويضاعف حسناته . . ! !

إن الضيق يعقبه الفرج ، والشدة يليها اليسر ، وعلى الإنسان أن ينظر إلى الأشياء بعين الحقيقة التى لا تخطىء ، والواقع الذى لا يـكذب ، مهما تغير الزمن ، وامتدت صحائف الأيام . .

إن النقم والـكوارث فرصة للعاقل ، ليرجع إلى ربه ، ويمتحن علاقته به ، ويجدد صلته به ، ويا هناء العبد إذا حسنت الصلة بينه وبين الله . . إنه لا يرى شراً فى هذه الحياة ، ولا ينقم على ما يصيبه لعلمه أنه عبد الله ، ومن تمام العبودية وكمالها ، عدم التذمر أو التأفف من القضاء .. شدائده وكوارثه ، خطوبه وأهواله ومتاعبه .. !!

قد يحزن شخص من الأشخاص ، ويشتد حزنه ، ويعظم كربه وهمه ، لماذا ؟

لأن الله حرمه نعمة المال ، وضيق عليه فى الرزق ، فهو يجده فى عناء وتعب ، وكد وجهد كبير ، ولو تدبر لعلم أن هذا الوضع خير له فى الدنيا والآخرة . وأنه لو أثرى لأطغاه المال ، وبعد به عن الله وأذله واستعبده ، ومضى به إلى النهـاية المحتومة ، حيث يجد عذابه نيرانا تشوى بدنه ، وتكوى جسمه . ويبقى هكذا حتى يأذن الله له بالنجاة والخلاص من هذا العذاب الأليم . .

٥

وذهل حلمى حينما اتجه إليه الشيخ ، وكأنما يخاطبه هو دون سواه ، قائلا :

— وإن تعجب فلذلك المأفون ، الذى لا تكفيه النقمة على القضاء ، والثورة على القدر ، بل يتجاوز به جنونه الحد ، فيحاول أن يقتل نفسا حرم الله قتلها . . يحاول الانتحار والتخلص من هذه الحياة . . ! !

وأطرق حلمى برأسه إلى الأرض ، فلقد خشى أن يعلن الرجل أمره أكثر من ذلك . . يالله ؟ ! ومن أخبره بما اعتزم أن يفعله ؟ كأنما أطلعه الله على ما فى ضميره ، مع أنه لم يبح به لإنسان ، إنها لفراسة عجيبة دون ريب . .

ولم يكد ينعم بهذا الحديث النفسى حتى أشار إليه الشيخ ، وقال :

— أرجوك يا بنى أن تتكرم بالذهاب إلى منزلى بجوار المسجد ، وتطرق الباب ، وأن تخبر زوجتى بأنى أريد أن تصنع لنا ( فطيرة ) نأكلها غداً إذا شاء الله ، وليسر بها الأولاد . .

وأعطاه عشرين قرشا ، ووصف له المنزل ، ورجاه أن يعطى لها هذه القيمة لتستعين بها على ما طلب منها . .

وسر حلمى لهذه الثقة العجيبة ، ورأى فى الشيخ مزايا عظيمة تحبب الناس فيه ، وتجذبهم إليه ، فهو بجانب علمه ، تقى ورع ، تبدو عليه مخايل الذكاء ، وسيما الصالحين ، الذين طالما سمع عنهم فى قديم الأزمان والآباد ، فهل كتب له أن يشهد

هذا النوع الغريب من أحباب الله وأصحابه ، وأصفيائه وأوليائه . .

من يدرى . . ؟ !

## ٦

وطرق الباب . .

وأجابه صوت من وراء ستار . صوت امرأة الشيخ دون ريب :

— من الطارق ؟

— تلميذ من تلامذة الشيخ .

— وماذا تريد ؟

— لقد بعثنى الشيخ لأخبرك ، بأنه يريد أن تصنعى فطيرة ليسر بها الأولاد غداً ، ولتكون لكم طعاما . .

— كيف يقول الشيخ ذلك ؟

— إنه أمرني أن أبلغ هذه الرسالة ، وأن أعطيك هذا المبلغ . .

— أى مبلغ تريد ؟ !

— لقد أرسل إليك عشرين قرشا . .

— اذهب إلى الشيخ وأخبره ، بأن الذى كفل لنا رزق ما مضى ، ضامن لنا رزق ما بقى ، وأن أمر غد لله الذى خلق الناس ، ومحال أن ينسى واحداً منهم . .

— سمعاً وطاعة يا سيدتى . .

— وأعطه نقوده ، فلا حاجة لنا بها . . ومن يعش يرزقه الله . .

— سمعاً وطاعة يا سيدتى . . ! !

## ٧

وسار حلمى ، ولم يعرف على وجه التحقيق كيف سار . .

إنه مشى دون ريب ، لأنه وصل إلى المسجد ، فكيف كان يمشى ؟ . . لقد

ذهل ، وحار فى أمره . . وأخذ يهمهم همهمة مبهمة فى دهشة وارتباك ، وهو لا يكاد يدرى من أمره شيئا بحال من الأحوال . .

أهذه امرأة ؟ إنه يخيل إليه أنها ملك من الملائكة وأن الله أرسلها إليه لترده إلى صوابه ، وتفهمه أمره على حقيقته وأن الله سبحانه وتعالى ألهمها كما ألهم زوجها ، بعلاج مرضه الذى يعانيه ، وشقائه الذى يكابده ويقاسيه . .

امرأة لها مثل هذا الإيمان بالله ، والثقة به ، ترفض أن تفكر فى الغد ، أو تتخذ له أهبة واستعداداً ، لأن أمره ليس بيد أحد غير الله ، خالق الكون ، وبارىء النسم . . إن هذا لعجيب . .

كيف إذن لايبلغ مبلغ هذه المرأة فى إيمانها وتقواها ، وثقتها بالله ،وتسليم أمرها له ، واطمئنانها إلى جانبه المنيع ، وحصنه الحصين . ؟ !

إنه لعار وأى عار أن ينحط إلى هذا الدرك الأليم ، وأن يهوى إلى هذه الهوة السحيقة المهينة . وأن يبلغ به التخاذل والتواكل وضعف الهمة إلى هذا الحد المزرى . .

يالله ، إنه ليعجب الآن من نفسه كيف سولت له الانتحار ، والتخلص من الحياة ، مؤثراً إلقاء السلاح في ضعف وفتور ، والفرار من ذلك الميدان الدائم الصراع ، والذى لا ينجح فيه إلا الرجال العاملون ، الذين لا تفتر لهم همة ، ولا يضعف لهم عزم . .

يا لها من صورة نكراء ، وفعلة شنعاء ،وجريمة صارخة ، تلك التى أقدم عليها فى جهل وتراخ ، وبرود عاطفة ، وبلادة ذهن . .

إنه لم يساو امرأة الشيخ التى رفضت فى إباء أن تدنس عقيدتها ، أو تعتمد على غير الله ، ولم تقبل أن تفكر فى أمر الغد الذى لم تعلم من أمره شيئا ، والذى تكفل به رب العباد وبارىء النسم ، وليس من حقها التدخل فيه . .

- لقد أدرك الآن تماما أنه لم يصبر كما يجب ، وأن صبره كان مزيفاً . وأن جلده كان خادعاً كاذبا . . وأن الصبر الحق لا حد له ولا غاية ، وأن الجلد الحق ، هو

التسليم لله فى كل شىء ، والرضوخ لحكم القضاء ، والاستجابة لصوت القدر ، دون اعتراض أو نقد ، فإن الإنسان لا يدرى من أمر غده شيئا ، ولا يعرف من خير نفسه كما يعرف خالقه وربه . . وما أجمل الصبر يحدوه الإيمان ، والجلد تصحبه الثقة بالله ، لا يتطرق إليها الشك أو الارتياب . . ! !

إن الإنسان ما دامت فيه الحياة ، ينبض بها قلبه ، ويختلج بها فؤاده ، ويمتد له فيها أمل ، وتتصل له أمنية ، فهو مطالب بالصبر ، مأمور بالجلد ، حتى آخر نفس ينعم به ، ويتردد فى صدره ..

تباً لضعفاء النفوس ، وأدعياء القوة والرجولية ! ليست القوة نعرة ينعق بها كل ناطق ، ويجأر بها كل دعى ، ثم لا يكون له من هـذه الحقائق سوى الأكاذيب الخادعة ، والأباطيل التافهة ، التى لايستقر لها وضع ، ولا يستقيم لها وجود .. !!

إن الحياة لم تخلق لهؤلاء ، وإن عاشوا طويلا ، وامتدت آجالهم وحياتهم سنين طويلة ، وأحقاباً مديدة ، فما هذه الحياة التى يحيونها فى نظر العاقل سوى هباء . . وإنما خلقت الحياة للكادحين العاملين ، الجادين الصابرين ، فعليه إذن أن يسلك هذه السبيل ، ويسير فى تلك الطريق ..

ثم ماذا عليه لو حاول بعض الأعمال الكثيرة التى لا تدخل فى اختصاصه ليحصل على ربح قليل ؛ يقيم الأود ، ويمسك الرمق ، ويسد الخلة ، ويحفظ الحياة . ؟!

من يدرى ، ربما أغلقت أمامه أبواب ، لتفتح له أبواب أخرى ! لايعلم بها ، ولا يفكر فيها ؟ ! وربما كانت هذه الأبواب الجديدة التى لم تخطر له على بال ، خير ألف مرة ومرة ، من عمله الذى كان يزاوله ، ومهنته التى كان يباشرها ؟

إن أبواب الرزق كثيرة ، فليطرق إذن الأبواب من جديد ، وليقبل مرة أخرى على الحياة بنفس أخرى ، غير تلك النفس الواهنة الضعيفة ، المتخاذلة اليائسة ..

وتجسمت فى نفسه هذه المعانى ، ووضحت فى ذهنه هذه الصور ، فملأت عليه فكره ، وآفاق عقله ، وهتف فى عزم وقوة :

— سأحاول .. سأحاول ..

## ٨

— ماذا صنع الله بك يا بنى ؟.

— لقد رفضت ياسيدى ، وقالت : إن الذى كفل لنا رزق مامضى ، ضامن لنا رزق ما بقى ، وإن أمر غد عنـد الله ، الذى خلق الناس ، ومحال أن ينسى واحداً منهم ما عاش ..

— صدقت يابنى .. صدقت يابنى ..

وصمت قليلا ، ثم أردف :

— ولـكن كيف غفلنا عن ذلك ؟

— لا ياسيدى .. إنك لم تغفل عن هذا ، ولـكنى أنا الذى غفلت عنه .. لقد ألقيت على درساً لن أنساه ما حييت ..

وما كاد يخرج من باب المسجد ، حتى شعر كأنه بعث إلى الدنيا ، وعاد إلى الوجود من جديد ، وسار فى الطريق يغمره الأمل ، ويحدوه الرجاء ، وتسيطر عليه الثقة بالله ، والإيمان به ..

ونظر إلى السماء ، ونظر إلى الأرض ، ونظر إلى ما حوله من الناس ، فإذا بهذا كله قد تغير فى ناظريه وتبدل ، وأصبح رائعاً جميلا يضحك له ، ويدعوه إلى العمل والجد ، وكأنما يستقبله فى فرح ومرح ، ليستقبل عهداً جديداً ..

وقد كان .. !

# اللحن !!

وانتهى درس الضحى عند ما قال الشيخ بهدوء وطمأنينة :

ـــ والله أعلم .

وهذه هى العبارة التقليدية ، التى يختم بها المشايخ المدرسون فى الأزهر دائماً دروسهم
،هى تحمل معانى سامية ، من الإقرار لله سبحانه وتعالى بالعلم المحيط بكل شىء ، مادق
وما عظم على السواء ، وأن واحداً منهم لا يقول فى مسئلة من المسائل برأيه الخاص ،
إلا مستعيناً بالله ، فإذا وفقه فذاك ، وإلا فقد بذل ما فى وسعه ، وأدى ما عليه . أما
حقيقة الصواب والحق أو الخطل والخطأ ، فالله وحده هو العالم بهذا كله .. ! !

● ● ●

وجمع الطالب محمود الشرقاوى ملازم شرح ابن عقيـل على ألفيـة ابن مالك ،
وهرول مع الطلاب إلى الأسـتاذ ، يلتمسون منه النفحات ، ويتلقون البركات ،
ويطلبون الدعوات الصالحات ، لتنفتح لهم الأبواب المغلقة ، وتنحل المسائل المعقدة ،
ويرضى عنهم رب العالمين ، وهذا أقصى ما يتمنونه ويرغبون فيه . .

وأسرع بعضهم إلى الأروقة ، حيث مساكنهم المزدحمة ، التى يجدون فيها ملجأ
يقيهم قسوة الإنفاق ، ومرارة الاحتياج ؛ وخرج البعض الآخر إلى الخارج . . خارج
الأزهر الشريف ، حيث معترك الحياة الصاخب ، وميدانها الدائم العراك والنضال ،
وكان الشرقاوى مع الخارجين .. ! !

● ● ●

إذا رجع بك الزمن القهقرى ثلاثين عاماً ، رأيت هـذا الطالب وهو يسير فى
الأزقة والحارات بحى الجمالية ، ليصل إلى المنزل من أقصر طريق ، وأيسر سبيل ،
وكأنه قطعة من النشاط الغامر ، والحركة الدائبة ، التى لا تـكل ولا تمل ..

قامة قصيرة ، وعمامة تتوج هذه الهامة ، ووجه أبيض مشرق ، عليه سما الطهارة والنقاء ، وتحت إبطه كتبه وملازمه الصفراء ، التى تضيق هوامشها بتعليقاته التى لاتكاد تنتهى عند حد ، فهو يذاكر الدرس تماماً قبل أن يذهب إلى الأزهر ، حتى يخيل إليه أنه أصبح محفوظاً عن ظهر قلب ؛ ولا يكاد يترك الشيخ إلا إذا فهم كل دقيقة فيه ، ومن هنا كان يجد نفسه مضطراً لكتابة هذه التعليقات خشية أن ينساها وهو يريد دائماً أن يكون على ذكر منها ..

وهو من أسرة أكثرها من علماء الأزهر الذين يتوارثون التدريس فيه ، طائفة بعد أخرى ، ولهذا فسبيل الحياة كانت ميسرة له وممهدة ، فكان وقته يتسع للدرس والتحصيل ، بينا يضيعه غيره فى إعداد الطعام والشراب ، والحصول على الرزق بشتى الطرق ومختلف الوسائل ، وكثيراً ما تتكاءدهم العقبات ..

وتوقف الشيخ محمود الشرقاوى قليلا ، وأصاخ بأذنيه ، عند ما وصل إلى سمعه هذه العبارة فى خفوت وهدوء وسرعة :

« يا عاطى من غير سؤال يارب . »

يا عاطى . . ؟! كيف هذا ؟ إنه لخطأ فاحش فى اسم من أسماء الله . . إنه لحن لايليق به أن يمضى دون أن يصححه .. إن هذا صوت سائل دون ريب .. فأين هذا السائل ياترى ؟ .

ومضى يفتش عن صاحب هذا الصوت ، ولم يطل به الوقت إذ وجده تحت قبة بيت القاضى فى هذا المكان الرطب المظلم ، الذى يعطيك صورة صادقة عن مصر الإسلامية ، إتقاناً ودقة صنع . .

وحار فى أمره ، ماذا يقول للرجل ؟ أيقول له إنك تخطىء ، وتلحن فى اسم من أسماء الله ؟ . وماذا يعنى الرجل من هذا ؟ إنه رجل جاهل لايعرف شيئاً ولايعلم معنى لهذا الاسم الذي يتفوه به .. إنه يريد اللقمة يتبلغ بها ، ولا يعنيه بعد هذا أخطأ أم أصاب .. ثم هولايعرف الفرق بين الخطأوالصواب .. إنها صيغة محفوظة ، وعبارة

معروفة يتوارثها جيل من الشحاذين عن جيل ..

وأخرج الشيخ محمود مافى جيبه كله من نقود قليلة ، هى كثيرة بالنسبة لطالب أزهرى فى ذلك الحين .. كان مامعه أربعة قروش ، فتقدم إلى الرجل فى عزم ثابت ، وشجاعة وجرأة ، ومد إليه يده بالنقود ، وخاطبه فى صوت خافت فيه كثير من الأدب والحياء :

— إنك تلحن يا رجل فى اسم من أسماء الله .

وأحس الرجل الشحاذ بثقل القروش فى يده ، فكاد يطير من الفرح ، ولكنه تماسك وتجلد ، وقال فى ذلة ومسكنة وخضوع :

— كلا يا سيدى : أنا لا أعرف شيئا من أسماء الله ، فكيف ألحن فيها ؟ .

— إنك تقول : يا عاطى ، وهذا خطأ ولحن .

— وماذا تريد أن أقول ؟

— قل : يا معطى من غير سؤال يا رب .

— سمعا وطاعة يا سيدى .

وانطلق الشحاذ يقول فى صوت مرتفع ، وكأنما ينادى على سلعة من السلع . فى اهتمام كبير ، وقوة وحماسة :

— يا معطى من غير سؤال يا رب . . يا معطى من غير . . .

وابتعد الشيخ محمود خطوات ، فوجد الرجل لا يزال ينطق صحيحا كما علمه من غير لحن ولا خطأ فى هذا الاسم الجليل .

● ● ●

لو تصورت النقاء والطهر ، والإخلاص والورع ، فى أروع صورة ، وأبرع تعبير ، وتجسم هذا كله ، لما كان غير هذا الطالب الصغير ، الذى لم يسلخ من العمر أكثر من خمسة عشر عاما ، وبخاصة وقد شعر بأنه أدى واجبا دينيا جليلا ، وقضى على الشر قدر استطاعته بهذه القروش القليلة . . لقد غير المنكر بماله فمحاه ، فعسى أن يوفق

دائما لإزالة المناكير ، وقص على والده ما وقع له ، فسر والده بهذه الروح . وشجعه بما واتته العبارة ، وأعطاه المبلغ الذى دفعه ، ولـكن محموداً امتنع عن أخذه لئلا يحبط أجره ، ولأنه لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه الله ، ولم يخبره بما فعل إلا ليتبين حقيقة موقفه ، هل أحسن أم أساء ؟ !

وأقنعه والده بأن ثوابه لن يضيع ، لأنه لم يعط منتظرا أن يسترد من أحد ما أعطاه وأنفقه . . وبهذا قبل من والده المبلغ ثانية . . !!

ولم يخف الوالد فرحته الغامرة ، بروح ابنه ، وجرأته فى الحق وما كاد يخلو بنفسه فى حجرته الخاصة ، حتى أخذ يدعو الله ، أن يجعل هذا الفتى علما من أعلام الأزهر وبطلا من أبطال الإسلام ، يرفع لواء الحق فى كل مكان ، ويسير بالخير أينما حل أو ارتحل ، يمشى به فى الناس .

● ● ●

وفي اليوم التالى تعمد الشيخ محمود أن يعود فى الموعد نفسه ، من الطريق الذى سار منه بالأمس . ولما قارب المـكان الذى سمع منه صوت الشحاذ تمهل وأصاخ السمع وأرهف أذنيه ، فوجد الصوت كما هو ، وأدهشه أن يسمعه ملحونا غير صحيح . . !!

يا عاطى من غير سؤال يا رب ! !

— يا عاطى ؟ ! إذن فقد نسى الرجل الاسم الصحيح !

وأسرع إليه ، وفى يده القروش الأربعة التى أخذها من والده ، وأعطاها له ، وقال فى أدب جم ، وحياء كبير :

— أنسيت يا رجل الاسم الصحيح ؟

— نعم يا سيدى .

وعند ما شعر بالقروش قال فى ضراعة :

— ربنا يبقيك ، ويقضى لك حوائجك .

— فى مكنتك أن تقضى لى حاجتى .

— فى مكنتى أنا ؟ أنا رجل فقير .

— ولـكنك تقدر أن تقضها .

— وما هى يا سيدى ؟ .

— أن تقول دائما : يا معطى من غير سؤال يا رب ، ولا تقل يا عاطى أبداً ، لأن هذا لحن فى اسم من أسماء الله .

— سمعا وطاعة يا سيدى .

وأخذ الرجل يقول فى سرعة وقوة :

— يا معطى من غير سؤال يا رب .

ومضى محمود فى طريقه ، وهو مشفق على هذا الرجل الذى لم يستطع أن يذكر هذا الاسم صحيحا . . إن ذاكرته ضعيفة دون ريب . شفاه الله . . شفاه الله .

● ● ●

وفى اليوم الثالث فى الميعاد نفسه ، وفى الطريق نفسه ، سمع الشيخ محمود صوت الرجل ينطق باسم الله ملحونا . . ! !

يالله . لقد ثار الشيخ محمود ثورة عاتية ، وأقبل على الرجل يقول :

— ألم أقل لك يا رجل : إنك تلحن فى اسم من أسماء الله ؟ !

— نعم يا سيدى .

— إذن فلماذا تذكره ملحونا ؟

— لقد نسيت الصحيح .

— قل : يا معطى من غير سؤال يارب .

وطفق الرجل يكرر العبارة فى صحة وسلامة نطق ، دون خطأ ولا لحن فى أى جزء من أجزائها .

وابتعد محمود قليلا عن الرجل، ثم أنصت إليه ، فإذا به يكرر الاسم الشريف ملحونا !!

يالله . . أمعقول أنه قد نسيه بهذه السرعة العجيبة ؟ لا لا . . إنه رجل لئيم . . إنه اتخذ الخطأ وسيلة للـكسب ، واللحن سبيلا للرزق فلن يعطيه بعد ذلك مليما واحداً

وغير الشيخ محمود الشرقاوى هذا الطريق فى ذهابه إلى الأزهر وعودته منه ، لئلا يصم أذنيه هذا اللحن الذميم . . ! !

## يا سيدنا يرحمك الله ! !

قولوا يا أولاد فى نفس واحد :

— ومن حق المسلم على المسلم .

— ومن حق المسلم على المسلم .

— أن يشمتهُ إذا عطس .

— أن يشمته إذا عطس .

• • •

ثم يسود الصمت العميق بعد هذه الضجة العجيبة ، التى يحدثها صوت تلاميذ المكتب . . مكتب الشيخ بيومى عبد الستار ، والذى يتألف من ثلاثين تلميذا بين ذكور وإناث ، لا يدرس فيه سواه . . ! !

والشيخ بيومى كما يحب أن يعلن هو عن نفسه ، بطل من أبطال الثورة المصرية سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف ، وأنه رفع لواءها بين أهله وعشيرته ، وأبناء بلدته ( هرية رزنة ) من أعمال مديرية الشرقية بالقرب من الزقازيق .

وإذا سألته عن سر هذه البطولة . وآثارها البارزة ، أجابك بأنه كان يقرأ لهم الجرائد اليومية . . كان يقرأ لهم الأهرام صباحا ، والمقطم مساء . . وهذا فى نظره جهاد ليس وراءه جهاد ، فلقد نشر العلم والمعرفة ، وقضى على الأمية السياسية والوطنية . وأنه كان يفسر للفلاحين ما فى المقالات من غموض لا يفهمونه ، ويوضح لهم ما فى الأخبار من أسرار هى دائما وراء هذه الظواهر التى تبدو للقارئ المتسرع الذى ليست له الخبرة الكافية للتعمق والتبحر ، والقدرة الفائقة على فهم الأساليب ، والألفاظ والعبارات . . !!

• • •

والشيخ بيومى فى العقد الخامس من عمره ، قوى البدن ، مفتول العضلات ،

هو إلى البدانة أقرب منه إلى النحافة ، يميل لونه إلى السمرة .. حفظ القرآن الكريم فى بلدته ، ثم التحق بالأزهر الشريف ، ولم يطل مقامه به ، إذ عاد إلى بلدته بعد عامين قضاهما فى القاهرة ، يتلقى العلم فى أقدم دار علمية إسلامية . . ! !

ويقول العارفون الذين عاشروه : إنه لم يستفد طوال العامين شيئاً يذكر ، لأنه كان من الغباء بحيث يعنى بالقشور دائماً ، ويترك اللباب ، حيث يجب أن يهتم به الطالب الذكى ، وبخاصة فى الأزهر . . ذلك المعترك الصاخب الذى يضيع فيه الكسلان كما يضيع الأيتام فى مأدبة اللئام . . ! !

إن هذا المسجد العتيق أمره عجب . . فهو ينفى أهل الشر ، ويطرد ذوي الجهالات ، وينحى عن ورده الكسالى والأغبياء . . أما العاملون المجدون ، فحياتهم فى الأزهر كلها خير وبركة ، يستفيد منهم ، ويستفيدون منه . .

يستفيدون منه العلم والمعرفة ، وينالهم منه الفضل والجد والنشاط والتحصيل . . ويستفيد منهم إذاعة هذه المعارف ثانية على صورة أوضح ، وأسلوب أفصح ، وكلام أبلغ ، بعدما تكون قد عملت فيها شخصيتهم عملها ، فأصبحت تحمل طابعهم القوى ، ومنهاجهم الواضح ، وإرشادهم القويم . . ! !

وتصرفات الشيخ بيومى كلها تشهد له بالغباء المستحكم ، والبلادة فى الطباع ، ولولا ما به من حب للفخر والمدح ، وطيب الثناء ، لخيل إليك أنه ميت لا يتحرك . . ولا ينبض له قلب . .

• • •

وكان أهل القرية يعرفون عنه ذلك ، ويستعينون به فى تفسير الأحلام ، والدفاع عن ( أحمد عرابى باشا ) أمام منكرى فضله وجاحدى قدره ومنزلته ، فكنت تراه يتدفق كالسيل ، لا يكاد يسكت له لسان ، أو ينضب له معين . . ولكنه كلام لا تخرج منه بنتيجة ، لأنه لا مدلول له . . بيد أنك تسمع صوتا مرتفعاً خارجاً من حنجرة قوية ، تمثل الحروف تمثيلا جيداً .. ذات مخارج واضحة فهو بهذا الصوت وحده

يتكلم ويدافع . . أما الرأى . . أما الفكرة . . أما الدليل البين ، والبرهان الناصع فلا شىء من هذا كله إذا أنعمت النظر ، والتفت إلى ما يقول . . ! !

وهم إذا أرسلوا أولادهم إلى مكتبه ! فإنما خوفا من لسانه الحاد . . وألفاظه التى تنالهم فى غير رحمة ولا هوادة . . . ولو سألت كل فرد منهم عن شعوره الخاص لقال لك فى غير تردد :

— نحن نكتفى شره . .

ولهذا فقد كان يتقاضى أجراً أسبوعياً قدره ثلاثة قروش عن كل تلميذ ، وما تيسر من الخبز والقمح والذرة آخر الموسم من كل عام ، وهـذا مبلغ يفوق ما يعطى للمكاتب الأخرى سواء فى القرية نفسها ، أو فى القرى المجاورة . .

وإن أهل القرية ليعلمون أن كتاباً لرجل جليل فى الزقازيق نفسها ، وهى المدينة العظيمة ، يتقاضى عن التلميذ الواحد قرشاً واحداً كل أسبوع ، ومع هذا فهو رجل ورع ، كله التقوى والصلاح والإيمان . .

وكان أهل القرية كذلك يعرفون أن أولادهم لا ينالون من المعلومات ما يوازى هذه القيمـة التى يتقاضاها ، وكثيراً ما كان بعضهم يناقشه فى هذا الموضوع الهام ، فلا يسلم من لسانه وسفاهته . .

● ● ●

وحقاً ، لقد كان جل همه ، أن يرتفع صـوت الأولاد بين الفينة والفينة ، بتافه المعلومات ، وقليل المعرفة ، التى لا تغنى فى قليل ولا كثير ، ولا تنير هـذه العقول الصغيرة ، لأنها لا تناسبها . .

وكانت طريقـة التلقين هى كل شىء فى حياته ، يقول العبارة أو الجملة ، ثم يأمر الأولاد بتكرارها ، ولا يزالون يكررونها حتى تحفظ عن ظهر قلب ، دون عقل ولا روية ، ولا تفكير . .

وكان من حسنات الشيخ بيومى ، قوة شخصيته ، واحترام الأولاد له ، على الرغم

من تصرفاته العجيبة ، التى تدعو إلى الدهشة وعدم الاحترام فى كثير من الأحايين .

من ذلك أنه إذا أعجبته إجابة ولو تافهة من تلميـذ ، أو استحسن شيئاً كائناً ما كان ، أو سر من خبر زف إليه ، أمر الأطفال والصبية أن يبدوا الاستحسان فى صوت عال بعد أن يصفقوا تصفيقاً حاداً يستغرق بضع دقائق . . ! !

فإذا قام صبي وقال له :

ـــ إن جارى قرصنى فقرصته ، لئلا يعاود فعلته هذه مرة أخرى . .

أجابه فى فرح وغبطة :

ـــ أحسـ ت أحسنت . .

ثم قال مخاطباً التلاميذ :

ـــ قولوا يا أولاد : أحسنت أحسنت .

فيرتفع صوت التلاميذ فى جلجلة وصخب ، بعد أن يصفقوا تصفيقاً حاداً :

ـــ أحسنت أحسنت . .

ومن حسناته أنك إذا سرت بجانب مكتبه ، لا تسمع صوتاً ، ولا صخبا ، وإنما هو الذى يثير فيه الضجة ، ويحدث الصخب . . فالتلاميـذ لا يتكلمون إلا بإذن منه . . ولهذا فقـد كان فى غنى عن ( الفلقة ) التى لم يخل منها ( كتاب ) بحال من الأحوال . .

ولم يكن لسيدنا الشيخ بيومى عصا من الجنـة أو النار ، وإنما صوته هو الذى يقوم بمهمة التأديب ، إذا أخطأ واحد من تلاميذه . . وهذه الطريقة كانت ترضى إلى حد كبير أولياء الأمور ، الذين كانوا يسمعون بين الفينة والفينة ، إصابة لبعض الأولاد فى الكتاتيب الأخرى بأضرار جسمية نتيجة الضرب بالفلقة أو العصا ، أو الصفع على الوجه ، أو اللكز بعنف فى مواضع مختلفة من الجسم ، أو العض إذا دعا الأمر ، ولزم الحال ، مما ينتج أسوأ النتائج ، ويحدث فى نفس الطفل عقدة نفسية لا يزول أثرها من نفسه مع تطاول الأيام . .

ومن حسناته أيضاً ، أنه كان يفهم التلاميذ عمليا بعض الأشياء التى يفهمها هو ، ويظل يضغط على هذه النقط التى قد تكون واضحة ، حتى يألفها التلاميذ ، وتصبح عادة لهم ، يفعلونها دون وعى ولا تفكير . .

وإذا تحدثنا عن حسنات الشيخ بيومى ، فإنما هى حسنات بالنسبة لسيئاته ؛ لا بالنسبة للاحسان فى حد ذاته . .

ومن الإنصاف للرجل أن نقول : إنه كان يطلع التلاميذ أولاً بأول على مجرى السياسة ، حسب ما يفهمه هو منها ، ويكفى أن التلاميذ كانوا يعلمون اسم سلطان مصر فى ذلك الوقت ، وأسماء الزعماء والقادة والرؤساء . . ! !

● ● ●

ولعل من طريف ما حدث أنه كان يفهم التلاميذ هذه العبارة : « من حق المسلم على المسلم ، أن يشمته إذا عطس . . »

فيقول فى تمثيل عجيب :

— اسمعوا يا أولاد . . أنا سأعطس الآن . .

ثم يعطس بسرعة بلا تكلف أو تعمل . .

— هل رأيتم كيف عطست ؟ .

— نعم رأينا كيف عطست . .

— قولوا معى فى نفس واحد :

— يا سيدنا يرحمك الله . .

فيقول الأولاد بعد أن تدوى أكفهم بالتصفيق الحاد :

يا سيدنا يرحمك الله . .

— وهكذا يا أولاد ، إذا عطس أى إنسان من أقاربكم أو أصحابكم لا بد أن تقولوا له ذلك . . وهذا هو تشميت العاطس .

— سمعاً وطاعة يا سيدنا . . وفهمنا معنى التشميت . .

وعلى هذا المنوال كان يسير بتلامذته . . وما كان التلاميذ ينسون أبدا تشميت العاطس ، لأنهم يشمتون أستاذهم الذى يعطس فى الساعة الواحدة بضع مرات . .

وهو إذا عطس أثناء حديثه ، أو شرحه لبعض الموضوعات ، وكان التلاميذ يرددون عباراته كما عودهم ، قطعوا حديثهم على الفور ، وصفقوا وقالوا فى صوت عال :

— ياسيدنا يرحمك الله . . ! !

• • •

ومن عادة سيدنا أن يستخدم تلاميذه فى قضاء مصالحه ، فهو إذا اشترى شيئاً أرسل واحداً منهم يذهب بما اشتراه إلى بيته قريبا من المكتب . . وقد يستدعى الأمر أن يتغيب من فى البيت فيقوم التلاميذ بما يلزم من الكنس والرش ، وإحضار الماء من بئر قريبة فى نهاية البلدة . .

وكان إذا حان موعد الصلاة خرج معهم إلى هذه البئر ، يأخذون منها بواسطة الدلو ، حاجتهم من الماء ، الذى يشربون منه ، ويتوضأ كل منهم فى يسر ورخاء . .

والشيخ بيومى لا يتوضأ من الدلو ، لأن الوضوء من الدلو لا يمكنه من الإسباغ كما يحرص على ذلك كل الحرص . . فينزل إلى البئر فى حرص شديد ، وزيادة فى الاحتياط يربط نفسه من وسطه بحبل يمسك به الأولاد ، ليتمكن من الوضوء فى يسر وسهولة ، ثم يخرج بعد ما يحدث كثيراً من الضوضاء والجلبة داخل البئر ، لكثرة المبالغة فى المضمضة والاستنشاق ، وكثرة ما يخرج من إفرازات ومخاط . . ! !

وذات مرة بينما كان الأولاد يمسكون بالحبل ، الذى كاد يقطع أصابعهم ، إذ أن البرد كان شديداً ، والريح تعصف بقوة وعنف ، والأولاد ليس على أبدانهم ما يدفع هذه الثورة العاتية ، ويرد عنهم ذلك الزمهرير القارس . . ويخيل إليك فى هذا الحين أن الشمس سراج كهربى ، لا يشع حرارة ، ولا يفيض بالحياة . . أو أنها قمر لايلقى سوى الشعاع على جسم الأرض ، ولا يبعث الدفء فى الأبدان ، أو الحرارة فى الأجسام .

وكان الهواء البارد يفتك بأفئدتهم ، ويمزق صدورهم ، ويلسع وجوههم ،

وأقفيتهم ، ولـكنهم لا يستطيعون تذمراً أو نقداً . .

وظل سيدنا يبالغ كعادته فى المضمضة والاستنشاق ، ويخرج تلك الإفرازات من أنفه وفمه بصوت مسموع ، وضجة عالية ، وكأنما هذا الزمهرير لا يؤثر فى بدنه ، ولا يأبه له . .

وبينما هو يمسح على رأسه انتابته نوبة من العطاس . . وسمعه الأولاد ، فتركوا الحبل جميعاً ، وأخذوا يصفقون بشـــدة وعنف ، ويقولون فى نفس واحد وصوت مرتفع :

— ياسيدنا يرحمك الله . . ! !

وحقا لقد رحمه الله . . فما كاد ينكب على وجهه فى الماء ، حتى شهق شهقة ، كانت آخر عهده بالحياة . . ! !

# التلميذ !!

## ١

انعقد مجلس فضيلة الشيخ عبد المعطى ، وأصغى إليه تلاميذه من طلاب الأزهر الشريف ، فى حرص بالغ ، وشغف واهتمام ، وكأن على رءوسهم الطير . .

كانت عبارات الشيخ تنطلق فى حنان وعطف ، ونورانية بالغة ، وإخلاص عجيب . . وكانت كلماته كحبات اللآلى ، نقاء وصفاء ، تستميل القلوب الصلدة ، وتجتذب الأفئدة القاسية . .

وكان الرجل عالما نحريرا ، زاهداً ورعا ، لم ينظر إلى حطام الدنيا إلا بقدر ما يتبلغ به ، ويعينه على عبادة ربه ، وأداء عمله ، كما يتطلبه منه دينه وضميره . . فى حديثه تقوى . . وفى حركاته تقوى . . وفى سكناته تقوى . . فهو إذا تكلم فعليه من نفسه رقيب ، الحق وبدونه لا ينطق ، الصدق وبغيره لا يدين . . وهو إذا تحرك فنى العبادة وأداء ما فرض عليه . . وإذا صمت ، فإنما ليترك الفرصة لفكره يسبح فى تلك العوالم القدسية ، يفكر فى ملكوت السموات والأرض ، كما أمر الله أن يفعل ذلك كل إنسان . .

وكان يشع من جبينه نور ، ومن عينيه نور ، فيحلو للناظر إليه أن يطيل النظر ، وللمتحدث معه أن يطيل الحديث ، ويتمنى كل من اقترب منه أن يزيد اقترابه منه ، وأن يظل قريبا إلى الأبد ، وكل من فارقه ألا تطول غيبته عنه ، وأن يعود سريعا إليه . . ! !

وما كان علم الرجل علماً محضاً ، جافاً فاتراً ، يقوم على بحث الحقائق والحكم فيها وتلقين المعلومات كما تذكرها الكتب ، ويسطرها المؤلفون . . بل كان علما رحبا ، فضفاضا ، مرنا ، يلقى عليه الإيمان رداء نقيا ، يزيده روعة وبهاء . . ويمزج

مسائل العلم بالتصوف الحقيق ، وهو عندما ينحو هذا النحو من أحاديث الصوفية ، ونظراتهم السديدة ، لاتكاد تشك فى أن الرجل ملاك من ملائكة السماء ، لا فرد من الناس ، خلقه الله من لحم ودم . . ! !

أجل ، إنه ليخيل إليك والحالة هذه ، أنه قطعة من النور فى صورة إنسان . . وأنه إنما خلق هاديا وارثا للأنبياء ، داعيا إلى الله فى السر والعلانية . .

وكان تلاميذه يعرفون عنه ذلك تمام المعرفة ، ويرتضونه منه ، وهو سر إقبالهم عليه واقتدائهم له بالمهج والأرواح ، وبخاصة وهو يعاملهم معاملة الأبناء ، فيحنو عليهم ، ويشفق بهم ، ويساعد المحتاج منهم ما استطاع . .

وقد بنى صلته بهم على الصراحة التى لا تقبل المداجاة ، والعلانية التى لا تعرف المداراة ، ولا الرياء . .

وليست صلته بهم صلة الدرس فحسب ، بل هم يتصلون به فى الدرس وخارجه . فى الأزهر حيث يتناول الحديث مسائل العلوم والفنون ، وفى بيته المتواضع حيث يتناول الحديث مختلف الشئون .

وكان كل تلميذ من تلامذته يعتبر هـذا البيت المتواضع ، بيته الخاص ، يتصرف فيه كما يتصرف فيما يملك ، ولا يرى فى هدا حرجا ، أو مأخذاً . .

هذه الأستاذية نخر هذا الرجل العظيم ، وهذه التقوى موضع عظمته ، وهذه الروح العالية مناط نجاحه فى بسط نواحى العلم ، وفهم دقائقه ، وسر إقبال التلاميذ عليه وحبهم له . . ! !

بيد أن الشيطان كثيرا ما ينزغ بين المتآلفين ، ويفسد ما بين المتحابين ، ليفرق الكلمة ، ويشتت الشمل . . فلم إذن يبقى على هـذا الدرس الهادئ ، والمجلس السامى ، تحفه الملائكة ، ويشيع فيه النور ، ويعمه الضياء ، ويشمله الصفاء ؟

ويل للشيطان إن ظل هذا الدرس على ما هو عليه ، وويل لجنوده إن دام له صفاؤه ، وطهارته ونقاؤه . .

وشمر إبليس عن ساعد الجد . .
وكذلك شمر أعوانه وجنوده . .

## ٢

— هذا الشيخ لا غبار عليه . .

— إذن ، فلماذا تقول عنه ما قلت ؟ !

— لأنه لا يعاملنا جميعا على السواء . .

— لا لا ، إنك مخطىء يا أخى . . إنه لا يفرق بيننا بحال من الأحوال . .

— يا لله ! هل بلغت بك السذاجة إلى هذا الحد ؟

— وكيف ذلك ؟

— ألم تر أنه يولى زميلنا محموداً ، كل عنايته ، ويدنى منه مجلسه ، وينزله من نفسه منزلة لم ينزلها أحد منا جميعا ؟ إنه يسأله أول ما يسأل ، ويناقشه فى مختلف المسائل أكثر مما يناقش ، ويعير سؤاله كائنا ما كان ، أذنا مصغية ، ويفصل الجواب عليه تفصيلا لا يدع مجالا لقائل . . بينا يهمل بعض أسئلتنا أحيانا . .

ونظر التلاميذ كل إلى الآخر ، وقد عقدت ألسنتهم الدهشة والعجب ، وقد آلمهم مايقـــول زميلهم ، الذى أخذ ينتقد مسالك أستاذه وشيخه ، ولا يرهب شيئا ، ولا يقتصد فيما يقول . .

وتطلع كل منهم حوله ، خشية أن يكون هناك من يسترق السمع ، ويصيخ لمايدور بينهم ، فينقل هذا الحديث إلى الشيخ . . ولـكن صحن الأزهر كان خاليا حينئذ ، إلا من أشخاص يروحون ويجيئون عن بعد ، يحفظون المتون ، ويستظهرون الشروح ويلتقطون أقوال الحواشى ، وتقرير المقررين . كما يلتقط الغواص فرائد اللآلى من بحر عميق . . ! !

وكان لهؤلاء صوت مسموع ، يرتفع حينا فكأنما هو هدير الأمواج ، وزمجرة

الريح . . ويخفت حينا ، كأنه دوى النحل ، وتناوح الأشجار . .

وسرى هذا الرأى الجرىء بين التلاميذ مسرى الكهرباء ، فارتعدت أبدانهم ، واصطكت أسنانهم ، وتهامسوا لإسكات هذا الزميل الجرىء ولكنه اندفع فى حديثه يدافع عن رأيه ، ويحاور هـذا ، ويداور ذاك ، إلى أن تغلب عليهم جميعا ، وحملهم على رأيه حملا ، فنهم من أخذ بوجهة نظره ، ومنهم من سلم له بما يقول لا عن عقيدة وإيمان ، ولكن لمجرد المتابعة ، وإيثار العافية ، وعدم النقاش والجدال . .

ورأوا جميعا ، أنه لابد من مصارحة الشيخ ، وهو الصريح الذى لايحب النفاق ولا الرياء . . مصارحته بما دار بينهم ، ومطالبته ببيان سبب محبته لزميلهم محمـود ، أكثر من سواه ؟ !

وصمت الجميع ، وسبحت أفكارهم فى عوالم مختلفة . ثم وافق البعض على هذا ، ولاذ البعض الآخر بالصمت عن ضعف ، أو عن خديعة ومكر ، حتى يكون له سبيل إلى الاعتذار ، إذا لزم الأمر ، وجد الجد . .

ونفر أحدهم ، وقام مغضبا ، وهـو ناقم ثائر على ذلك الطالب الذى أثار هذا الموضوع ، وهو يهدده بجمع يده ويقول له :

— أشهد أنك لرسول الشيطان . .

وارتاح البعض إلى هذه العبارة ، وزم لها البعض الآخر شفتيه ، ولم يزد . .

## ٣

واستمع الشيخ إلى شكاية تلاميذه ، وهو هادىء النفس ، مطمئن القلب ، رحب الصدر ، ولم ير فيها ما يستحق اللوم والتعنيف لهم ، بل رأى ذلك حقا لهم ، وعليه أن يتقبله منهم . . وحمد لهم هذه الجرأة ، وتلك الصراحة فى الحق ، وقبل صاحب ذلك الرأى فى جبينه ، قبلة الوفاء والبر ، والحب والصفاء . .

وزاد ذلك فى حب تلاميـذه له ، وإعجابهم به . . لقد كانوا فى شك وريبة من

معاملته لهم ، وعطفه عليهم . . وكانت عقيدة الكثير منهم أنه سيغلظ لهم القول ، ويصرفهم من مجلسه فى جفوة وعنف وكبرياء ، فليس هذا من شأنهم ، وله مطلق التصرف فى شئونه ، وتمام الحرية فى سلوكه نحو هذا أو ذاك ، مادام ذلك لا يعاب عليه ، ولا يمارى فيه ، والمرء لا يلام على اتجاه قلبه . .

وقليل منهم الذى تصور الموقف على حقيقته ، وتنبأ بما سيكون ، وعلم أن الشيخ أبعد ما يكون عن دنايا النفس ، ووساوس الشيطان ، وأنه لن يثأر لنفسه ، أو ينتقم من أحد ، مهما أغاظ له القول ، أو جار عليه فى الحكم ، أو رآه على غير حقيقته ، وشهر به بين الناس . . قليل منهم من علم أن الشيخ سيرضيه ذلك ويطربه ، ويفرحه ولا يسىء إليه ، لأنه سيرى أثره فى تلاميذه المقربين ، ويرى صراحتهم التى استمدوها من صراحته ، وشجاعتهم الأدبية التى عودهم إياها ، وأدبهم بها . .

وحمد كل منهم ربه على هذه النتيجة ، لأنهم كانوا يحسبون لغضبه ألف حساب وبخاصة وهم يعلمون منزلته عند الله ، وأن قلبه إذا تغير ، فسوف يصيبهم الأذى ، وينالهم المكروه .

ومضى الشيخ فى الدرس كعادته ، وكأن شيئا لم يحدث ، بيد أنه أمرهم جميعا بأن يذبح كل منهم ( حمامة ) على شريطة ألا يراه أحد . . ! !

## ٤

لم يلتفت واحد منهم إلى الدرس فى هذه الساعة ، فلقد سبح بهم الفكر فى مطارح النوى ومفاوز الدهش والاضطراب ، وطاف بهم الخاطر الشتيت فى مختلف الصحارى الجدباء ! تهجم عليهم فيها الخيالات السود من كل مكان . . ! !

ما هذا ؟ يذبح حمامة ! !

وما دخل هذا فى موضوع النقد ، الذي وجه إلى الشيخ ؟! أهـذا عقاب لهم ؟ وأن هذه الحمائم المذبوحة ، أو بالحرى المزمع ذبحها ستنتقم منهم للشيخ ؟ وأنها رسله فى هذا الانتقام ؟ وستكون وبالا عليهم ، وشراً ماحقا لا يبقى منهم شخصاً ينعم بالحياة فى هذا الوجود ؟!

من يدرى ؟ !

. إن البدن ليقشعر ، وإن الفؤاد ليضطرب ، حينما لا يدرك الإنسان معنى للشىء يؤمر به ولا يدرك له مغزى ، ولا يفهم له غاية ، وبخاصة حينما يسبقه جرم أو يتقدمه ما يفهم أن هذا الشىء غير المفهوم جزاء له !

ولكن الفكر الطليق أخذ يطيف كذلك فى آفاق الأمل ، تاركا مفاوز اليأس ، وصحراء القنوط . . إذن فلن تكون هذه الذبيحة نقمة ، وإنما ستكون مجرد كرامة للشيخ يعرفون بها قدره . . فلن تذبح الحمائم مهما اشتدت على رقابها وطأة السكين . كما لم تؤثر السكين فى عنق إسماعيل ، حينما أراد والده إبراهيم عليهما السلام أن يذبحه . ولكن أين موضع الشاهد هنا ؟

وموضع الشاهد عند الأزهرى له قيمته ومنزلته — أواه ! إنه بلاشك سيكون عجزهم عن الذبح والقطع . . قطع الرقبة الهينة اللينة ، وإنهم لا يستطيعون شيئا ، فليس لهم طاقة على فهم ما يعمل ، ولا قدرة على إدراك ما يفعل . وأنهم يجب أن يقنعوا بصحبته ، وأن يكون شأنهم معه السمع والطاعة فحسب ، لا النقد والتدخل فيما ليس من حقهم التدخل فيه . . وراق هذا الخيال لصاحبه . .

ولكن خيالا آخر اندفع فى طلاقة . . ما أشبه هذه الحادثة بحادثة قوم موسى عليه السلام . . إنها وذبح البقرة سواء ، لا جرم أننا حينما نذبح هـذه الحمائم ، أو بالحرى حينما يذبح كل منا حمامته ، ستحدثه وهى مذبوحة ، أن الشيخ لا ينبغى الاعتراض عليه . ولكن ما فائدة هذا ؟ إذن فعلها أن تجيب على السؤال بدل أن يجيب هو . وما السر فى ذلك ؟ إن هذا لا جرم يكون أدعى إلى التصديق ، وأدنى إلى الإذعان وعدم الانتقاد ، أو الشك مرة أخرى . . وأنت حينما تسمع الإجابة من الشيخ ، فلا غرابة فى هذا ، لأنه إنسان يعقل ويفكر وينطق . . أما إذا سمعته من طائر ، وليس مجرد طائر ، بل من طائر ذبيح لا حركة به ولا حياة ، وأنت الذى ذبحته بنفسك ، وأفقدته هذه الحياة . ولم يرك أحد وأنت تفعل ذلك به . . كل

هذا لا جرم يكون أبلغ أثرا فى النفس ، وامتلاكا للعاطفة ، وأدل على أن الشيخ رجل علم وولاية وفضل . .

• وارتضى صاحب هذا الخيال خياله ، واطمأن إليه ، وبخاصة وقد انعقدت الصلة بين ذبح الحمامة وذبح البقرة ، فكانت مناسبة جميلة ، وصلة وثيقة ، يطرب لها الطالب الأزهرى ، ويقيم لها ألف حساب وحساب . . وهل تقوم الدراسة فى ذلك العهد منذ أربعة قرون تقريبا إلا على هذا الأساس ، من التمحكات اللفظية ، والتمحلات ، والتماس العلل وعقد الأواصر ، بين الأشباه والنظائر ، والتأويلات البعيدة الغريبة . وتحميل الألفاظ ما لاتكاد تحمل ؟ ! !

وهناك خيال آبق لئيم ، آلم صاحبه وأضناه ، وساربه فى كل فج ، وانتهج به كل نهج ، ومضى به فى كل طريق ، يقوم تارة ، ويتعثر أخرى ، ولا يكاد يصل إلى حل مرضى ، أو سبب معقول ، أو بالحرى كان يصل إلى حلول كثيرة ، ولكنها آثمة فاجرة ، إذ أن أساسها إساءة الظن بالشيخ ، وإدانته إدانة بالغة ، وهذا سر الضنى واللوعة ، والحيرة والاضطراب ، وإدامة الفكر ، وإنعام النظر . . وبخاصة وأن الأزهرى حين يفكر لا يدع بابا يلتمس إلا سلكه ، ولا منفذاً ينفذ منه إلا ولجه ، ولا يرتضى بحال من الأحوال ، إلا ماتطمئن إليه نفسه ، ويرتاح لهخاطره ، ويوافق عليه فكره . .

وأدار الخيال الملح هذه الروس الصغيرة ، فخدرت وحارت فى أمرها ، وهالها ما أقدمت عليه راضية ، وفعلته طائعة مختارة . . وكانت حرائق فكرية تشتعل تحت هذه العمائم البيض ، فى تلك الحلقة العلمية النقية من حلقات الأزهر ، والتى كانت بعيدة كل البعد عن هذه الوساوس ، وتلك الأراجيف والأباطيل . لولا الإصاخة لرأى إبلبس ، والاستماع لإرجافه الأليم . .

وكان مضى الشيخ فى الدرس كعادته ، موضع عجب الجميع ، حتى هو نفسه ، أحس بشىء من الغرابة والدهش ، ولكنه استعاذ بالله فى نفسه من الشيطان الرجيم

خشية أن يكون هذا نوعاً من الغرور ، وهو كما يعلم أساس النكسة الخلقية ، وأصل الداء ، وسبب البلاء . . ! !

٥

كان الشيخ عبد المعطى يتطلع يمنة ويسرة ، فيرى ما يطيف بهذه الرءوس ، ويدنس هذه الأفكار ، ويفتك بتلك القلوب . . وكان يفهم تماماً كل ما تفيض هذه الخواطر الملتاثة من خيال لا يرضى الحق ، ولا يمت إلى الواقع بسبب . . وهو يعلم تمام العلم أن الشيطان هو الذى أشعل هذه النار ، التى لا تزال فى مبدئها . لم يتطاير شررها ، ولم يندلع لهبها بعد . . وأنه هو الذى بذر الشر فى هذه القلوب النقية والأفئدة الطاهرة الذكية ، ليفسد عليه خطته ، ويقطع عليه الطريق إلى الله ، الذى يهدف إليه فى كل درس مع هؤلاء التلاميذ . .

وآلمه أن يرى تلاميذه على غير عهده بهم ، وهو موقن كل اليقين ، مؤمن كل الإيمان ، أنهم فى هذا الدرس على غير عادتهم ، فلقد كانوا بالأمس القريب بعقولهم وأجسامهم وأرواحهم ، يستمعون إليه ، ويفيدون منه ، علماً وتصوفا ، ومتفرقات تفيدهم فى حياتهم ، أما الآن فى هذا الدرس فحسب ، يجلسون بأجسامهم . . ! !

أما عقولهم ، وأما أرواحهم ، وأما ثقتهم به ، فذهب هذا كله أدراج الرياح . . ذهب به الشيطان إلى حيث لا يعلم مستقره ، ولا يدرى مكانه . . أو بالحرى إلى الأفكار والأوهام ، والخيالات الكاذبة ، التى تحصد يقينهم به حصدا ، وتدعهم فريسة الشك والحيرة ، والارتياب . .

هو حزين أشد الحزن ، فرح كل الفرح ! !

أما حزنه ، فلأن الشيطان لعب بهذه العقول الصغيرة ، واستمرأ العبث واللهو بها ، وكان يرجو ألا يصل إلى هذه العقول ، أو ينفذ من أية ثغره من الثغرات إلى هذه الأفئدة . .

كان يتمنى أن تظل هذه العقول على نقائها وصفائها . وهذه الأفئدة على طهارتها

وبراءتها ، وهذه القلوب على سلامتها وحبها ، وتلك النفوس على سذاجتها ورضائها .

أما الآن فلقد عبث الشيطان بهذه العقول الآدمية البريئة ، وارتفعت معاوله لتهدم كل ما بناه فى دروسه ، وشاده فى معاملاته خارج هــذه الدروس ، لينشىء للأمة الإسلامية العربية جيلا جديداً يؤدى حق الله والوطن ، كما يجب أن يكون . .

لقد حاول طوال تلمذتهم عليه ، وتدريسه لهم ، أن يقربهم إلى الله ، أكثر مما يقربهم من نصوص الـكتب ، ومواد الدراسة . .

لقد كان ينهج بهم النهج الصوفى الأصيل ، ليجعل من كل واحد منهم جيشاً بقوة إيمانه وثقته بالله ، واعتماده عليه ، وليكون فى مقتبل حياته إماماً عادلا يعرف كيف يصرف الأمور بحنكة وخبرة ، ورجلا قواما فى بيته ، كما يجب أن تفهم هذه الـكلمة ، فيقدم إلى المجتمع ذرية تخدمه ، وتعرف له واجبه وقداسته . .

كان يأمل أن تظل رعايتــه لهؤلاء ، حتى يفهموا الدين روحا ومعنى ، لا نصاً ورسما ، ويطبقوه عملا وقدوة ، لا حفظاً فى الصدور ، وشقشقة فى الألسنة ، ثم لا تتجاوز هذه التوافه محيط الصدر حيث تحفظ ، والحلق حيث تشقشق . . ! !

لقد قطع فى هذه السبيل مرحلة واسعة . وشقة بعيــدة ، وهو وإن وجد العسر والإعنات ، والضيق والجهد ، راض كل الرضا ، مبتهج تمام الابتهاج ، سعيد إلى حد كبير ، ما دام ذلك فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، وما دام يعتقد من صميم قلبه أن هذه رسالته ، وتلك منزلته . .

لهذا كله ، هو حزين ، يقاسى الضنى والالتياع . .

وأما سروره وفرحه ، فلأنه علم أن الشيطان ، وإن كاد له ، فسيقضى بعون الله على كيده وشره ، ويمحو بهتاته وإثمه . .

إن الشيطان لم يعصف بهذه الأرواح عصفا ، ولم يقض عليها قضاء مبرما ، لأنه لو عصف بها ، لـكبت كل منهم هذه الرغبة فى نفسه ، ولم يبح بها له ، وحاول جهد الطاقة أن يبقى على حاله ، من إظهار الطاعة ، والمودة والألفة . .

وهذا أخشى ما يخشاه ، وما يدعو على الدوام ألا يقع بحال من الأحوال ، فهو يريد أن يرى القلوب دائماً صفحة نقية بيضاء . .

عليه إذن مداواة المرض ، وعلاج الداء ، ورأب هذا الصدع الأليم ، وردم هذه الحفرة التى احتفرها الشيطان بينه وبين تلاميذه . . فليكن هذا الدرس ضحية ، على أن يعيده فيما بعد . .

يعيده فيما بعد ؟ !

أحقاً سينتهى الأمر بينه وبين تلاميذه على ما يحب ويرجو ، ويزول ما فى نفوسهم ، وتنجلى صفحة قلوبهم ، وتعود المياه إلى مجاريها ؟ !

من يدرى ؟ !

ولم يحاول أن يسأل أحداً منهم ، أو يناقشه فى مسئلة من المسائل ، أو يلفت نظره إلى ما يقول ، بل تركهم على حريتهم ، يسبح كل منهم مع خياله إلى أبعد حد ممكن حتى يلمس الحقائق جلية واضحة ، وليشعر بعد ذلك بخطأ ما تصور ، وكذب ما زينه له خياله ، أو بالحرى ما ألقاه إليه الشيطان . . ! !

## ٦

وارفض الدرس كما انعقد ، وانتهى كما ابتدأ ، لا جديد هناك ، على الرغم من عناية الشيخ بالشرح والتوضيح ، واهتمامه بالإبانة والتمثيل . .

لقد كانت جسومهم فحسب تعقد الحلقة ، أما الفكر والخيال ، والأخذ والرد ، والسؤال والجواب ، والبحث والتمحيص ، فلا وجود لهذا كله . .

جسم يجلس ضمن الحلقة فى شخوص عجيب ، وانتباه وحرص . وعينان مفتوحتان تحملقان فى الشيخ الذى لا ينقطع له حديث . . ولكن الشيخ مع هذا لا يرى كما كان من قبل . . وإنما هو شبح لا يتغير ولا يتبدل ، يتحرك يمنة ويسرة ، ويشير بيديه ، وينفتح فمه ثم يغلق ، ويعلو صوته ثم ينخفض ، ولكن ماذا يقول ؟

لا شىء . . ! !

وهذه أذن مفتوحة في انتباه ، ولـكنها لا تسمع إلا نغمة مكرورة ، لا تفهم لها معنى ، ولا تفقه لها مرمى . .

وهذه يد تنقبض على الملزمة الصفراء ، وأخرى على القلم الرصاص ، ولـكنها لم تكتب على الهامش كلمة واحدة . بينما كانت قبل ذلك لا تكاد تمل الـكتابة حتى لا تدع مكاناً فى الهامش أو الصلب . . ! !

على هذا الوضع كان يجلس التلاميذ ، الذين زلزل الشيطان ثقتهم بأستاذهم الجليل ، بيد أن تلميذاً واحداً ، لم يكن على هذا الوضع ، وإنما هو يختلف عنهم تمام الاختلاف . . ذلك هو ( محمود ) . .

كان يجلس كما يجلسون فى انتباه وإقبال على الدرس فى عناية وحرص ، ولـكنه يجلس بقلبه وفـكره وروحه ، بقلبه الصافى ، وفـكره الحصيف ، وروحه الطاهر . لم يذهب مع الخيال إلى هذا المدى السحيق ، ولم تضعف ثقته أبداً بأستاذه الجليل ، ولم يتطرق إليه شك فى سلوكه وخلقه . . ! !

كان الدرس كل همه ، يصيخ إلى كل كلمة ، ويلتقط كل حرف ، وكأنه يحادثه دون سواه ، ويعنيه من بين هؤلاء جميعاً ، وهذا هو الفرق بينه وبينهم . . !

لم يفـكر محمود فى الحمامة وذبحها ، ولم يكلف نفسه عناء ذلك ، لأنه الآن فى الدرس وكفى ، وما دام فى الدرس فعليه أن يعطيه كل انتباهه وتفكيره ، وأن يلم أشـتات نفسه ، ويجمع أطراف خياله ، ليجابه هـذه المعـلومات التى تفيض بها نفس الشيخ فيضاناً ، ويتدفق بها تدفقاً ، وكأنها السيل الغامر ، لايتوقف ولا تتكاءده عقبة . .

لقد كان مِثال الطالب المخلص ، الذى له على قلبه سلطان عظيم ، يحول بينه وبين نزوات الشر ، ومطامع الفساد ، وله على فـكره سلطان يشبه هذا السلطان ، يحول بينه وبين الخوالج الشاردة ، والخواطر الآثمة . .

لقد استمع إلى حديث الحمامة كأى حديث آخر ، فلم يعلق عليه شيئا ، وإنما تركه لحينه ووقته .

ولم تخف حالته هذه على الشيخ ، فهو يعلم أنه وحده الذى استمع إلى الدرس ،

وأنه وحده الذى وعى عنه ، وليس هذا فحسب ، بل هو دائماً الذى يعى عنه ويستمع إليه كما يجب أن يستمع تلميذ إلى أستاذ .. !

وذكر الشيخ تلاميذه بأمره لهم فى ابتداء الدرس ، وأن الغد الموعد المنتظر ، واليوم المرتقب ، فأبدى الجميع اهتمامهم بالأمر ، ووعدوا بتنفيذه كما يريد ..

وقبل كل منهم يد الشيخ كما هى العادة ، فى أدب وتوقير واحترام ، وكأنما لم يحدث شىء ، من شأنه أن يعكر الصفو ، ويغير القلوب ..

وانصرفوا جميعاً ، وقد خيل إليهم أن الزمن امتد بهم ، وامتد إلى أبعد مايتصوره وهم وأنه لو امتد أكثر من هذا لأضر بعقولهم وجسومهم ..

وما كادوا يغادرون باب الأزهر ، حتى تحسس كل منهم جيبه لينظر ما معه من النقود ، وهل فى وسعه أن يشترى الحمامة المطلوبة ، أم سيضطر إلى الاقتراض من أحد الزملاء ..

ومهما يكن من شىء ، فقد امتدت الأيدى إلى الجيوب ! ولم تمض ساعة واحدة حتى كان فى يد كل تلميذ حمامة ، لينفذ فيها رغبة الشيخ .. !!

## ٧

وجاء الغد ، وأقبل كل طالب يحمل فى يده حمامة ذبيحة .. ! !

وجاء محمود ، يحمل فى يده حمامة ، لاتزال تنبض بالحياة .. !

وجلس الشيخ على كرسيه المرتفع ، ونظر إلى تلاميذه نظرة عابرة ، ولكنها فاحصة إلى حد ما ، وحياهم كما اعتاد ذلك دائماً ..

والتف حوله الطلاب بعد ماقبل كل منهم يده فى عناية وتبرك ، سائلا أن يدعو الله له ، ليصلح حاله ، ويعلى مكانته ، ويرفع قدره ، ويصله بالعلم ولا يحرمه منه ، وأن يذكره فى خلواته وجلواته ..

لم يبدأ الشيخ درسه ، وإنه لو فعل لما وجد قلباً يتجه إليه ، وإنه يريد أن يسرع

بمعالجة هذه القلوب ، قبل أن يستبد بها الشيطان ، ويعصف بها الشك المقيت ..

وطفق يسأل كل واحد منهم على التوالى هذا السؤال :

— كيف ذبحت حمامتك ! ؟

وما كاد هذا السؤال يلقى لأول مرة ، حتى ساد الجولون من الغرابة والدهشة ، فنظر بعضهم إلى بعض ، وتساءلت منهم العيون قائلة :

— لم هذا السؤال ؟ ! .

إن واحداً منهم لم يجرؤ أن يسأل هـذا السؤال ، لأن للشيخ الحرية أن يفعل مايشاء ، ما دام فى حدود الموضوع .

كيف ذبحت حمامتك ؟ !

ذبحها بكل سهولة ويسر . . أليس المقصود الذبح بعيداً عن أعين الرقباء ؟ . . لقد ذبحها كل منهم ، ولم يره أحد ، فماذا يريد الشيخ بعد هذا ؟ ! .

ولم يتحقق خيال واحد من تلك الخيالات التى كانت تجول فى أدمغتهم وتخطر فى بالهم ، فلم تنطق الحمامة ! ولم تتأب على الذبح ! أو تمتنع عنه ، ولم تتكلم عن فضائل الشيخ . . ! !

كل هذا لم يقع منه شىء ، ولم يقع شبيهه أو مماثله ، فالحمامة هى كما جرت العادة ، طائر يجرى عليه قانون الطير ، من ذبح وصمت . . لا كلام ولا سلام . .

فلماذا إذن يوجه لهم الشيخ هذا السؤال ؟ .

وأجابوا على السؤال فى بساطة . أما الأول فقال :

— مضيت إلى الخلاء ، وأبعدت كثيراً ، وعندما تأكدت أن أحداً لم يرنى ذبحتها كما أمرت . . ! !

وقال الثانى فى عظمة :

— أما أنا فقد جال بفكرى الذهاب إلى الخلاء . ولـكنى اعترضت على هذا بأنه يجوز أن يرانى أحد من بعيد ، فلا يتحقق الشرط الذى قلت عنه ، ولهذا فقد دخلت

حجرتى ، وأغلقت جميع نوافذها ، حتى إذا ضمنت تحقق شرطك ، ذبحتها . . ! !

وقال الثالث فى كبرياء :

— لم يفتنى ما فعله الزميلان ، ولكنى قلت فى نفسى : إن النوافذ مهما أغلقت فليس معنى هذا البعد عن العيون ، إذ من الجائز أن يكون هناك من ينظر من خصاصة الباب أو الشباك ! !

وهنا تحرك الثانى وكاد يرد هذا النقد لو لا أن الأستاذ أمره بالصمت . فصمت متأففا . . وأردف الثالث يقول :

— ولهذا ، فقد ارتقيت الدرج ، وصعدت إلى سطح البيت ليلا ، حيث نام الناس ، وذبحت حمامتى . . وسعل فى عظمة ثم صمت . .

وقال الرابع وقد بدا فى وجهه الحزم :

— لقد تفردت بالحيطة والحذر ، إلى حد أعتقد أن واحداً منكم لم يصل إليه أبداً ، ولم يحاوله كذلك . .

وهنا أشرأبت الأعناق وتطاولت ، وأصاخت الآذان لتسمع هذه القصة الدقيقة ، ولتعرف هذه الحيطة العجيبة . . قال :

— لقد فكرت وقدرت ، وأمعنت ودبرت ، فرأيت أن خير الوسائل النزول إلى بئر عميقة مظلمة ، لا يصل إليها أحد ، ولا ينفذ إليها بصر . . واهتديت إلى هذه البئر ، وذبحت فيها حمامتى ، وأنا آمن هادىء النفس . . ! !

وهكذا دواليك ، توالت الإجابات ، وتتابعت على هذا النمط لا تختلف إلا فى التافه الذى لا يغير من مغزاها شيئاً . .

وكان الشيخ يقابل هذه الإجابات كلها بزم الشفتين ، ويبدو عليه الأسى وتتملكه اللوعة . . لقد كانت فاترة ساذجه ، بعدت عن الغاية مسافة طويلة ، بيد أنه لم يقل لأحد شيئاً ، احتراما لشعور تلاميذه ، لئلا يجرح أحاسيسهم ، ويؤذيهم بأى لون من ألوان الإيذاء ، أو نوع من أنواع الإساءة . .

كان يستمع إلى هذه الإجابات ، ويعجب لهم كيف لم يستفيدوا منه روحانيا طوال هذه المدة ، فيمتد بهم النظر إلى ما وراء المادة ويسمو بهم الفكر عن ذلك المحيط الضيق ، الذى يهيم فيه الناس ، ولا يكادون يجدون مفرا منه ؟ ! !

وحوقل الشيخ فى صوت مسموع ، وتنهـد فى رفق ، ثم استغفر الله مرات ، وبانت فى عينيه علائم الاضطراب . .

## ٨

وجاء دور محمود ، فوجه إليه الشيخ السؤال على نمط آخر ؛ فلم يقل له : كيف ذبحت حمامتك ؟ وإنما قال له :

— لم لم تذبح حمامتك ؟ !

وانتظر الجميع الإجابة على سؤال الشيخ ، وكلهم آذان مرهفة ، وعيون محملقة ، وقلوب واعية . . لقد آن الأوان للأخذ بنصيبهم من محبة الشيخ ، كما ينال ذلك محمود . وكانوا يودون أن يذبح حمامته كما فعل كل منهم ذلك وآلمهم أن يمتاز عنهم بشىء ، مع أنهم لا يفهمون السبب إلى الآن ، ولـكنها ميزة على كل حال . .

لقد خالفهم جميعا فيما فعلوا ، فمن ياترى المخطىء ، ومن المصيب ؟ لقد أمر الشيخ أن تذبح الحمائم ، حيث لا يراهم أحد ، وهاهم أولاء قد نفذوا أمر الشيخ بحذافيره ، لم يخالف واحد منهم هذا الأمر فى شىء ، ولا بد أن يكونوا هم على صواب ، ويكون هذا الزميل مخالفا لأمر الشيخ لأنه لم ينفذ أمر الذبح ، فما السر فى هذا ياترى ؟ . .

أليس هذا مخالفة لأمر الشيخ ؟ إنه مخالفة دون ريبة ، فهل سيغضب الشيخ عليه ، ويعنفه ويلومه ، ولا يوليه بعد ذلك عطفه ولا حبه ؟ ! وهل سيشهدون مصرع هذا الزميل الروحى الآن ، عسى أن يحقق هذا الأمل ، ويقبل ذلك الرجاء . .

وخيل إليهم أن هذا الدرس سيكون خير الدروس جميعا ، وسيحمل أطيب ذكرى يؤثرونها ، فسيصبح محمود مثلهم على الأقل ، لا يمتاز عنهم بشىء ، ولا يكون له فضل على أى فرد منهم . .

ولكن مظهر الشيخ ألقى فى قلوبهم الرعب . وكاد يخيب آمالهم جميعاً ، فهو ينبىء عن سخطه على فعلهم ، ولم يرض عن طريقة من طرقهم المختلفة المتعددة ، التى افتنوا فيها إلى حد كبير . فما الداعى لهذا ؟ وما السر فيه ؟ . .

الآن فهموا كل شىء لقد اتخذ الشيخ مظهر القاضى العادل ، فها هو ذا يستمع إلى محمود ، ووجهه على ما هو عليه من الجد والصرامة ، والعزم ، فهو لا يريد أن يميل بمظهره إلى أحد الخصمين فيشجعه ، ويفت فى عضد الآخر ، فحمدوا للشيخ ذلك وأضافوها مكرمة إلى مكرماته الكثيرة ، التى لا يمكن أن يكابر فيها أحد منهم ، إذا استمع لصوت ضميره . .

وأجاب التلميذ محمود ، فى تؤدة وأناة ، وهو مضطرب النفس ، واجف القلب ، يكاد يعقد الخوف لسانه ، وكأنما أتى أمر إداً :

— والله يا سيدى . ليس الذنب ذنبى فى عصيان أمرك ، ومخالفة رغبتك ، فلقد بذلت أقصى ما يمكن بذله ، وما يدخل فى استطاعة إنسان عمله . . ومع هذا كله لم أوفق ، وعبثا حاولت تنفيذ شرطك ، وذبح حمامتى . . ! !

وابتسم الشيخ مكرها ، ابتسامة الفرح والسرور ، فالعواطف لها سلطانها الغلاب وجبروتها القاهر مهما حاول الإنسان كبت هذا والتغلب عليه ، والتزام الجد ، الذى يكون فى بعض الأحايين ضربا من العبث ، ولونا من ألوان المحال .

وتهامس التلاميذ ، وتغامزوا ، وعقدت بين شفاههم كلة واحدة ، ترجمتها الصادقة :

— ولم ؟ !

ولكنها ممطوطة طويلة إلى أبعد حد ممكن يصل إليـه حرف من الحروف . . عميقة إلى أقصى مدى من العمق ، ولكنهم لم يجرءوا أن ينطقوا بها حروفاً حية ، لأنها ستكشف عما يكنه كل منهم لهذا الزميل ، الذى ينظرون إليه نظرة يجب ألا ينظر بها زميل إلى زميله . .

ثم جال بهم الخيال جاداً حينه ، ساخراً أحيانا ، طليقاً إلى أبعد حد .

ربما لم يجد سكينا يسعفه ويقضى له حاجته . . أو ربما لم يجد من يمسك له حمامته . .

أو ربما لم يجد الذبح ، يخشى أن يخطىء فيه . . أو ربما أشفق أن يذبح الحمامة ، وبلغت به الرأفة أقصى حدودها . . أو ربما يخشى أن يذبحها فيخرج من جوفها ملك فيحزن عليه ، أو شيطان فيفترسه ويقضى عليه . . أو يخيفه ويفزعه فى الليل ، ويخيف غيره من السابلة الآمنين فى الليل والنهار . . ؟ !

وقطع صوت الشيخ حبل هذه الخيالات الجادة المرحة :

— وكيف كان ذلك ؟ !

قال التلميذ ، وقد بلع ريقه ، وأدركه شىء من الاطمئنان ، لأنه وجد الفرصة ليشرح موقفه على حقيقته :

— بعد ما انصرفت من درس الأمس ، اشتريت هذه الحمامة ، ثم أعددت لها السكين مرهفة حادة ، واخترت الليل للذبح ، لأنه أبعد الأوقات عن فضول الناس وأعين الرقباء ، ولأنك اشترطت أن أذبحها بحيث لا يرانى أحد . .

وجن الليل ، ولفنى الظلام بردائه الرهيب . . وخفتت الأصوات ، وانقطع سير السابلة من الطريق ، فقمت إلى حجرتى ، وهى خالية من كل إنسان ، وأغلقت بابها ، ونوافذها فى حرص بالغ ، وعناية وحذر ، وكلما عثرت بثقب سددته ، لئلا يتمكن أحد من الرؤية إذا حاولها . . ثم أمسكت الحمامة بيد ، والسكين باليد الأخرى . .

ولكنى وقفت مرتعد الفرائص ، مضطرب الأحاسيس ، بادى الإعياء والوهن . لم يكن ذلك من خوف ، أو رهبة . . فأنا لا أعبأ بجنى أو شيطان ، ولا أخاف من إنسان ، كائناً ما كان . . ولم يكن ذلك خوفا من شخص يهددنى أو يحاول قتلى ، فما أسأت إلى شخص طوال حياتى ، وما آذيت إنسانا أو حيوانا قط . . ولم يكن ذلك لضعف أو خور فما أنا على الرغم من هزالى بالضعيف الخائر يعلم الله . .

لم يكن إرتعاد فرائصى لشىء من ذلك ، ولا أمثاله ، وإنما لشىء واحد فحسب ، وهو أنى على الرغم من اتخاذى جميع الاحتياطات الممكنة ، رأيت عيناً ترانى . .

يا لله ، إنها عين لا تغفل ولن تغفل عن أحد أبداً ، ولن ينجو منها كائن من

الـكائنات . . إنها عين مع الظاهر البادئ ، ومع الباطن المستتر ، ترى هـذا وذاك على السواء ، وعندها الجلى والخفى سـيان . . عين لا تحجبها هذه الحقائق التى نعرفها ، والحجب التى نصنعها بأيدينا . . والحواجز التى نقيمها ، ونبالغ فى قوتهـا وكثافتها إلى حد نعتقد معه أنها تفى بالغرض المطلوب . .

واتجهت الأنظار ، وتطاولت الأعناق عندما صمت محمود قليلا ، وكأنه يستجمع قواه الواهنة ، ليعلن هذا السر الخطير . . ومضت فترة قصيرة ، ثم أردف محمود يقول :

— إنها عين الله . . ترانى أينما ذهبت . . فى كل مكان . . ! !

## ٩

وساد الصمت عميقاً حاداً . .

وخشعت الأبصار ذاهلة حائرة ، وأطرقت الرءوس مضطربة مفكرة ، وقد التاث الطريق أمامها ، فلقد أخذت فجأة على غرة من حيث لم تتخذ للأمر أهبته ، ولم تعد له العدة اللازمة . .

ما هذا ؟ . . أحقاً ما يسمعون ؟ !

إنها عين الله ؟ !

وظلت هذه العبارة عالقـة بآذانهم ترن فيها رنيناً متتابعاً فى إلحاح وإلحاف . . وكأن كل حرف فيها يضىء فى روحانية عجيبـة ، ويلتمع فى نورانية سامية . . يرونها بأعينهم رأى العين ، وتأخذ عليهم كل سبيل ، فلا يرون غيرها ، ولا يسمعون سواها . .

إنها عين الله ! !

ما الذى طمس أعينهم ، وختم على أفئدتهم ، وطبع على قلوبهم ، فغفلوا عن هذا ، ولم يدركوا أن عين الله ، لا تفارق أى كائن من الـكائنات مهما اختفى عن الأعين ، وبعد عن الناس . .

يا لله ، أهكذا تبلغ بهم الغفلة عن الله ، والبعد عن الحق ، فتزل بهم القدم ، يخطىء بهم التقدير ، ويفارقهم التوفيق ؟ !

أين إيمانهم بالله إذن ؟ وأين علمهم ومعارفهم ؟ وأين خبرتهم بالأمور ، دراستهم الطويلة فى الكتب . . كتب العقائد والتفسير والحديث والفقه ! ؟ أين علمهم بهذا كله ، ومعرفتهم به ؟ ؟

والآن فهموا كل شىء . . فهموا حقيقة الشيخ ، ومنزلته عند الله ، وعلموا منزلة زميلهم كذلك عند الله ، مما دعا الشيخ أن يحبه ، وينزله من نفسه منزلة أعظم وأجل من منزلتهم . .

الآن فهموا أنهم أخطئوا فى تقديرهم لزميلهم ، وأنه يجب أن يرفع إلى مرتبة الأستاذية بالنسبة لهم ، فما بالك بشخص يرى الله معه أينما حل أو ارتحل ، فى السر والعلانية ؟ !

## ١٠

وكان الشيخ عبد المعطى لا يزال صامتاً ، ليترك الفرصة لتلاميذه لإساغة ما سمعوه وتفهمه على حقيقته ، وليلمسوا بأيديهم السر الذى دعاه لمحبة محمود ، وإيثاره عليهم .

وأنصت الشيخ حينما قال موجهاً كلامه إلى التلميذ فى اختصار :

— صدقت يا بنى . .

ولم يكن بقية التلاميذ فى حاجة إلى أكثر من ذلك ، فقاموا جميعاً يقبلون يد أستاذهم العظيم ، الواحد بعد الآخر ، وفى عيونهم معنى التوبة والإنابة والضراعة والابتهال . . وما كادوا يفعلون حتى أخذوا يقبلون يد زميلهم محمود ، فى إخلاص وحب ، وعطف وصفاء ، الواحد بعد الآخر :

ونظر الشيخ عبد المعطى إلى هذا المنظر وأطال النظر . . فامتلأ قلبه بالفرح ، وفاضت عيناه بالدموع ، وكأنما تغسل ما خلف الشيطان فى جو هذا الدرس ، الذى كاد يهدمه ويقضى عليه ، لولا أن تداركه الله . . ! !

# حبر وأقلام..!!

ظل عبد اللطيف يقيم الدنيا ويقعدها ، لا يهدأ له بال ، ولا يستقر له قرار ، وكيف لا يكون كذلك ، وهو ليس بأقل من أخيه الشيخ السيد ، الذى يتمتع الآن بالقاهرة ، ويتعلم فى الأزهر الشريف . .

ولكن والده الشيخ أحمد ، لا يقره على ذلك ، ولا يطاوعه فكره أن يدع هذا الشاب يذهب إلى القاهرة ، لا لأنه يحبه كبير حب ، ولا يطيق فراقه والبعد عنه ، ولكن لأنه يعلم تمام العلم أن عبد اللطيف لا يصلح أن يكون طالبا فى الأزهر ، الذى يقتضيه كثيراً من الصبر والجلد والنصب ، والعناء فى المذاكرة وتفهم الدروس . .

هو يعلم أنه يجيد القرآن حفظا وتلاوة . ولكن حفظ القرآن وإن كان يتصل اتصالا وثيقا بالالتحاق بالأزهر ، إلا أنه ليس كل شىء ، فلا بد للطالب من استعداد خاص ، لا يراه فى عبد اللطيف ، وإن رآه فى السيد ، مع أنهما أخوان شقيقان . . ! !

فرق كبير بين عقل وعقل ، وتفكير وتفكير ، فالسيد متئد رزين سديد الرأى ، تحدثه فى أدق الأمور ، فيكشف لك ما فيها من دقة ، ويبين ما فيها من غموض فإذا بها واضحة جلية لا تقبل ريبة ولا شكا . . وتلجأ إليه لتجد منفذا من أزمة وقعت فيها ، وعقدة أحكم عقدها ، حتى يخيل إليك أنها لن تحل ، فإذا به يدور حولها فى رفق ولين ، فلا تلبث أن تجد لها حلا ، يدلك عليه ، ويرشدك إليه ، فإذا بك خارج من الورطة، ناجيا لا غبار عليك . .

أما عبد اللطيف ، فلا يعنيه من هذه الأمور كلها شىء ، سوى الطعام ، والطعام الكثير ، فهو يأكل ما يكفى أربعة أشخاص أو خمسة . . والشراب الكثير . . والقهوة الكثيرة ، التى لا يكاد يفيق من شربها . . فهو أينما حل أو ارتحل يحمل عدتها فى جيبه الواسع الفضفاض ، ويلم القش والورق من الطريق ، ويضع ذلك تحت إبطه ، فإذا وصل إلى مكان به ماء جلس ، وأخذ يعمل القهوة فى إتقان وفن دونه

أى إتقان ، وأى فن . . ثم يضع عليها ما تيسر من الأفيون ، الذى لا يفارقه أبداً ، فإذا ما انتهى من عمله هذا ، وانتقل إلى مكان آخر جلس ليعمل القهوة مرة أخرى وربما لم يمض من الوقت أكثر من ربع الساعة أو أقل ، أو أكثر من ذلك بقليل . . ! !

يعرف هذا كله الوالد الخبير ، ولهذا كان يعارض معارضة شديدة فى إيفاده إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر ، مع حبه للعلم وطلبه ، فأمنيته أن يرى أبناءه علماء متفقهين فى الدين . يفيدون الناس ، ولا يتخذون العلم ذريعة للكسب ، بل يجب أن يزاول كل منهم عملا يتكسب منه ، ليكون طلب العلم خالصا لوجه الله ، وليجد الإنسان الحرية التى لا تقيده ، ولا تحجر على تفكيره . .

● ● ●

وفى يوم من أيام عام اثنين وتسعين وثمانمائة وألف ، توجه الشيخ عبد اللطيف إلى القاهرة ، منتهزاً فرصة ذهاب أحد التجار من زملاء والده إلى القاهرة لشراء أنواع من القماش الذى يتاجر فيه ، فاصطحبه معه وذهب به إلى الأزهر ، وسلمه إلى أخيه الشيخ السيد . .

وما كاد عبد اللطيف يضع رجله فى القاهرة حتى طير البرق نبأ وفاة الخديو توفيق باشا وتولية الخديو عباس الثانى . . وساد الهرج والمرج ، فرأى هذا الشاب الذى لم يغادر الزقازيق طرفة عين إلا إلى ضيعة والده بجوار الزقازيق ، من أمر القاهرة مالم يكن يرى ، رأى أضواء وأنواراً ، وحركة دائبة ، وازدحاما فى الأسواق التجارية ، والشوارع العامة ، مما لم ير مثله فى شوارع الزقازيق العامة . وأسواقها التجارية . . وهذه عربات أجمل وأروع مما يعرف فى بلده الحبيب . .

وكان عهده بالجنائز متواضعة قليلة العدد ، فهو يذكر أن أكبر جنازة رآها فى الزقازيق لا يزيد السائرون فيها عن خمسمائة شخص أو نحو هذا العدد . . أما هذه الجنازة . جنازة الخديو ، فلم ير لها مثيلا على الإطلاق . .

ومضى فى الشوارع يضرب على غير هدى ، يبحث عن الأشياء الغريبة التى تلفت

النظر ، وتسترعى الانتباه ، فيقف أمامها مدة طويلة ، يسأل عن كل ما يمكن أن يوجه بخصوصها من الأسئلة إنسان . . حتى ليعتقد السامع أنه سائح من السياح الذين يهيمون بحب القاهرة وما فيها . .

بيد أن شيئاً واحداً كان يضايقه ويضنيه ، ويثقل عليه ويرهقه ، ذلك أن هذا الزحام الشديد لم يمكنه من عمل القهوة كما يحب أن يعملها بفنه الخاص ، الذى لا يرضى بغيره بديلا كائنا ما كان . . فهو لا يمكن أن يشرب قهوة فى منزل من المنازل ، ولا فى مقهى من المقاهى ، بل لا بد أن يصنعها هو بيديه ، والقاهرة تضايقه فى هذه الناحية . . أما الزقازيق فهى قليلة الزحام ، وما عليه إذا أراد الخلوة إلا أن يسير بضع دقائق فيخلص من المنازل والبيوت العامرة ، إلى الحقول الناضرة ، والمروج الخضراء ، وهناك يجلس ويضع ما معه من ورق وقش ، ويجرى عمليه القهوة فى إتقان وإبداع وفن ، وما أجمل منظره وقد أخذ الدخان يتصاعد فى غزارة وثورة ، لأن القش الذى يجمعه وأغصان الشجر يكون أخضر مبالا فى كثير من الأحايين فلا تتقد جذوته إلا بعد أن ينحنى انحاءة شديدة . ويأخذ ينفخ دقيقة أو دقيقتين ، فى قوة وإلحاف ، فلا تجد هذه الأغصان أمام هذه الريح الصناعية التى يخدمها بفمه القوى ، بداً من الاشتعال والالتهاب . . ! !

غريب أمر هذا الرجل . لقد أخذ يجوب شوارع القاهرة وهو فى غاية الضيق ، حتى خرج من باب النصر ، وهناك وجد فضاء وشوارع تشبه شوارع الزقازيق . . وخرج شرقى الأزهر حتى وصل إلى جبال الدراسة وتلالها ، فوجد فضاء يشبه فضاء الزقازيق حينما يبعد عنها بقليل ، فكان فرحه عظيما بهذا الكشف الجليل ، الذى فرج كربته ، وأزال ما فى نفسه من الضيق ، فكان كلما تاقت نفسه إلى صنع القهوة أسرع إلى تلال الدراسة ، بالقرب من الأزهر ، واتخذ له فيها حفرة يوقد فيها ناره الحبيبة ، وسرعان ما يعبق الجو بالدخان المتصاعد الكثيف ، الذى لا تتم حبكة الكيف ولذة الشراب إلا به ، ولله فى خلقه شئون . . ! !

● ● ●

وظل الشيخ عبد اللطيف على هذه الحال أياما ، ولا يزال بعيداً عن الجو الدراسى فى الأزهر كل البعد ، فهو يترك أخاه السيد فى حلقة الدرس يلتهم المسائل العلمية التهاما ، ولا تكاد تفوته دقيقة من دقائق الموضوع ، وكأنما يلتقط كل حرف فى فم الشيخ ، ويناقشه فيه التقاطا ويمضى هو إلى حيث يريد . . ولم يكن عبد اللطيف إلى هذا الحين قد التحق بالأزهر ، لأنه فى شغل عن ذلك بهذه المناظر الحديدة الغريبة أمام ناظريه ، وهو لا بد أن يخبر البيئةالتى نزل فيها ليكون على علم بنواحيها وأرجائها . . بيد أنه رضى أن يقدم له أخوه بعض الأوراق التى لا بد منها ليتم التحاقه بالأزهر ، ويصبح فى عداد المنتسبين إلى طلب العلم . .

وانتبه عبد اللطيف من نومه ، وعلم أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأنه عما قريب سيخوض معركة العلم والمعرفة ، وينزل إلى المسائل الكثيرة المتعددة ، فلا بد أن يتخذ الأهبة لهذا ، ويكون على استعداد لهذه الحياة الجديدة ، التى كان يتمناها من قبل . .

وجال فى الاروقة . . وجال فى حلقات الدرس . . وخيل إليه أن عدة الطالب ثلاثة أشياء : كتب أو أوراق وهذا ميسور أمره ، لأن أخاه السيد يمتلك كثيراً من الكتب الدراسية التى تصلح له ، وهى عنده فى خزانته داخل الرواق ، إذن فلا بد له من الحبر ، والأقلام . . ! !

وهنا أخذ يدقق النظر إلى هذه الأقلام التى يكتب بهاالطلاب الأزهريون فإذا بها من الغاب الفارسى . . : الأمر سهل . . إن هذا النوع فى الزقازيق يكثر حول الترع والمصارف ، فما عليه إلا أن يرسل إلى والده خطاباً يطلب فيه كمية لا بأس بها من هذا النوع . .

ثم ماذا ؟ ثم هو يريد الحبر ، فمن أين له به ؟ إنه يعلم أن الحبر يكثر فى خابية من خوابى أحد الصباغين ، الذين يمت إليهم بصلة الجوار ، فما المانع أن يطلب من والده إرسال كمية من الحبر ؟ !

وهكذا خيل لهذا الفكر الصغير ، الذى لا يتناسب مع ذلك الجسم الكبير أن

حياة الطالب عمادها أول ماتعتمد على الحبر والأقلام ، ولقد ألقاها كلمة لا تقبل النقض ، إلى أخيه الشيخ السيد ، حينما قال له فى حزم وعزم :

— لا تقدم أية ورقة من أوراق الالتحاق ، حتى يصلنى الرد من والدى ، لأننى سأرسل إليه أن يبعث إلى أقلاماً وحبراً . .

ودهش الشيخ السيد من هذا الطلب ، وحاول أن يقنع أخاه بأن هذه فكرة خاطئة ، وبأنه لا داعى أبداً لأن يطلب أقلاماً وحبراً من الزقازيق ، لأن هذه الأشياء متوفرة فى القاهرة ، وثمنها أقل بكثير من ثمنها فى الزقازيق . . على أنه لا داعى أبداً لكثير من الأقلام ، ولا كثير من الحبر . . ! !

إن الطالب يكفيه أن يستخدم طوال عامه الدراسى فى الأزهر قلماً أو قلمين ، ويكفيه لهذا دواة واحـدة ، وثمن هذا كله دراهم معدودات فى وسع أرق الطلاب حالا أن يحصل عليها . . ! !

— فى خزانتى خمسة أقلام من أجود الأنواع ، تحت أمرك ، وكذا بها دواتان لا حاجة لى بهما ، وكثير من الكتب والأوراق . .

— لا يا سيدى . . أنا لا أستعمل أدواتك . . إن والدى بعثنى هنا لأكون طالباً بمعنى الكلمة ، ولا بد أن يكون لى أدوات خاصة . .

— إذن فإليك هذا الريال . واشتر منه ما تريد من أقلام وحبر ، واحتفظ بالباقى معك تتصرف فيه كما تشاء . .

— هل تظن أننى كسلان إلى هذا الحد ؟ . . إننى أريد أقلاماً كثيرة جداً ، وحبراً كثيراً جداً . . سأنفذ فكرتى . .

وصمت الشيخ السيد على مضض ؟ فهو لا يجرأ أن يجادل الشيخ عبد اللطيف أكثر من هذا ، لأنه أقوى منه بدنا ، وأضخم جسما ، ولا يتورع أن يثور عليه ، فيخرج من وقاره ، ويعمل فيه اللكز والوكز . . ! !

• • •

وتناول الشيخ أحمد خطاب أبنه عبد اللطيف ، وكان جالساً أمام داره فى الزقازيق ، وحوله كثيرون من أفراد الأسرة ، وقد فرحوا بهذا الخطاب ، لأن عبد اللطيف قريب من كل فؤاد ، أثير عندهم ، إلى حد كبير ، ولقد بلغ بهم الشوق إليه مبلغاً عظيماً ، مع أنه لم يمض على سفره أكثر من عشرين يوما ، هى فى نظرهم عشرون عاما . .

واكفهر وجه الوالد ، وحال لونه ، حينما مر سريعاً على الخطاب . وفهم ما فيه ، وعرف أن ابنه كما يعرفه تماماً ، وأن القاهرة لم تغير منه شيئاً ، وأنه لا داعى لأن يبقى هناك ، وعقله على حاله لا يريم . . ! !

— أسمعنا هذا الخطاب يا شيخ أحمد . .

— خير لكم ألا تسمعوا منه شيئاً . .

بيد أنهم ألحوا عليه ، فأخذ يقرأ :

« حضرة والدى المحترم . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عماد حياة الطالب هنا الحبر والأقلام ، وأنا أريد أن أكون نشيطاً ، وأكتب كثيراً جداً ، فلا بد لى من حزمة أقلام من الغاب الفارسى ، وصفيحة من الحبر ، وكل هذا متوفر جداً فى الزقازيق كما تعلم . . أما الحبر فهو عند فلان الصباغ ، وأما الغاب فهو بجوار مصنع دخان ( ؟ ) بالقرب من ترعة المسلمية . . لا بد أن تصلنى هذه الأشياء فى أقرب فرصة وإلا فلن أدخل الأزهر . .

القاهرة المحروسة — ولدكم عبداللطيف »

وارتفعت الضحكات عالية صاخبة ، ولكن الوالد ، صمت مفكراً فلقد آلمه أن يكون أحد أبنائه على هذا الوضع ، من التفكير الساذج والنظر القاصر ، واعتقد أن خير سبيل ، هو أن يطلب حضوره إلى الزقازيق ، ولا داعى للغربة ، ويقنعه فى لباقة أن مجرد الذهاب إلى الأزهر كاف لتحصيل العلم ، وأنه أصبح الآن شيخاً له قيمته ،

تماماً كالشخص يذهب إلى الحجاز ويؤدى مشاعر الحج فيصبح حاجاً .. وأن الضيعة تنتظره وخرافه وجواميسه فى شدة الحنين إليه ، وكل من فى الضيعة من الأهل والأصدقاء ، وكل من فى الزقازيق من الأقارب والأصهار ، ينتظرونه فى شوق غامر ، وهم على أحر من الجمر . .

• • •

وتمت أوراق التحاق الشيخ عبد اللطيف بالأزهر ، وحاول أخوه الشيخ السيد أن يقنعه بالانتظام فى سلك الطلاب ، وأن يجلس إلى مشايخه فى حلقات الدراسة ، ولكنه أبى ، وأبى بشدة ، ورفض فى إصرار عجيب ، ذلك أنه مصمم على رأيه ، وأن الطالب لا يكون طالبا إلا إذا كتب كثيراً ، ولا يكون دلك إلا إذا كان عنده أوراق كثيرة ، وحبر وأقلام ، فبذلك يمكنه أن يحيا حياة علمية مفيدة منتجة . .

وما كاد يقرأ خطاب والده ، حتى شعر بشىء من الزهو والفخر ، وامتلأ قلبه بالحنين إلى الزقازيق ، وإلى الضيعة الواسعة التى يجوس خلالها ، وكأنه الحاكم المطلق ، والملك الذى لا يعارض رغبته إنسان . . وحقا لقد كان كذلك ، فوالده يعلم تمام العلم أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يملى عليه إرادته ، فتركه يمضى كما يحب ، ويسير كما يهوى ، ويفعل ما يشاء لأنه يئس من إصلاحه ، وتقويم معوجه .

على أن الشيخ عبد اللطيف لم يكن من البله بحيث يفعل ما يضر أو يأتى من الأمور قبائحها . . كلا ، فهو قبل كل شىء شاب من الصالحين ، يصلى ويصوم ويقرأ القرآن . . بيد أنه يعتمـد الاعتماد كله على ساعته ، ويثق بها وثوقا عجيبا . . وبخاصة فى شهر رمضان ، فهو يصوم عليها ، ويفطر عليها ، لايعنيه مدفع الإفطار فى قليل ولا كثير ، ولا يعنيه مدفع الإمساك فى قليل ولا كثير . . ! !

إنه يبيت طوال الليل يأكل ويشرب القهوة ، فإذا جاء ميعاد الإمساك نظر إلى ساعته ، فإن أشارت عليه بالإمساك أمسك ولو كان الفجر لا يزال بعيداً، وإن لم تشر عليهبالإمساك أدام الأكل والشرب ، ولو كان الضوء يغمر النواحى،وينتشر فى الأرجاء .

وإذا صام ، وحان وقت الغروب ، نظر إلى ساعته ، فإن دلت على وجوب المغرب أفطر ، وإن كانت الشمس لا تزال تلقى بأشعتها الواهـة الحمراء على جسد الأرض ، ويتلظى قرصها القانى ناحية الغرب مؤذنة بالزوال والفناء . .

وإن لم تدل ساعته على وجوب المغرب ، ظل ممسكا ولو مضى الوقت وأمسى المساء .

على هذا الوضع كان يحيا هذا الشاب العجيب ، الذى أبى أن يخضع لرأى أخيه ، وظل بعيدا عن حلقات الأزهر ، يداعبه الحنين إلى الزقازيق ، فيسخط على الأزهر ومن فيه ، وعلى القاهرة ، وما يلاقيه فيها من جوع وألم . . فهو لم يطعم فيها كما يحب ، طعاما يملأ بطنه ، ويرضى نهمته ، ويشبع أضالعه ،ممن يوم أن جاء إليها حتى الآن . . وماقيمة أربعة أرغفة فى الوجبة الواحـدة ، فى حين أنه كان لا يسأل عما يأكل من الأرغفة فى الزقازيق ، ولم يحاسب على خضر أو لحم ، له فى حياته الغذائية المنزلة الأولى ، والمكان المرموق ؟ !

إنه يعنى عناية خاصة باللحم ، فينظر إلى الطبق ، فإن كان عامراً باللحم الكثير أخذه وأكل وإلا رمى به فى وجه الخادم ، ولهذا يخشاه أهل البيت جميعا ، ويعملون لوجبته ألف حساب وحساب . . أما هنا فى القاهرة فلم يجد حاجته من هذا الصنف وكثيرا ماناقش أخاه فى هذا الصدد ، فلم يحظ برد مقنع . .

إن خطاب والده فرصة ليغادر القاهرة ، إلى حيث يجد المتعة والنعيم فى بيئته التى ترضى عواطفه وغرائزه . . أما العلم والمعرفة والدراسة الأزهرية ، فيكفيه من هذا كله هذا اللباس العربى وتلك العمامة الكبيرة . . وكفاه هذه الزيارة الطويلة للأزهر ، ليبرهن لزملائه وإخوانه أنه من العلماء الأجلاء . . ! !

● ● ●

وبهت الشيخ السيد حينما أخبره أخـوه بأنه مسافر إلى الزقازيق لأمر هام ، وحاول أن يعرف منه حقيقة الأمر ، فأعطاه خطاب والده ، ولكنه أكد أنه سيعود إلى القاهرة مرة أخرى ، ليشمر عن ساعد الجد ، وليأخذ بنصيبه الموفور فى هذه

الحياة الجادة العاملة ، حياة الأزهر التى تقوم على قدم وساق . .

بيد أن أخاه ضرب كفا على كف ، ورثى لهذه العقلية الساذجـة ، وأصر أن يعرف جلية الأمر وحقيقة الخبر ، فليس الوضع على هذه الحال من السهولة واليسر . . ففكر الشيخ عبد اللطيف قليلا ثم قال :

ـــ أنا عند رأيي سأحضر الحبر والأقلام . . . ! !

ولم تر القاهرة بعد ذلك وجه الشيخ عبد اللطيف . . ! !

# العفو ..!!

ـــ ألا تكفيك مائة ؟ !

ـــ لا ، فلن تناله بهذه القيمة ! !

ـــ عجبا ! أيعفو الإنسان عن ذنب أخيه وجريرة زوجته مقابل أجر ؟ !

ـــ هذا كثير يا مولانا . .

ـــ يكفيك من النادم ندمه ، ومن المسترحم استرحامه . .

كن قريب العفو ، فلست فى غنى عن عفو الناس . . ولن تكون أبدا فى أى وقت فى غنى عن عفو الله . . كن ممن يعنيهم صلوات الله عليه وسلامه فى قوله : إن هؤلاء ــ يعنى العافين ــ فى أمتى قليل ، إلا من عصم الله ، وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت .

ـــ لا تضرب على هذه النغمة بعد الآن ، فلا أحب أن يتسع الخرق . .

ـــ إنك تضطرنى إلى ذلك اضطراراً يا صاحب العزة . .

ـــ لم أضطرك ، ولن أفعل ذلك ، لأنه لا حظ لى فيه ؛ ولا غاية لى منه ، وأنت أعلم بذلك منى ، فما أذكر أنى فاتحتك فى هــذا الأمر ، ولكنك أنت الذى فاتحتنى فيه ، وألجأك إلى هذا الموقف دينك وضميرك ، واعتزامك التوبة النصوح وصدقك فيها ، وإلا فأنت فى حل من كل شىء ، وما فعلت فى نظرى منكرا كما زعمت ، فأنا لا أدين برجعيتكم ، ولا بأس عندى أن يرضى أصدقائى زوجتى بأمثال هذه العلاقات ، وترضيهم بها ، مادام ذلك على سبيل الصداقة والمحبة والوداد . .

ـــ وإذن فماذا يمنعك من العفو عنى ؟

ـــ يمنعنى من هذا أنى أريد أن أضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون .. !!

ـــ ولــكنك تطلب منى عسيرا ، وخاصة فى هذا الظرف . .

ـــ ولــكنه ليس بمتعذر عليك .

ـــ ألا تزال مصراً ؟ !

— هذا هو السبيل الوحيد .

— إذن فإلى الله ألجأ لا إليك . .

— كما تريد . . ويهمنى أن تعلم أن هذا موكول إلى دون سواى ، فهو من حق أنا وحدى . .

— سلام عليك .

— وعليكم السلام ورحمة الله . .

● ● ●

ومضى الشيخ عبد المقصود إلى داره وهو يحمل بين جنبيه هماً ثقيلا يرزح تحته وينوء بحمله ، ويضيق به ذرعا حتى لم يحتمل أكثر مما لاقى بسببه مع أنه جلد صبور ، فهو رجل نال حظا لا بأس به من التعليم فى الأزهر ، أمكنه به أن يفهم ما يجب عليه نحو الله والناس على وجه يرضى الله ولا يغضب الناس ، وقد أفاده وجوده فى العمودية حنكة ودربة ، ودراية بأخلاق الناس ، ومرنه على الصبر والحلم وسعة الصدر ، ورحابة الخلق ودماثته . . وكان له بذلك بين قومه المنصب الكبير ، والمكان السامى ، والمنزل الرفيع ، والكلمة المسموعة ، والرأى الموقر . . ! !

مضى إلى داره وهو ناقم كل النقمة على ذلك « الرجل » الذى لم تنفع معه كل حيلة ، ولم يجد معه أى تفاهم ، مع أنه صديقه المقرب لديه ، والمحبوب عنده ، الذى يجد الراحة بجانبه ، والمتعة فى قربه ، والملجأ فى كنفه إذا ابتغاه ، والأمل إذا رغب فيه ، لأنه يحوط هذه الصداقة بسياج من العطف والحنان ، وكثير من التضحية ، وإنكار الذات . وكان من الواجب ألا يقف منه هذا الموقف وهو الذى ينيله من خيره وبره إذا احتاج إلى ذلك ، ولا يمنعه شيئا من ماله بالغاً ما بلغ دون أن يجد غضاضة فى ذلك ولا مضاضة ، وإنما يرى أن من دواعى الصداقة ألا يكون فرق بين الأصدقاء خصوصا فيما يتصل بالمادة ، وهذا نوع من الأصدقاء قليل ، ولكنه يريد أن يحققه ويوجد نوعه ليزاحم أصدقاء المطامع والأغراض . . ! !

كان يظن ، بل يعتقد أنه سيحظى بطلبته من أقرب طريق ، يسر لا عسر معه ، وسهولة لا مشقه فيها ولا تكدير ، لأن الجريرة ليست بجريرته ، والذنب ليس بذنبه فحسب ، وإنما له شريكة فيه ، يقع عليها إثمه قبل أن يقع عليه، وتؤخذ به كما يؤخذ هو به ، ويلحقهاعاره قبل أن يلحقه . . كان يعتقد ذلك ولـكنه جانف الصواب ، وأخطأ التقدير ، واتضح له أخيراً أن هذا الرجل يبطن غير ما يظهر ، ويخفى غير ما يعلن . وبذلك سقط فى نظره . ولن يقيم له بعد ذلك وزنا . . فمن كان يظن أن سليمان بك — الرجل الوديع الظريف ، السهل اللين الطباع ، المستبشر الضحوك دائما — يضن على صديقه الصدوق بالصفح والعفو . . ويأبى إلا أن يتناول على ذلك العفو طائل المال ؟

واشمأزت نفسه لهذا الـكشف الغريب لنفسية صديقه ، وأقسم أن لو كان يعرف عنه ذلك قبل أن يعقد أواصر الصداقة ، ويربط روابط الألفة لما فعل ، ولما كان نادماً على ذلك بحال . . ولـكن ماذا يفعل ما دام قد عقد النية على التوبة ، ووطد العزم على الإنابة ؟ ! لا بد أن يبت فى الأمر ، ولا بد أن ينال من صديقه الصفح والعفو بأى طريق . . سيحتال فى الأمر . . وسيطرق الباب من كل ناحية حتى يفتح — سيعالج الموضوع دائبا مهما كانت القيمة ، ومها بهظت النفقات . وإذن فليقـذف بالمبلغ فى فم صديقه ليتحرك لسانه بالعفو ، ويومىء قلبه بالصفح . . ليقذف بالثلاثمائة جنيه فى سبيل الله — لمن لا يستحق منها قرشا — فى حين أن هذا المبلغ يثقله فى هذه الأيام وهو أحوج ما يكون إلى الجنيه الواحد يسد به باباً من أبواب النفقات التى لا يرتج لها رتاج . . ولـكنه أيضا — كما يعز — يهون بجانب الذنب الذى ارتكبه والجريرة التى اجترحها . فلقد أثر فيه ما قيل فى مجالس العلم التى يحرص على الحضور إليها الحرص كله — أثراً بالغا ، فهو يحب هؤلاء الواعظين المقاول ويكرمهم كل الإكرام ، وإن كان فى الواقع عز عليه أن يعترف أمام صديقه بكل شىء . . بيد أن هذا أحب إليه من الفضيحة يوم المعاد على رءوس الأشهاد وفرق بين الموقفين أى فرق . . !!

أوه . . لقد كانت ساعة رهيبة تلك التى اندفع فيها مع هواه فعقد الصلة بينه وبين

زوج الـ (بك) وأمكنه أن يختلى بها وأن يجد فى جانبها ساعة رهيبة من ساعات الشيطان.. لقد داعبها وقبلها واحتضنها وأفرط فى ذلك ، ولـكنه لم يجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، وإن كان قد فكر فى ذلك إلا أن الله أعاد إليه صوابه فى الوقت المناسب فنجا من الهاوية ، وفر من الجحيم . . ولم يكن هو أول رجل أمكنه قنص هذه الطروب اللعوب ، بل كان لها طريقة رضى عنها زوجها ولم يغضب منها ، فهى تكاد تكون ملـكا مشاعاً بين أصدقاء زوجها وخلانه ، فهى سافرة لا تجد غضاضة فى مجالسة الناس ، فتقابل كل يوم عشرات الأصدقاء على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، ولا يجد زوجها أيضا غضاضة أو حرجا ما دامت زوجته ( أسبور ) وما دام لا يجد بين أهل الحى جميعا من يماثلها أو يدانيها فى الجمال والتعليم الذى نالت منه حظاً كبيراً ، وفى الواقع أنه سد باب عقله فلم ينفذ إلى عاطفته شعاع ، ولم يصل إلى قلبه حزمة من نور . .

وهنا تجد الشيخ عبد المقصود وقد وقع بين عاطفتين ملحتين ، لـكل منهما أثرها وقوتها . . عاطفة الإيمان . . وعاطفة المال — الإيمان القوى الذى لا يريد أن يفرط فى شىء ، بل يحرص على كل شىء ، والمال الذى هو فى حاجة ماسة إليه وللمال حب لا يخبو فى النفوس مهما بلغ بها الحال من اليسر واليمن . عاطفتان متضاربتان انتاشتا قلبه واستعرتا فيه . . ولن تجد جهداً فى النفاذ إلى مكنون نفسه حينذاك ، فوجهه صورة صادقة لمـا يعتمل فى نفسه من أحاسيس ، ويختلج فيها من عواطف بل أعاصير ، ويعصف فيها من عواصف مهتاجة ، وحرق ملتاعة . .

واشتجار هذه العواطف له أعمق الأثر فى النفوس ، وأصدق النتائج فى العلم . . هنا تميز النفوس ، هذه ضعيفة تصرعها الشهوة .. وتأسرها المـادة ، ويغلبها المـال . . وتلك قوية تسيطر عليها الروحانية ، ويملـكها الإيمان .. وكان صاحبنا من هذا الفريق فقام من فوره بعد معركة طال وقتها ، وحمى وطيسها — وقد بدت فى عينيه قوة العزيمة ، وصرامة الرأى ، وفتح خزانته الحديدية الـكبيرة وتناول منها أوراقاً مالية ، دسها فى حافظة نقوده فى غير مبالاة ولا اهتمام .

وكان الوقت قد تقدم به ، ودقت الساعة العاشرة مساء ، فاضطرب واهتم ، لأنه لم يتأخر إلى مثل هذا الوقت بحال ، بعد توبته ، لأنه حريص كل الحرص على صلاة الفجر.

واتجه إلى سريره ، ووضع الحافظة تحت المخدة ، وقرأ عليها آية الحفظ ، ثم آية الكرسى ، وأخيراً استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وراح فى نوم عميق ، منتوياً الذهاب فى الصباح الباكر إلى سليمان بك ليسلم عليه ويسأل عن صحته الغالية .. و.. و.. ولينقده بعد ذلك ثمن عفوه وصفحه ، وعوضه على الله ، وعنده الجزاء ..

● ● ●

واتكأ سليمان بك على المقعد فى استرخاء وتفكير ، وراح يمعن فى الأمر ، ويفكر فيما وقع بينه وبين الشيخ عبد المقصود هذا الرجل الريفى الطيب القلب ، الذى يحبه ويعتز به ، لا لشىء إلا لطيبة قلبه ، وسلامة طويته ، ولأنه يمثل فى نظره بقية صالحة من قوم يندر وجود أمثالهم فى هذه الأيام . . إلا أنه لم يكن راضياً كل الرضا عن طريقة الشيخ فى الحياة ، بل يراه مغالياً إلى حد يلحقه بالرجعيين الذين ينقم عليهم كل النقمة ، ويحاربهم فى كل مكان ، ويسخر منهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، بيد أنه يرى فى هذا الطريق نوعاً من السلامة لا يكون فى مثل طريقه هو ، ويعزو ذلك إلى أن هذا الطريق إنما يستدعى الكثير من الصبر وطول الأناة والصبر عن المعاصى والرغبة عنها ، وفى هذا من جهد الرجال ما فيه.

وهنا استغرق فى التفكير ، ونظر إلى الإمام نظرات شاردة مبهمة ، وكأنه يخترق الحجب الكثيفة ليبحث عن شىء . . يبحث عما أضناه وأحزنه : يبحث عن ذلك الضمير الذى يهتف به من وراء الغيب انتبه فليس إلى هذا الحد يكون النوم .. يبحث فى قرارة نفسه عن بقيه من دين وخلق ، تطفو تارة بين أعماق نفسه الشاردة ، وتغوص أخرى متلاشية بين ذلك الخضم من نتائج العبث ، وثمار الشيطان . . يبحث عن ذلك القبس الذى يداعب فكر اللاهى ، ويغشى ناظرى الأثيم فيعكس اعتقاده ،

فيثوب أحياناً إلى رشده ، أو يمضى فى طريقه وهو مقر أنه مخطىء مجانف للحق ، مباعد للصواب . . يبحث عن تلك العاطفة الرحيمة الرقيقة التى تشمئز من عمل الشيطان ، وتطرب للفضيلة ، وتهش للخلق الرفيع . . كان يبحث عن هذا كله فى أعماق نفسه ، وإن كان ينظر إلى نفسه بعيداً . . هناك فى الأفق حيث ملتقى الأرواح والأشباح الهائمة الولهى . . هناك تسمو النفوس عن البشرية لئلا تكون مادية مظلمة بل روحانية سامية . . هناك حيث أخذ يحملق فى بله وجنون ، ولكنه لم يسم بنفسه بعد ، ولم يرتفع بها إلى هذه الآفاق ، فارتدت نظراته خائبة خاسرة ، ولم تصل إلى شىء . . وصدمت نفسه هذه النتيجة فتأزمت نفسه ، ولكن سرعان ما تغلبت عليه كتائب البشرية ، فتبدل شعوره وتوحشت نفسه وطربت . . لماذا ؟ لأن الفرصة واتته ، والظروف عاونته ، مؤازرة له كل المؤازرة . . فلقد بلغ به الضيق والكرب مبلغاً عظيما . . هو فى حاجة ملحة إلى المال ، وإلى المال الكثير ، إذ فتحت عليه زوجته أبواباً كثيرة لا حاجة له بها ، ولا داعى إليها فى نظره حينما يتأنى وينظر إلى عملها بنظرة فاحصة مجردة عن العاطفة العمياء . . فما الداعى لهذه الحفلات الكثيرة التى تقيمها لصديقاتها وأصدقائها على السواء ، باذلة عن سعة ! منفقة عن تبذير مقيت يضج هو منه ويتأذى ، ولكنه لا يقدر أن يتفوه بكلمة واحدة ، فلقد أرخى لها هو الحبل ، ودفعها إلى هذه الهاوية التى تبتلع أمواله ابتلاعاً وهو واقف لا يبدى حراكا حتى بالاعتراض والإنكار . . ثم هذه الملابس التى تحاكى ملابس الراقصات والممثلات ألوان شتى ، وأشكال متباينة ، باهظة النفقات ، يكره أكثرها أشد الكره ، ولكنه لا يمكن أن يرفع صوته حتى بالاعتراض والإنكار . ثم ماهذه البدعة الجديدة التى كادت تأتى على الأخضر واليابس . . المسرح والسينما ، وسباق الخيل ، و . . و . ما حاجتها إلى هذه الأشياء وأمثالها مما تقذف فيه بالمال قذفاً ، وكأنها تغترف من بحر خضم لا ساحل له . ؟ !

أجل هو فى حاجة إلى المال ليسد هذه الأبواب المفتوحة المصاريع فى نهم وجشع .. وانه ليذكر أنه استدان لأول مرة ، وهو الذى لم يعرف هذا الطريق من الاحتيال والنصب كما يعتقد هو . .

ومرت بذاكرته حينذاك صورة الشيخ عبد المقصود فى جلبابه الوسيع الناصع البياض ، وعمامته الكبيرة المكورة فوق رأسه فى هيبة ورهبة ، ولحيته الطويلة فى تقوى وورع .. فتبسم لهذه الصورة ؟ وتغلب شيطانه ، فرمى هذا الرجل بالأفن فى الرأى ، والبله فى الطبيعة ، والسذاجة فى الخلق ، وعجب كيف يهتم لموضوع كهذا ويريد أن ينفق عليه كل هذه الأموال الطائلة . . إنه لجهل وحمق ، ولكن لماذا ؟ إن من الواجب أن يقيم لهذا الشيخ الأفراح ، ويقابله بالترحاب والإجلال والاحترام ما دام قد فرج عنه كربته وقت الحاجة إلى التفريج ، أو بالأحرى ما دام سيفرج عنه ما يلاقيه من هم ، ويقاسيه من كرب وآلام .. ومصائب قوم فوائد آخرين ..

غير أنه نظر إلى موقفه من الشيخ فقال محدثاً نفسه : « هل يعود ؟ أراه لن يرجع مرة أخرى » .. فلقد قسا عليه ، وقابله بجفاء وشدة ، وكان من الواجب أن يلين ولا يقسو ، ويرق ولا يعنف ، حتى يمكنه أن يبقى على الصيد لئلا يفلت منه .. ثم ما لبث أن اتجه إلى جهة أخرى، هام فى فيافيها ، يحتطب الأشواك ، ويصارع الشهوات فيصرعها تارة ، وتصرعه أخرى . . هل عمله هذا من الأمور المجاورة الأثيمة ، أم لا حظر فيه ولا إثم ؟ ومضى يعرض الأمر على عقله تارة وعلى عاطفته أخرى ، يعزز الأولى الحق والصواب ، ويعزز الأخرى الشهوة والغرض ، وبدين رقيق ، وإيمان ضعيف أمكنه أن يسوغ هذا العمل ، ولا يجد فيه غضاضة من أى جهة من جهاته .

وأرهقه التفكير إرهاقاً شديداً فغلبه النوم وهو على مقعده الكبير . !

● ● ●

وسبح فى عالم الأحلام . ، وتقاذفته الأمواج ، ترفعه لجة ، وتخفضه أخرى ،

وروحه هائمة بين عواصف من الشر ، وقواصف من الفساد ، وبين عوامل من الإصلاح ، ودواعى من الخير . . نفس حائرة مضطربة لا تكاد تستقر على حال . . تتعذب حيناً عندما يطاف بها فى عوالم العذاب والألم ، وتنعم حيناً حينما يطاف بها فى عوالم السعادة والنعيم . .

والناظر إليه حينذاك ، يرى جسداً ينتفض ، وبدناً يرتعش ، ثم يهدأ ويستقر . ويسمع صوتاً يتحشرج فكأنه خارج من أعماق الجحيم ، هو صرخات من قضى عليهم بالعذاب ، وحقت عليهم الكلمة . . وتارة يضج هذا الصوت بالضحك ، ويتلجلج من الفرح ويصخب . . ! !

لقد كان سليمان بك فى حلم . . ! ! وكان حلمه مضطربا ، ولم يعلق بذهنه أخيراً إلا هذه الصورة :

هو فى بيداء مظلمة . . والريح تدوى هنا وهناك ، والزئير يتعالى من كل جانب فى شدة وعنف وإلحاح . . لا قبس يهديه فى هذه الحلكة المهلكة . . السباع وحدها قد اهتدت إليه ، وهاهى ذى تجتمع حوله وتقطع عليه السبيل . . وفغرت أفواهها استعداداً للهجوم فلم يجد صاحبنا منفذاً ولا مهرباً . . أين الكهوف ؟ أين المغارات ؟ أين الملجأ ؟ . . وأخذ ينظر إلى السماء . . ليت له أجنحة فيصعد إلى الطبقات العليا حيث لا يرتفع إليه وحش ولا يقربه سبع . . وينظر إلى الأرض فلا يجد فجوة قريبة أو بعيدة .. وضرب الأرض برجله فى قوة وعنف وكأنه يريد أن تنشق فتكون له ملجأ وملاذا ، ولكن أنى له ذلك وهو آدمى لن يخرق الأرض ولن يطاول الجبال ، مهما تجبر وعتا ؟ ؟ . . وزفر زفرة حرى كاد يلفظ فيها قلبه وفتات كبده .. وتمنى لو كان له منطق سليمان عليه السلام فيخاطب هذه الوحوش ويسترحمها حتى يلين منها القلب ، أو تخشاه بالغريزة .. وكانت هذه كلها أوهام وخيالات تجول فى ذهنه مسرعة عاجلة ، ثم تمضى ، ويبقى هو فى مكانه بين حصن من الكواسر الضوارى . . وإذا الزئير يصم أذنيه ، وإذا بهذه الوحوش تهزأ به وتسخر ، وتبتعد

عنه تارة ، وتدنو منه أخرى ! وكأنها تلاعبه وتداعبه ، كما يلاعب القط الفأر ، تعذيباً له ، وإمعاناً فى الإيلام والايجاع . . ! !

وذكر الله حينئذ فرجع إليه نوع من الهدوء ، وشىء من الطمأنينة ، فذكر أهله وإخوانه ، وخيل إليه أنه لو صرخ مستغيثاً بهم لأجابوه ، وسمعوا دعاءه ، ولبوا نداءه . . ولكن أين الصوت الذى ينبعث ، وأين الحنجرة التى توقع ، وأين اللسان الذى يعبر ؟ ؟ ؟

وأخذته إغماءة يسيرة ، رأى على أثرها كأن شعاعا يضطرب من بعيد . ورأى أقواماً يلغطون ، ويتحركون فى هذا الشعاع الضئيل . . وأحدق ببصره فى هؤلاء وأمعن الفكر ، من يكونون ؟ ثم أنعم النظر كرة بعد كرة ، فإذا به يعرفهم . . إنهم أهله . . وهذه زوجته . . وهذا عمه . . وذلك ابن أخيه . . و . . و . . . هاهم مقبلون عليه . . لا شك أنهم سينتشلونه من وهدته . . وها هو دا يسمع أصواتهم ، ويحدثهم فيسمعون . . وشكالهم ما به ، ولكنهم لووا وجوههم ، وزموا شفاههم وولوا يجمحون . . ! !

ووقف الـ ( بك ) بادى العجب ، بادى الاضطراب ، وقد أثرت فيه الصدفة أثراً سيئاً كاد يقضى عليه .. أحبابه ! أهله ، ذووه ، ثم زوجه .. روحه التى يؤثرها بالفضل كل هؤلاء يفرون منه ولا ينقذونه وهو فى أشد حالات الكرب والحرج والضيق إنه قد استهان بالحياة ، وأصبح لا يخشى هذه الوحوش الرابضة فى ضراوة وصمت ، فلقد سئمت الزئير والجئير ، فربضت حوله وكأنها تحرسه من ذئاب البشر ، وأوغاد الناس . . ووضع يده فى جيبه فخيل إليه أنه مكتظ بأوراق ( البنكنوت ) . . وآلاف الجنيهات يمتلىء بها جيبه وهى فى قبضة يده . . وحدثته نفسه أن يقبض من من هذه الأوراق ويرمى إلى هذه السباع الرابضة ، وسرعان ما نفذ الفكرة بغير روية ولا تؤدة .. ونثر الأوراق هنا وهناك .. لقد كانت أوراقا كبيرة من ذوات المائة . . كانت تلتمع على الأرض وتتضوأ . . ولكن هذه السباع ظلت صامتة رابضة لأنها

لم تفهم بعد لغة النقد والبنوك . . إذن ما الحيلة وقد كادت تزهق منه الروح ؟ !

لقد سمع صوتاً خافتاً . . ترى ما هذا الصوت ؟ وأنصت إليـه فى انتباه غريب فإذا به يصل إليه فى لين ، وكأنه يهتف به من جانب الغيب . .

« أعف عن صاحبك . . »

يا لله ! ! ومن صاحبى ؟ إنه لا بد يعنى الشيخ عبد المقصود . . وسما به الفكر حيناً فخيل إليه أنه يسمع الصوت ثانية فأنصت له فى انتباه . .

« أعف عن صاحبك . . فلست فى غنى عن عفو الناس ، ولن تكون أبداً فى غنى عن عفو الله . . فرج كربته يفرج الله كربتك . . »

وكاد الرجل يطير فرحا ، فلقد انفتح أمامه الباب ، وذكر ما اتفق عليه مع الشيخ عبـد المقصود ، فتخاذلت قواه ، وندى جبينه العرق البارد ، واستخذى في استحياء ، وأيقن أنه أتى منكراً . . يعفو نظير أجر ؟ ! هذا كثير . . إذن لا بد أن يعفو عن الشيخ عبد المقصود . . ولـكن أية فائدة تناله ؟ . . أوه . . طبعاً يكشف الله عنه كربة الدنيا ، وينجيه مما هو فيه . . ؟ ! !

« وليس هذا فحسب ، بل لك عند الله الأجر . . »

سبحان الله ، كأن هذا الصوت صوت ملك يقرأ ما يجول فى فكرى ، ويعتمل فى نفسى . . يا ألله . . لقد عفوت عن صاحبي ابتغاء وجهك . . لقد عفوت عنه . . عن الشيخ عبد المقصود . . عن الرجل الطيب القلب . .

وسرعان ما رأى الشيخ عبـد المقصود قد أتى يهرول نحوه من بعيد فى ثوبه الفضفاض ، وعمامته الـكبيرة المـكورة على رأسه ، وفى وجهه بشاشة ولطف ، وفى محياه صفاء ووفاء . . حتى إذا دنا منه وجد هذه السباع وتلك الوحوش تتطامن له ، وتثبت حوله هنا وهناك وتداعبه فى لطف ، وكأنها هرار وديعة ، وكلاب وفية أمينة فكاد يجن . . بيد أنه لم يجد وقتاً للتفكير ، إذ بسط إليه الشيخ عبد المقصود يمينه وراح يهز يده فى فرح وغبطة وإخلاص . . وهنا كان الـ ( بك ) فى عالم اليقظة مع

الأحيـاء . . ففرك عينيه بكفيه ، وراح ينظر حواليه فى سذاجة وبله ، وكأنما ليتأ كد أنه يقظان . .

• • •

السلام عليكم ورحمة الله . .

ــ وعليكم السلام ورحمة الله مولانا وبركاته ورضوانه . . أهلا وسهلا ومرحباً أهلا . . أهلا . .

وعجب الشيخ عبد المقصود لمقابلة الـ ( بك ) له بهذا الترحيب الغريب ، ولـكنه لم يرد أن يطيل حبل الحديث ، فدخل إلى الموضوع بلا مقدمات قائلا :

ــ ها هو ذا يا سيدى الـ ( بك ) المبلغ الذى اتفقنا عليه . .

وأخرج من جيبه بسرعة حافظة نقوده ، وأخذ يعد ما بها فى صمت وهدوء . . ولـكن الـ (بك ) لم يتحرك ، ولم يندفع إلى النقود يستولى عليها ، بل قال فى هدوء .

ــ أبق عليك نقودك يا مولانا عبد المقصود . . أبقها فلقد عفوت عنك لله لا لأجر . . قضى الأمر ، لا تحاول نقاشاً . .

وفغر الشيخ عبد المقصود فمه وهو لا يكاد يفهم ما طرأ على صاحبه سلمان الذى يكاد يعبد المـال عبادة . . بيد أن حيرته لم تطل ، حينما أخذ الـ ( بك ) يقص عليه خبر ما رأى وهو بادى الهدوء والطمأنينة . . ! !

وتعانق الرجلان ، وشاع فى وجهيهما السرور والبشر . . ثم قال الشيخ عبد المقصود :

ولـكنى يا سيدى قد نزلت عن هذا المبلغ لله ، فهل أرجع فيه . . ؟ !

ــ لا لن ترجع . . سأدفع إليك ضعف هذا المبلغ ليكون المبلغان نواة اكتتاب لبناء مستشفى كبير ، فالبلد فى حاجة ماسة إلى مستشفى . . ونحن فى حاجة ماسة إلى أن نخدم المحتاجين والبؤساء . . ولنهب وقتنا وجهودنا لهؤلاء . .

ــ أنعم بها من فـكرة ، ضعف لقد اتفقنا وغدا أحضر لك المبلغين . .

— يا لله . . وسأدفع لك أنا مثل المجموع بعد ليكون المبلغ خمسة آلاف وأربعمائة جنيه . . ولكن أى اسم تختاره له ؟

— لك الخيرة أنت لا لى . .

— لا . . بل لك أنت .

— إذن فليكن : مستشفى العفو ! !

# الجزاء . . ! !

— ما كنت أظن أن والدى يريد أن يتخلص منى على هــذه الصورة ، وتلك السرعة يا أماه . .

— لقد كذب حدسك يا بنيتى ، فوالدك أشفق الناس بك ، وأكثرهم عطفا وحنانا عليك ، ولم يفعل غير ما يمليه عليه الواجب . .

— ما يمليه الواجب ؟ !

— أجل يا بنيتى ، فالزواج هو أمل الأب لابنته ، والأم لفتاتها . . فمن حين تولد البنت ، وذلك الأمل يداعب أفكار الأبوين ، ويطوف بأحلامهما من حين إلى حين ولا يزال هذا حالهما ، حتى يظهر فى الأفق ذلك الزوج المنشود . . والزواج هو الحصن من عاديات الدهر ، والملجأ من تقلبات الحدثان ، تسكن فيه نفس إلى نفس ، ويرتاح قلب إلى قلب ، ويعطف فؤاد على فؤاد ، ثم تكون بعد هذا كله الثمرة الحلوة الشهية ، التى يمتد بها العمر ، ويخلد الذكر ، وأعنى بهذه الثمرة ، ما ينعم الله به على الزوجين من ذرية حبيبة . .

— هذا جميل ، لا أنكر شيئا منه . .

— وماذا تنكرين إذن ، وبخاصة أن مجتمعنا المصرى فى حاجة إلى التزاوج والإثمار حتى يكثر عدده ، ويقوى جانبه ، إنه يلح على كل فتاة وفتى بالزواج لتعمر البيوت ، ويبعد كل منهما عن هذا العبث الآثم ، واللهو الدنىء ؟ !

— الحق معك ، ومع والدى كذلك ، ولـكنى أنكر شيئا واحدا ، وهو أننى أهملت إهمالا أليما فى هذا الزواج . كان الواجب أن يؤخذ رأيى فيــه . . إن حق اختيار الزوج لى أنا دون سواى . .

— ماذا تقولين يا بنيتى ؟ !

— أقول إن والدى مع محافظته على تعاليم الدين ، وتمسكه بالشريعه الإسلامية فاته شيء له قيمته ، وله أثره البالغ فى الحياة . .

— وما هو ؟

— أعطانى الحرية الكافية فى اختيار الشخص الذى سيكون شريك حياتى . .

— لا مانع عندى من ذلك ، ولا مانع عنده أيضا . .

● ● ●

ودخل الوالد حينذاك ، فقاما له فى احترام بالغ ، وتوقير كبير . .

هو رجل شركسى جاوز التسعين ، وناهز المائة ، ولكنه مع هذا يحتفظ بقوة تغالب الأيام ، وتصارع الحدثان . . يمشى فتخاله أسداً قويا ، قد انتفخت أوداجه ، ويخيل إليك أنه متكلف متصنع ، ولكنك تغير حكمك حينما تجالسه ، فإذا به يصدر عن طبيعة لا كلفة فيها ، وسجية لا تصنع معها ، هى الفطرة التى فطره الله عليها . . شارب ضخم مفتول فى عناية بالغة ، يرتفع طرفاه فى استقامة وقوة ، وحاجباه شعرهما كثيف جداً ، قد اقترن أحدهما بالآخر حتى لا تجد بينهما فاصلا . . وكأنما لا يعترف هذا الرجل بهزيمة الزمن ، فهو يصبغ شعره من حين إلى حين فيبدو كأنه شاب فى عنفوان الشباب . . ! !

وساد صمت قطعه بقوله :

— فى أى شيء كنتما تتحدثان ؟

وبلعت الزوجة ريقها ، وكأنما شعرت بجفاف حلقها خوفا ورهبة ، وأرادت أن تغير الحديث ، وتتجه به إلى جهة أخرى ، ولكن لسانها لم يطاوعها ، فلم تلبث أن قالت فى تؤدة وأناة :

— فى موضوع الخطبة . . خطبة إبنتنا الوحيدة . . لقد حادثتها طويلا فى ذلك ، وبينت لها مزايا الزواج ، وهى مقتنعة ، بيد أنها تريد أن تترك لها اختيار الزوج الذى سيكون شريك حياتها . .

— اختيار الزوج . . ! !

وتمتم فى ثورة مكفوفة ، وجذب نفساً من سيجاره الضخم بعنف وتكلف ، واضطجع إلى الوراء فى استرخاء . . ثم تثاءب وتثاءب . . ونفث الدخان من فمه فى بطء غريب . ثم زم شفتيه ، وقرن ما بين حاجبيه ؟ وتهلل وجهه فجأة وقال فى هدوء :

— ولكن إذا تركت لها حرية الاختيار ، أتحسن اختياره ؟

ونظرت الزوجة إلى ابنتها نظرة ذات معنى ، وكأنما تدعوها هى لتجيب . .

فقالت الإبنة على الفور فى عزم وقوة :

— أجل يا والدى ، سأحسن الاختيار . . إن لى شروطاً لا بد من تحققها فى الزوج الذى أريده ، فإن حظيت به ، فبها ونعمت ، وإلا ؛ فسأظل معكم ولا أفكر بعد ذلك فى الزواج . .

— وما هى شروطك فى الزوج ؟

— الاستقامة بمعناها الحقيقى ، فلا يعرف غير عمله وبيته ، أما الأندية والمجتمعات والسهرات اللاهية العابثة فلا . . والعفة التى تجعلنى فى نظره كل شىء . . والرجولة الكاملة ، فلا أحب الخنوثة والنعومة فى الرجل ، ولا أوافق على التكسر والتميع ، الذى أصبح الآن خلة لكثير من الشباب . . وهذا كل ما أرجوه . .

— جميل هذا الخيال . . ألا تشترطين المنصب والجاه ، والمال والجمال ؟ !

— لا ، لن آبه بهذا كله ، ولا أنظر إليه . . .

— إذن فقد فقدنا هذا الخاطب ، الذى تقدم يطلب مى يدك . .

فقالت الأم بلهفة ، وقد توجست خيفة :

— ولماذا ؟

فقال الوالد فى صدق وصراحة :

— لأنه ليس برجل بهذا المعنى . . إنه يتخذ من وسائل الزينة مالا تتخذه امرأة ويحرص على أن يظهر دائماً فى الحفلات الساهرة ، والليالى الحمراء . . . وإن كان ذا مال وفير ، وجاه كبير ، ومنصب رفيع . . ! !

وأرادت الأم أن تحدث ابنتها لتتنازل عن بعض هذه الشروط ، وتوافق على الزواج من هذا الخطير المنصب ، الوفير المال ، ولكن الوالد أشار إليها بالكف عن ذلك ، وقال فى اقتناع :

— أنا لا أحب أن أكرهها على الزواج من شخص لا تحبه . . وأنا مطمئن إلى رأى ابنتى وحسن تدبيرها ، وسأحتفظ بهذا الخاطب حتى أرى نتيجة هذا الاختيار . .

● ● ●

وفرحت الشابة فرحاً غامراً ، وحمدت لوالدها هذه المكرمة ، وشكرت له هذه اليد ، وقامت من فورها إلى الصلاة ، داعية الله أن يوفقها إلى الزوج المستقيم ، الذى تنشده وتتمناه . . إلى الرجل بأوسع ما تحمل هذه الكلمة من معان ، لتشعر أنها امرأة تتمتع بأنوثتها ، وتطمئن إلى جانبه ، وتحتمى بحماه ، وليكون لها دون سواها . .

وكان سكون الليل ، وهدوء المكان يشعرانها بلذة العبادة ، وحلاوة التقوى ، ونور الإيمان ، يعمر به هذا القلب الطاهر النقى . الذى لم يدنسه عشق أثيم ولا علاقة سافلة من هذه العلاقات التى أصبحت عادة من عادات الشباب لا محيص عنها ولا حيدة . .

وأحست من نفسها بحاجة قوية إلى النزول فى هذه الساعة المتأخرة إلى حديقة القصر ، لتملأ رئتيها بالهواء الطلق ، ولترى آثار رحمة الله ، ودلائل قدرته وعظمته ، ولتتحدث إلى نفسها طويلا ، بين حفيف الأشجار ، وتناوح الأغصان ، وأنين الريح ، وخرير الأمواه . . ! !

ما أجمل الطبيعة وأروعها ، فى أى مظهر من مظاهرها ، وفصل من فصولها إنها تحمل معانى الإيمان ، وسر اليقين . . إنها الطريق إلى معرفة الله . .

ومضت تنتقل فى أرجاء الحديقة الرحبة الواسعة ، وهى تكاد تطير فرحا ونشاطا ، وتتحدث إلى نفسها فى صوت مسموع ، كله الفوضى والمراح . . مراح الأطفال وسذاجتهم ، وهى ابنة الثلاثين ، وكان لعدم رغبتها فى الزواج أكبر الأثر فى تأخرها إلى هذه السن ، ولعل ثقافتها وانكبابها على الدرس والتحصيل ، هو الذى صرفها عن التفكير فى الزواج . .

وفجأة خيل إليها أنها عثرت على هذا الزوج . . على الزوج المنشود . . الزوج الذى تريده وتهواه . . تتوفر فيه الشروط . . الاستقامة ، العفة ، الرجولة بمعنى الكلمة التى لا كذب فيها ولا ادعاء . . ! !

وتطور هذا الخيال إلى لون آخر طغى عليها وجرفها جرفا وجعلها تجلس على المقعد الخشبي الكبير تحت شجرة الصفصاف ، تفكر فى إمعان وقد هدأ الليل ، وسكنت كل نائمة ، ودقت الساعة الكبيرة النصف بعد الحادية عشرة . . ! !

وأحست برجفة خفيفة تسرى فى بدنها ، وسرعان ما تحولت إلى رعدة قوية تملكتها فى عنف وثورة ، وخيل إليها كأنما تسمع صوتا خافتا لا تسمعه بأذنها ، وإنما تشعر به بفؤادها وقلبها وعواطفها قائلا :

— هناك . . هناك . .

— أين ؟ .

— لا لا . . إن هذا غريب ، كيف ذلك ؟ . . إنه خبل ، إنه الجنون بعينه . . لا أريده مهما كان الأمر ، لا أريد أن أتزوج . .

وهدأت قليلا ، ولكن الصوت عاودها ثانية قائلا :

— هناك . . هناك . .

— كيف ذلك ؟ فى الأزهر . . ؟ إنه شىء مضحك . .

وغلبها الضحك ، فضحكت وقهقهت حتى استلقت على ظهرها ، ولامس قفاها ظهر المقعد ، فأحست ببرودته ، ورددت أرجاء الحديقة ضحكاتها ، وعندئذ سرت فى بدنها قشعريرة مبهمة . . كلها الخوف والوجل ، والرهبة والاضطراب ، يخالطه نوع من الدهش والسخرية . . ! !

وظلت هكذا حينا ، وهى لا تدرى معنى لهذا الخيال العجيب ، وبخاصة حينما تصورت زوجها شيخا معمما يرتدى الجبة والقفطان ، ويحمل فى يده سبحة يلقى بحباتها الواحدة بعد الأخرى فى انتظام ، محدثا بهذا صوتا موسيقيا منغما تألفه الأذن . .

تصورت زوجها على هذه الصورة فاشمأزت نفسها ، وندت منها ضحكة عالية ، تردد صداها فى الفضاء وخشيت أن يكون صوت هذه الضحكة الساخرة وصل إلى أذني والديها فتسوء العاقبة . وتنال حظها من التأديب العنيف . . ! !

ولم يطل بها الوقت بعد ذلك ، فسرعان ما تجمعت وانكمشت ولمت أطرافها ، ثم وثبت إلى داخل القصر ، وفى عينيها بريق مخيف ، وفى بدنها ثورة عاتية ، وكأنما هى المجرم العاتي يتحفز للوثوب على فعل منكر ، واجتراح موبقة . .

ولا يزال هذا الصوت الخافت يتردد صداه :

هناك . . هناك . . فى الأزهر تجدين الزوج المنشود . . ! !

● ● ●

كان منزل الـ ( بك ) الشركسى هادئاً وادعا ، وقد غمر حى الزمالك سكون شامل ، وشاعرية حالمة . . بيد أن شبحاً متشحاً بالسواد كان يسترق الخطى ويبالغ فى التسلل بهدوء من السور ، فى حيطة وحذر حتى أمكنه أن يتخلص من أشواكه ، ثم استقام فى الشارع القائم على جانبيه الأشجار الكثيفة ، فى رهبة ووحشة . .

كان هذا الشبح ابنة الـ ( بك ) استبد بها الخيال الطليق ، وثارت بها النفس العاصفة ، وطاف بها الأمل الشارد فى عوالم غريبـــة عجيبة ، ووجدت من نفسها الشجاعة والقوة ، لتغامر فى هــذا الليل مغامرة تدفع بها إلى الهلاك والدمار ، أو الفضيحة والعار ، ولـكنها فعلت ، واستجابت لهذا الخيال الشارد ، ولا تدرى كيف فعلت .. لقد اتجهت نحو الأزهر مسرعة الخطى ، لا تنى ولا تتعثر ، ولا تتئد ، وكأنما تسير فى طريق تقطعها كل يوم آلاف المرات ، دون أن تلوى على شىء . .

إن قلبها هو الذى يقودها ، ويضىء لها معالم الطريق أما قدماها فحركتهما آلية ، لا تكاد تراهما من شدة السرعة على الأرض ، فكأن هذه الشابة تطير فى الفضاء ، وتمشى فى الجوزاء . . ! !

● ● ●

— يا شيخ عوده . . يا شيخ عوده . . يا شيخ . .

— أوه . . آه يا أخى . .

— قم يا أخى أصح الله بدنك . . الساعة الآن الثانية عشرة تماما . . لقد نمت ثلاث ساعات . . قم . . هيا لتنصرف إلى حجرتك . .

— سمعاً وطاعة يا مولانا . .

وفرك الشيخ عوده عينيه بيديه وقال :

— أشهد ألا إله إلا الله ، وأن سيدنا محمداً رسول الله . .

وتثاءب فى مبالغة ، وتمطى فى بطء وارتياح ، وكأنما يشعر بلذة ومتعة فى هذا التمطى ، وفتح عينيه بعنف ومشقة ، وحملق فيمن حوله من الطلاب النائمين ، وقد ارتفع شخيرهم فى فوضى وهمجية . ! !

وأخرج ساعته من جيب قفطانه فى بطء وخمول ، فانتفض قائماً ، وكأنما لسعته عقرب شائلة ، وقال فى أسف وحزن :

— لقد تأخرت كثيراً فى النوم ، كنت أريد أن أذاكر درس الأصول . . ولكن هذه إرادة الله . . إنه نتيجة الإجهاد على كل حال . . سلام الله عليك . .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا مولانا ، مع سلامة الله . .

— الله يسلمك ، ويصلح حالك وحالنا . .

— آمين يا رب العالمين . .

وتأبط الشيخ عودة حافظة أوراقه ، وملازمه الصفراء ، وتناول حذاءه ، ولكنه وقف قليلا مفكراً ، وسرعان ما وضع هذا كله على الحصير ، وخلع عمامته وشمر أكمامه ، واتجه إلى الميضأة ليتوضأ ، لابد أن يصلى ركعتين قبل أن يغادر المسجد وليسير متوضئاً ، كما هى عادته على الدوام ! !

● ● ●

كان الجو ثائراً ، والريح تعصف بشدة ، ولا يكاد يسير فى شارع الأزهر إنسان ،

اللهم إلا ذلك الجندى الذى قدر عليه أن يظل مسهد الجفن هو وإخوانه الجنود ، يسيرون هنا وهناك ، لا تغمض لهم عين ، ولا تهدأ لهم حركة ، فهم يتفقدون أبواب المنازل والمحال التجارية من حين إلى حين ، ويرتفع صوتهم فى الفضاء كلما رأوا شخصاً قادما ، أو سمعوا حركة قريبـة أو بعيدة ، مستفهمين عن ذلك فى دقة ، خشية أن يكون وراءها لص ، أو مجرم شريد . .

وأربد الجو واكفهر ، منذراً بقرب المطر الغزير ، ولهذا فقد أسرع كل سائر ، ليتخذ من بيته ملجأ له وملاذاً يقيه شر المـاء . .

وبقيت الشابة متوارية خلف مكتب ترام الأزهر ، القائم فى ميدان الأزهر أمام ذلك الجامع العتيد ، وقد تابعت رجل البوليس بنظرها فهو كلما اقترب توارت فى الجهة التى لا يراها منها ، لتأمن وابلا من الأسئلة لا شك أنه سيمطرها به إذا رآها ، وسيكون موقفها حرجا وربما تسوء العاقبة ، ويقع ما لا تحب أن يكون . . ! !

وكانت أوصالها ترتجف بشدة ، وتهتز بعنف ، وبدنها يضطرب فى قسوة عاتية ، ولـكنها لم تعر هـذا كله اهتماما ، فهى لا تسير بعقلها الآن ، وإنمـا تتحرك بقلبها وشعورها المبهم ، الذى لم تفهم له معنى ، ولم تدر له سبباً . . إنه طيش الشباب ، وجنونه الذى لا يأبه بالأوضاع . .

كانت متجهة بكليتها نحو الأزهر العتيد الذى يشع نوره فى كل جهة . وينشر ضوءه فى كل ناحية ، ويأتى إليه طلابه ورواده من كل حدب وصوب ، للتزود من العلم والمعرفة . . وجالت بمخيلتى الذكريات السامية . . ذكريات هذا المعهد الجليل ، وما أخرج للأمة من عظماء وقادة ، وأعلام الرجال فى السياسة والاجتماع والأدب والدين . . .

وطال انتظارها . . انتظارها لمن ؟

لقد بدأ المطر ينزل رذاذاً ، وهنا فحسب رجع إليها عقلها ، وعلمت أنها اندفعت مع الخيال مجنونة مخبولة ، وسارت مع عواطفها وأحاسيسها بلا روية ولا تؤدة

أو أناة . . ما معنى أن تتحمل هذه المشقة الأليمة استجابة لصوت خيال طاف بفكرها ويهتف بها فى إلحاح :

— هناك . هناك فى الأزهر تجدين الزوج المنشود ؟ !

ما معنى هذا كله ؟ إنها تتهم نفسها الآن بالتهور والحمق ، والبله والخبل والجنون . .

إنه الشيطان دون ريب ، دلك الذى سخر منها وقادها إلى هذا المكان ، فى جنح الليل وسط هذه الرياح الهوج . . . إنه يريد أن يجعل منها ليلى ثانية مريضة فى الزمالك ، ومجنونها أزهرى مجهول . . ! !

وإذن فلتعد أدراجها ، قبل أن يعرف أحد أمرها ، ويفتضح سرها ، ويعلم من فى المنزل بتسللها من البيت . .

هكذا كانت تحدث نفسها فى ثورة وحيرة وارتباك ، وتنفست الصعداء من صدر كليم ، وودعت دلك المعهد العتيق الذى لم تره إلا للمرة الثالثة ، ولكنها عند انصرافها سمعت حركة خلفها ، ووقع أقدام مصطربة مسرعة ، وما كادت تلتفت حتى رأت شبحاً يخرج من الأزهر ، ويكاد يعدو فى الشارع الساكن الهادىء ، إلا من زمجرة الريح من حين إلى حين . .

إنه شيخ معمم ، يسير فى قوة بادية ، وفتوة ظاهرة ، ويندفع إلى وجهته اندفاع السهم لا يلوى على شىء . . . كان يتمتم بتعاويذ وتسابيح ، ويقرأ آيات من كتاب الله فى صوت متهدج ، كله الخشية والوقار ، والخوف من الله رب العالمين . .

لقد ارتجفت فى عنف ، وأحست بقلبها ينبض فى شدة وقسوة . وخيل إليها أنه وقف عن الحركة ، وسكن سكون الموت . . مادا ؟ أشبح رجل ؟ ! هل صدق الهاتف ؟ أيكون هذا زوجها ؟ . . لا بد أن تتوارى حتى يمر بها فتراه عن قرب ، لئلا تخدع فى أهم شىء فى حياتها ، ولا ينفعها الندم حينذاك . .

واتجهت إلى عمارة كبيرة من تلك العمائر الحديثة المنشأة فى شارع الأزهر ، ووقفت ببابها لتنظر هذا الشيخ عن قرب . . .

مر بها شاب أزهرى له ذلك المظهر العادى ، الذى تراه كثيراً ، ولا يلفت نظر أى إنسان . . يتأبط بعض الكتب ، ويسرع فى مشيته . . له قامة متوسطة ، وبدن نحيف ، ووجهه أبيض عليه وسامة التقوى والصلاح ، وكأنما يشع منه نور الإيمان.. وله عينان ناعستان فى ورع وعفة . يرتدى جبة ذات طوق ( كا كولة ) تكسو هذا البدن فى جلال ، وفوق رأسه عمامة كبيرة ساذجة . مكورة فى بساطة . بلا تصنع أو تكلف . .

• • •

هذا هو صاحبنا الشيخ عودة ، الطالب الأزهرى ، الذى تعجبك منه روح دينية صادقة ، وإخلاص إسلامى رفيع . . إخلاص المؤمن بالله المعتصم بدينه وقوة إيمانه ، لا يهاب أحداً ، ولا يخاف من إنسان ، لأنه لا يعرف الإيذاء ، ولا يدين بشرائع الناس ، من طمع وحسد ، .

ولا شك أن منظره وهو يهرول متجهاً إلى حجرته قرب ميدان (العتبة الخضراء) يدعو إلى الخوف والرهبة . . وكان هو يعلم ذلك من نفسه ، فهو يسير كالريح الخاطف وكأنما فى رجليه شياطين الأرض جميعاً ، ولهذا كان يبطىء كلما مر به شخص ، أو مر هو بشخص ، فإذا بعد عنه واصل سيره كما كان ، لئلا يخيفه وهو مسرع إلى هذا الحد ، حرصاً على الوقت الذى يعرف قيمته ، ولا يضيع منه لحظة واحدة بغير فائدة . .

ولشد ما كانت دهشته عندما وجد فتاة فى الطريق فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، ولكنة أحسن الظن بها . . . لقد كان يراها من بعيد ، وعجب لها كيف تتوارى بباب تلك العمارة ، مما لفت نظره إليها وتعمد أن يقترب منها ، فربما كانت فى حاجة إلى مساعدة أو عون . .

وأحس بخجل كبير حينما رآها تطيل النطر إليه فى سذاجة غريبة ، جعلته يرتبك ويضطرب ، ويتعثر فى مشيته ، وتسقط حافظة كتبه من تحت إبطه ، فتتناثر الأوراق الصفراء . . وانحنى يجمع ملازمه الصفر ، ولم أطراف شجاعته ، ومضى مبلبل الخاطر مضطرباً إلى حد كبير . .

ولم يبعد خطوات حتى كانت هذه الفتاة فى إثره ، جادة فى السير حتى لحقت به ، فنادته فى شجاعة وقوة :

— من فضلك يا أستاذ . .

ووقف فى ارتباك ، وقال وهو متخادل القوى :

— نعم . .

كانت هذه الكلمة التى لم يزد عليها حرفا واحداً ، كافيه لأن تصدق فراسة الفتاة فيه . . فارتجفت هى الأخرى ، وتلعثمت ، وصمتت . ! !

ومضت دقائق . . ظل فيها الشيخ واقفاً يرتجف بدنه من شدة البرد ، والفتاة أمامه لا تعرف ماذا تقول . . وسرعان ما حلت السماء هـذه العقدة القوية ، فهطل المطر غزيراً ، وفاضت دموع السماء . . ! !

وهرع الشاب والشابة كلاهما إلى أقرب بيت ، واختبأ تحت شرفته ، وهنا قال الشيخ :

— أين تقصدين ؟

— إلى دارنا . . فى الزمالك . .

— يا لله ! هذا كثير . . المسافة بعيدة . . ولـكن هيامى فربما نجد سيارة توصلك إلى الدار . . هيا لننتهز هذه الفرصة ، فالمطر يهادننا . . هذا من فضل الله علينا ، ولطفه بنا . . هيا . .

ورفع الشاب ذيل جبتـه وقفطانه بعدما جمعهما فى قرن ، ولفهما فى عناية ، وسار نشيطاً أمام الشابة ، التى كانت تفكر ، وتفكر فى عنف فى هذه الشخصية الغريبة ، وهذه التقوى ، التى أبت عليـه أن يسير خلفها ، وسار أمامها لتدله على الطريق ، وبينهما خطوات . . ! !

يا لله ! كان فى مكنته أن يغازلها كما يفعل آلاف الشبان كل يوم ، حتى أصبحت هذه الصورة المـكرورة بغيضة إلى نفس كل فتاة عندها أقل نصيب من الحياء ،

وأدنى حظ من العفـة . . وإن الفرصة لسانحة ، فلا أحد هناك يعترض الطريق ، ويمنعه ما يريد . . إنه لم يرفع بصره إليها إلا بقدر ما يرد على استفهامها ، ويجيب على سؤالها . كانت نظراته إليها نظرات رجل يريد أن يحافظ على أمانة يموت فى سبيل رعايتها ، وصيانتها ، ويحرص على أدائها كما هى . . كانت مبلبلة الخاطر مضطربة الأحاسيس ، مرتبكة حائرة ، ولـكنها لم تجد مناطاً من السير صامتة . فلقد بعدت المسافة بينهما ، ولم يحاول أن يلتفت إليها ، فكان عليها أن تجد فى السير وتسرع حتى تلحق به .

لقد كان لسيرها صوت مسموع ، فهذا الحذاء له توقيع خاص ، جعل الشيخ يطمئن إلى أنها لا تزال تسير خلفه ، وما دام يسمع صوت حذائها فهو آمن عليها من مخاطر الطريق . . ! !

وأعلن المطر الحرب ثانية ، ولـكن فى غير هوادة أولين ، بل فى قوة وعنف ، اضطر صاحبنا إلى التوقف ريثما تلحق به الفتاة . واضطرها إلى الإسراع لتجـد لها مخرجا من المأزق الحرج . .

وفاجأته بقولها فى حزم وقوة :

— أين تسكن يا أستاذ ؟

— على بعد أمتار . . هنا فى هذا البيت . .

— إلى بيتك إذن . .

ووقف مضطرباً خجلان . . إن مسكنه قذر لا يصح بحال من الأحوال أن تراه هذه الفتاة ، التى لا تعرف غير سكنى القصور الفخمة ، والدور العظيمة . . يجب أن يرفض هذا الطلب ، ويتجه معها إلى شرفة أحد المنازل حتى يهـدأ المطر .. ثم هناك ما هو أدهى وأمر . . إذ كيف يدخل الحجرة ومعه فتاة أجنبية عنه ، لا صلة بينه وبينها ؟ . . وماذا يقول عنه الناس حينما يرونها معه ؟ . . لا لا . . هذا كثير . . إنه لن يندفع فى تيار لا يدرى له غاية ، ولا يفهم له معنى . . وكأنما فهمت ما يجول بخاطره ، فقالت له على الفور فى لباقة وبعد نظر :

-- لا توجل . . أنا أختك أو قريبتك . . قل أى شىء . . أودع الناس يقولون ما يريدون . . هيا . . أسرع لئلا يضرنا المطر . .

واندفع صاحبنا إلى حارة ضيقة متفرعة من شارع الأزهر ، وهى فى أثره ، وقد بللها المطر ، فلصقت ثيابها ببدنها ، وأخذت ترتجف وترتعد ! وبحكم الغريزة تحسست حقيبتها فاطمأنت ، وشملها نوع من الهدوء ، والارتياح . . لقد وجدت بها ( المسدس ) السريع الطلقات ، ومن يدرى ، فقد تحتاج إليه . . ! !

● ● ●

بيت متواضع مكون من أربعة طوابق ، رابعهما مهدم غير مسكون ، وفى فناء الطابق الأول من هذا البيت الرحيب الواسع ، دلف الشاب الأزهرى مضطرب الخطا ، مرتجف البدن ، مرتعد الفرائص ، تتبعه هذه الفتاة المغامرة فى خطوات ثابتة حتى وصلا إلى حجرة رهيبة معتمة . .

وأدار المفتاح فى القفل ، ودفع الباب فانفتح ، ثم تقدم إلى مصباح قذر فأوقده ، وراح هذا المصباح يبعث فى جوف الحجرة شعاعا ذاهلا دابلا ، يتراقص تبعاً لنغمات الهواء ، الذى جعل الباب ينتفض هو الآخر ويضطرب فى عنف وقسوة ، كادت تحطمه ، وتوقظ من فى البيت من مخلوقات الله ، الذين لا يجدون أرزاقهم إلا بعد طول عراك وصراع ، ولا ينالون بعد هذا إلا الرزق الكفاف . .

وجالت الفتاة ببصرها فى الحجرة . . لا شىء . . الفقر المدقع . . والحاجة الملحة إلى نور الحياة الناعمة ، التى يهنأ بها آلاف من الآدميين الذين ليس لهم من الإنسان غير صورته ، أما عواطفه الشريفة ، وأحاسيسه النبيلة ، ومشاعره البريئة الطاهرة ، فليس لهم من هذا كله شىء . .

وكاد قلبها ينخلع عطفاً ورثاء وإشفاقا على هذا الفتى ، الذى يعيش فى هذه الغرفة ، ويقضى زهرة عمره ، بين هذه الأنقاض ، فى ذلك القبر الموحش الرهيب . . يالله ؟

أهذه حجرة ؟ ! إنها قبر موحش، لاينيره سوى هذه النافذة المرتفعة الصغيرة التى لاتطل على شارع ، بل تطل على فناء الدار . . ثم ماذا ؟ ثم هـذا سرير من الحديد الأسود اللون ، الرخيص الثمن ، عليه حشية قديمة بالية ، ولحاف قاتم اللون لكثرة ما تراكم عليه من الأوساخ ، يأنف أن ينام عليه خادم وضيع . . وفى وسط الحجرة منضدة من الخشب الأبيض ، عليها كتب مبعثرة فى فوضى وإهمال، وعليها مصباح قد تراكم عليه التراب ، وتكاثف على زجاجته الدخان . . وبجانب المنضدة إبريق من الفخار ، به ماء قد رشح بعضه ، فساح فى أرض الغرفة ، فجرى فيها أنهاراً وجـداول مختلفة الاتجاهات ، وإن كانت متحدة المنبع . .

وبالجدار مشجب عليه بعض الملابس الممزقة الرثة ، بينها عباءة من الصوف البلدى الأسود ، وفى ركن من الغرفة حصير جديد لايزيد ثمنه على عشرة قروش ، وبجانبه حذاء لا تعرف له لونا . .

هذا كل ما رأته فى الغرفة بسرعة ، بيد أن فكرها كان يعتمل فيه الرأى ويضطرب فى ثورة عاصفة ، لايقر لها قرار . . وكان الشاب فى هذه الأثناء يعد السرير وينظمه ، وما كاد يتم هذه المهمة حتى قال فى صوت كله الاعتذار والخجل :

تفضلى ياآنسة . . أيرضيك هذا المكان تجدين فيه شيئا من الراحة حتى يطلع النهار . . ! !

— أجل دون ريب . .

— أرجو أن تطمئنى ، وأتمنى لك ليلة هادئة . .

وأخذ الحصير ، وتناول العباءة من فوق المشجب وخرج . .

أغلق الباب ، بعد ما ترك لها المفتاح ، لتغلقه من الداخل لتزيد طمأنينة وأمنا . .

وفى فناء الدار ، فى ذلك المكان الموحش الرطب ، الذى ينبعث من جوانبه روائح منتنة كريهة ، تزكم الأنوف ، وتفسد أغشيتها ، فرش الحصير على الأرض بجـوار باب الغرفة ، وجعل من جبته مخدة ، والتحف عباءته ونام . .

ولكن ، هل عانق جفنيه الـكرى ؟ !

لا ، لقـد هاجمته الوساوس قوية عنيفة ، والنزغات جارفة مدوية ، تعصف بهذا الرأس حتى كادت تحرقه . .

لم يعرف للنوم طعما ، فظل مسهدا ، مبلبل الخاطر ، مشترك اللب ، وكان عجبه شديداً حينما لم تغلق هذه الفتاة الباب عليها من الداخل بالمفتاح ، كما طلب منها ذلك ، بل تركته مواربا كما تركه هو . . ! !

يا لله ، أيقوم ينبهها إلى هذا ، أو يغلقه هو بنفسه من الخارج ؟ ! ولكنه صمت حينما سمع صوت تنفسها ، مما يدل على أنها نامت كما هى بثيابها المبللة ، وراحت فى نوم عميق . . لا بد أنها مرهقة متعبة ، وإلا فكيف يهدأ لها خاطر ، ويغمض لها جفن ، وهى فى بيت شخص لا تعرفه ولا تعلم عنه شيئا قبل هذا أبداً ؟ ! . .

إذن فلينم هو الآخر ، ولا داعى لهذه الأحاسيس الدنيئة ، التى لا تليق به كرجل من رجال الدين ، يعرف الحلال والحرام ، ويعلم أن التفكير فى هذه الناحية جريمة لا تغتفر . . أجل إنه يلتمس المعاذير ليرضى شعوراً باطنيا فى نفسه يعلمه الله تمام العلم ، وهو إن غالط نفسه ، فلن يخفى هذا على الله العالم بخفايا النفوس ، وبواطن الأمور . .

بيد أن النوم لم يكن فى طاقته ، فقذف بالعباءة بعيداً ، وجلس مشوش الفكر والمنظر ، مخيف الهيئة والشكل . . وتحسس جيب قفطانه وأخرج منه دخينة وعلبة ثقاب ، وأشعل الدخينة فى بطء وتفكير . .

وتوارى دينه وعقله وضميره ليروا ماذا سيصنع الإنسان الأول . . ماذا ستصنع الشهوة والغريزة التى استبدت به استبداداً ، فجعل يحدث نفسه فى صوت مسموع . ولعل هذا راجع لانفعاله ، واعتقاده أنها نائمة ، سابحة فى عالم الرؤى والأحلام :

— ذلك لعمرى عين الجنون . . إنى أكاد أجن ، إن روحى ستزهق عما قريب . . ماذا أرى ؟ أأنا فى يقظة أم فى منام ؟ ! إننى فى حلم دون ريب . . إن كل ما وقع لى بعد خروجى من الأزهر حلم دون ريب . . وفرك عينيه فإذا به يرى ما حوله على حاله ، لم يتغير منه شىء . .

وقرص فخذه فى عنف ، فإذا به يتأوه ويقول :

— إننى فى يقظة لا جرم فكيف يحدث هذا ؟ . . فتاة لها مثل هذا الجمال البارع تتلقانى وتسير معى ، وتحادثنى مع ما يبدو عليها من آثار النعمة ، ودلائل العظمة والنعيم ، وطيب المحتد ! ! إنها لفرصة سعيدة حقا . . يالله ، إنها على قيد خطوات منى الآن . . أنا المحروم من متاع الدنيا ، ونعيم الحياة . . وتنام على فراشى . . إنى أشفق عليها كل الشفقة ، ولا أدرى كيف نامت على هذا الفراش الذى تسبح فيه الحشرات ، ويرتع فيه البق والقمل والبراغيث . . ؟ !

ألا يمكن أن أسلبها ولو قبلة واحدة وهى نائمة ، لأرى كيف يتمتع الناس بالحياة ، وأتذوق هذه اللذة التى أسمع عنها ، ولا أعرف عنها شيئاً ؟ ! ما المانع ؟ إنى أريد أن أكون على علم بشىء من هذا . .

ووضع يده على الباب ليفتحه قائلا :

— أجل لا مانع . . لا مانع . .

وسرعان ما أسرع إليه الدين والضمير والعقل . . فاختلجت شفتاه ، واضطرب جسمه ، وماتت الكلمات فى حلقه ، وقال في عزم :

— لا . . لا . . إن النعيم نعيم الآخرة . . صبراً أيتها النفس صبراً . .

وكان السيجار الخامس لا يزال فى يده مشتعلا ، متوهجا . فلسع به يده اليسرى التي امتدت إلى الباب ، وتوالت اللسعات حتى كانت السابعة طويلة حادة ، هرأت لحمه ووصلت إلى العظم ، فتأوه فى عنف ، وسقط على الأرض مغشيا عليه . .

• • •

وهنا قفزت الفتاة من فوق السرير الحديدى كالغزال الشارد ، وفتحت الباب ، وانكبت على الشيخ عودة تتسمع نبضه ، ورفعت رأسها باسمة الثغر ، متهللة الأسارير قائلة فى ابتهال :

— الحمد لله إن قلبه لا يزال ينبض . . إنه حى . . إذن فلأدعه كما هو على حاله حتى يفيق ، وأعتقد أن إغماءه لن يطول ، ولأذهب الآن من هنا فى ستر الله ، قبل أن يفتضح أمرى . .

وتناولت حقيبة يدها . وخرجت وجلة مضطربة تتحسس طريقها فى ذلك البيت المظلم ، وأخشى ما تخشاه أن تلمحها عين من عيون الفضوليين فلا يكون من وراء ذلك إلا الشر ، ولكن الله سلم ، إذ اهتدت إلى طريقها بين هذه الانحناءات الكثيرة المتعددة . .

وخرجت إلى الطريق العام ، فإذا بالضوء يغمر الشارع الرحب ، وابتدأ الناس يخرجون من دورهم متدثرين يخشون قسوة البرد ، وسطوة الزمهرير ، ولكنها لم تشعر بنشاطها فى يوم من الأيام كما شعرت به الآن . . لقد كانت كتلة متحركة من الفرح الغامر ، والمرح الحبيب ، وكأنما وهبها الله كل ما خلقه وأودعه قلوب الناس وأجسامهم من نشاط وحيوية وإقدام . .

وشعرت بلسعة خفيفة فى ساقها ، فانحنت لتنظر مبعثها ، فإذا بها تجد ( بقة ) كبيرة كمنت فى ذلك المخبأ الأمين بين الجورب والساق ، وانتبهت إلى نفسها ، فإذا بعض البراغيث تتواثب فوق معطفها وتقفز هنا وهناك . .

ونالها شىء من الوجوم والخوف ، وبخاصة حينما لمحت قملة تسير فى بطء ودلال فوق كمها ، فأسرعت إلى البيت لا تلوى على شىء ، لتجرى أولا وقبل كل شىء عملية التنظيف الكلى ، والتعقيم والتطهير . . ! !

وشعرت وهى فى الترام الذى أخذ يطوى الأرض طياً ولا يكاد يحمل أحداً سوى هذه الفتاة المبكرة . . أنها أسعد الناس ، وأجدرهم بالحياة ، وأولاهم بالتقدير ، وأن ما هى فيه الآن من النعمة لا يمكن أن يعبر عنه لسان ، أو يصفه إنسان ، على الرغم مما لاقت من عناء جسمى ، وإرهاق بدنى ، ارتفعت به الروح المغامرة إلى أسمى مكان ، وأرفع منزلة . . ! !

• • •

وأمكنها أن تدخل البيت من حيث خرجت دون أن يشعر بها أحد ، أو يعلم بخروجها إنسان ، واتجهت إلى الحمام فوراً ، وخلعت معطفها ، وراحت تفتش فيه عن هذه الحشرات الصغيرة التى تفتك بالناس ، وسرعان ما انتهت من هذه العملية ، ونظرت فى جميع ثيابها ، ثم توضأت وراحت تصلى الصبح .

وارتمت على فراشها الوثير بعد ماأضاءت المصباح البنفسجى الحالم ، فى هذه الغرفة المغلقة الأبواب والنوافذ ، والتى يفوح منها العطر الجميل ، وسرعان ماسبحت مع الأشعة الحالمة فى عالم من التفكير والتعليل والتحليل . .

أخذت تقارن بين هـذه الحياة التى تحياها ، وبين حياة ذلك الشاب الأزهرى المسكين ، الذى تركته مغشياً عليه .. ماذا سيكون شعوره حينما يفيق من غشيته ، ويكتشف خروجها ؟ ! إنه سيرتبك دون ريب ويضطرب ، ويظن بها الظنون . . هل يظن أنها لصة من اللواتى يبغين سلب الناس أعز ما يملكون ، وأغلى ما عندهم من أموال ؟ ! ولكنه يعلم تمام العلم أن أحداً من الناس لايطمع فيه ، ولا يفكر أن يدخل إلى غرفته ، لأنه لن يحظى فيها بكثير ولا بقليل . !

يا له من شاب بائس ، ولكنه غنى النفس ، سامى الهمة ، ذو عقيدة قوية وإيمان بالله كبير .. لقد سمعت كل شىء ، ورأت كل شىء ، حتى هواجس نفسه ، وأحاسيسه وعواطفه التى لم تعبر عنها الألفاظ والحروف ، والجمل والعبارات ، إنها تصنعت النوم ويدها على مسدسها ، ولكنها لم تنم ، لقد اتضح لها الفرق بين هذه النفسية العجيبة وبين نفسيات أولئك الذين يعيشون فى بهيمية مطلقة ، يرضون الغرائز التى لاحد لها ويشبعون الشهوات التى لاتقف مطامعها عند غاية ، ولا تنتهى إلى نهاية ، ممن يلحون على والدها ، طالبين الزواج منها ، والبناء بها . .

شتان بين النور والظلمة ، بين الصفاء والكدرة ، صفاء النفس المجاهدة التى يدخل فى حسابها الخوف من الله ، والخشية منه ، والتى تقاوم إبليس وتجاهده ، وتستعر الحرب بينه وبينها ، ثم تكون هى الغالبة فى النهاية ، والمنتصرة على طول الخط

وامتداد الطريق .. وكدرة النفس المظلمة المرتكسة دائماً فى الشهوة ، والتى ألقت زمامها لإبليس فلا تكاد تفترق عنه أو عن جنوده ، بل أصبحت هى من أشد أعوانه خطراً على الخلق والدين ، وإضراراً بالناس ، وإيذاء للمسلمين .. بالله .. لقد اتخذ هؤلاء من المال عوناً على الضلال والفساد ، وكأنما لم يخلق هذا المال إلا ليذلل لهم مشاق الطريق ، ومتاعب السبل ، وليكونوا من اللذادات على مقربة دائما ، حتى ترهلت أبدانهم ، وانتفخت أوداجهم عظمة كاذبة ، ورياء وخداعاً ، وحسبوا أنهم على شيء ، ولو كشف لهم عن حقيقتهم الواقعة ، لعلموا أنهم على الضلال والبهتان ، والفساد والزور .!!

الفرق بين هذا الطالب و بين هؤلاء ، هو الفرق بين النور والظلمات أو بين المادة والروح ، وإنه لفرق كبير .؟!

وراحت تسائل نفسها فى إلحاح عاصف ملحف :

— ترى ! لماذا يشقى هذا الطالب المسكين ، الذى وهب نفسه للعلم والمعرفة ، حتى أضنى بدنه ، وأرهق جسمه ، وتحمل فى هذه السبيل مالا يكاد يحتمله إنسان ، فهو يحتسى كؤوس الشقاء ، ويتلظى بنار الحرمان ، والفقر ، والألم والضنا ، بينما ينعم أوغاد كثيرون بالحياة الناعمة ، والعيش الرغيد ، ممن ليس لهم قلب ولا دين ، ولا خلق ولا ضمير ؟!.. هؤلاء الذين يعيشون عالة على المجتمع ، يطعمهم ويسقيهم ويكسوهم أنخر الثياب ، ثم لايستفيد منهم بشيء ، لأنهم أنانيون لاحظ لهم فى الحياة إلا ملء البطون والجيوب ؟! لماذا لاينعم هذا المسكين الذى يطلب العلم لهداية الناس ، والمعرفة ليخبر أحوالهم ويفقههم فى أمور دينهم ، ويصل بهم إلى الله القادر من أقرب طريق ، وأيسر سبيل ، ويفنى فى سبيل ذلك فناء لايعرفه إلا كل مجاهد فى هذه الحياة ؟!

أمن الضرورى أن يكون طالب العلم فى الأزهر على هـذا الوضع ، يقاسى من شظف العيش وقسوة الحياة مايهرأ البدن ، ويضنى العقل ؟! أمن لوازم العلم الفقر والحاجة ، والمسكنة والمسغبة ، وحياة البؤس يتلظى فيها طلاب العلم والمعرفة ؟!

أمن لوازم العلم ذلك المظهر الجاف الخشن ، والمسكن القذر الميت الذى لايصلح أن يكون حظيرة للسائمة والأغنام ؟!

أم أن الجناية الحقيقية هوانتساب الطالب إلى الأزهر وارتداؤه هذا الزى الوقور وأن كل معمم لا حق له أن يحيا كما يحيا الناس ، ولا أن يتمتع بالبهجة والسرور ، والضوء والنور ؟؟..

إنه لظلم وأى ظلم ! ذلك الوضع المشين الذى يرضاه الناس ويسيرون عليه منهجاً وينسجون عليه منوالا . .

إنها رأت الليلة ما كانت تظنه خيالا من الخيالات التى لا يمكن تحققها فى هذه الحياة الصاخبة والمعترك الدامى الدائم النضال . . رأت كيف تجاهد النفس ، وكيف يقهر الشيطان ، بعد أن كانت ترى دائماً فيما حولها ، كيف ترتفع كلمة الشيطان ، ويخفت صوت الحق ، ولا ترتفع له نغمة ، أو يعرف له رأى !! ..

وطرق الباب . . فاستيقظت من أحلامها وخيالاتها وأفكارها المتدفقة فى غزارة وقوة . .

• • •

— صباح الخير يابنيتى الحبيبة . .

— صباح الخير والنور .

— مالك هكذا ، كأنما تعانين ثورة فكرية مضطربة ! .

— كلا .. لاشىء ..

— وكيف ! وأنت مقروحة العين ، شاردة اللب ؟ !

— أنا ؟ !

— أجل أنت ، أليست هذه دموعك قد بللت خديك ؟! .

وتحسست الفتاة خديها ، فإذا والدتها قد صدقتها الحديث ، وإذا بها من شدة تأثرها قد فاضت مدامعها دون أن تدرى ، فصمتت وحارت فى أمرها ولم تعرف بماذا تجيب ، فأردفت أمها :

— ثم أليس هذا شعرك قد اختل نظامه وتنسيقه فى فوضى واضطراب، وكأنما كنت تجذبينه فى عنف ، وتشدينه فى ثورة وقسوة ؟ . . فكيف تقولين بعد هذا كله : لا شىء ؟ . .

ودخل الوالد ، فأنقذ الموقف ، وشعرت الفتاة بالهدوء والارتياح ، لأنه قطع على والدتها سيل الأسئلة المتتابعة . . وهنا اعتدلت بسرعة ونزلت فى هدوء ، وقبلت يده فى احترام ، فقبل جبينها فى حنان بالغ ، وعطف كبير . .

ورأت الأم ذلك ، فرقص قلبها فرحا ، وكأنما أنساها هذا الموقف ماتعانيه ابنتها من ألم ، وتكابده من حزن . .

وربت الوالد على كتف ابنته وقال وهو يرفع ذقنها إلى أعلا ، ويحدق في عينها مبتسما مستفهما :

— لست فى حالة طبيعية يابنيتى . .

ونظر إلى زوجته وقال :

— أليس كذلك ؟ !

ولم تجب الوالدة ، بل أطرقت إلى الأرض ، لأنه فى الواقع لاينتظر منها جوابا على سؤاله . . ثم خاطب ابنته مؤكدا :

— إنك تقاسين ألما ، فما هو ؟

— معاذ الله أن أكتمكما شيئا أعانيه . .

— إذن فما رأيك فى موضوع زواجك ؟ إن الدكتور ينتظر الرأى الأخير ، ولا داعى لأن نتركه هكذا يتقلب على أكف من الشك والحيرة والانتظار . . فهل أنت لا تزالين مصممة على اختيار زوجك ؟ فقالت فى لهفة :

— أجل وقد اخترته . .

وكانت حيرة ، وكان اضطراب وارتباك . .

وارتفع صوت الوالدين معا :

— ومن هو ؟

— طالب أزهرى ! !

— أزهرى . . أزهرى . .

— أجل . .

— ومتى وقع الاختيار ؟ !

— بالأمس . .

وفغرت الوالدة فاها ، بينما استرخى الوالد فى جلسته ، وأرهف أذنيه ، وراح يستمع إلى ابنته ، وقد اندفعت تتحدث عن كل ما حدث لها بالأمس . .

● ● ●

وبعد ثلاثة أيام شاهد أهل الزمالك شابا معمما أنيقا ، مضمد اليد اليسرى ، يتردد على منزل اا ( بك ) الشركسى ، فى غير كلفة ، وكأنه فرد من أفراد الأسرة التى تتكون من ثلاثة أشخاص والد ووالدة وابنة . . وتساءلوا فى فضول :

— ما معنى ذلك ؟ !

وسرعان ما انتشر الخبر وذاع الأمر وأقيمت مراسيم الزواج .

# التصحيح..!!

أخذ معهد ( ؟ ) الدينى ، يستعد لأعمال التصحيح ، بعدما انتهت أعمال الامتحان بنوعيه ، الشفوى والتحريرى ، لعام ( ؟ ١٩٢ ) وسرعان ما انتهت هذه الاجراءات التى تحاط فى المعاهد الدينية ، بلون من ألوان العناية والدقة عجيب ! !

● ● ●

دخل الشيخ عبد الباسط غرفة التصحيح ، وهو واجف القلب مضطرب الفؤاد لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف والفزع وكأنما هو تلميذ حائر مضطرب لا يكاد يفهم شيئا مما يلقى إليه ويطلب منه الإجابة عليه . . .

إنه يعمل ألف حساب وحساب لهذه الأوراق التى حدثه عنها الشيخ المراقب وأراه كيف يجرى عملية التصحيح فى عدد من الأوراق حتى يأتى زميله الذى تغيب معتذرا بمرض مفاجىء . .

كان يستمع إلى حديث المراقب ، داهلا حائرا ولكنه يذكر أنه كان يقول له :

— قراءة النموذج . . تجزئة السؤال . . إعطاءالدرجة على كل جزء صحيح . . ضع خطاً تحت الغلط الإملائي واللغوى والنحوى . . الخ الخ . .

ما هذا ؟ إنه خلط وجهل مركب . . وما كان أغناه عن هذا التعب الذى أكره عليه إكراها أو بالحرى سيكره عليه دون ذنب جناه . . إنه كان دائما يعتذر عن الامتحان التحريرى ؛ مراقبته وتصحيح أوراقه . . وكان يكتفى بالامتحانات الشفوية فحسب . . أما وقد أكره ولم يقبل اعتذاره فسيستعين بالله ويصحح . . ومن العجيب أن يتخلف زميله الذى كان مفروضا أن يصحح معه ؛ وهو الذى مرن على هذهالأعمال وطال مراسه لها . . إنه لسيء الحظ حقاً . . فليخضع لقضاء الله وإرادته . .

وكان حضوره إلى المعهد مبكرا جدا ؛ ولم يكن بالحجرة أحد وكان الفراشون

يقومون بعملية الكنس والتنظيف . وكانت دهشتهم بالغة من هذا الشيخ الذى حضر قبل موعد التصحيح بساعتين ! !

ولم يسلم من تندرهم . ولاذع نكاتهم ولكنه لفرط خوفه وتفكيره فى التصحيح لم يفهم شيئا من عباراتهم التى كانوا يتبادلونها أثناء تأدية عملهم . وخيل إليه وقد كربه الأمر ؛ أنها همهمة مبهمة يلفظ بها جنى مجهول . . ! !

● ● ●

ومضت الساعتان كأنهما عامان كاملان . . .

ثم تقاطر أصحاب الفضيلة فى لغط وضجيج ، وأخذ كل منهم مكانه المعد خصيصاً له ، ثم وزعت عليهم أوراق الإجابة ، وراح كل منهم يعمل فيها قلمه الأحمر . . ويعطى الدرجة على حسب تقديره ، فى حيطة وحذر ، خشية لجنة المراجعة الفنية ، التى تبحث هذا التقدير فى دقة بالغة ، وتزنه وزناعجيباً ، أشبه ما يكون بوزن الذهب .

وانعقد فى الجو دخان السجائر ، وتطايرت ذرات النشوق ، وارتفع صوت النقر على أحقاق النشوق ، واختلط صوت العطس بأصوات التشميت ، ورشف القهوة والشاى ، وأصوات القارئين لبعض الأوراق . . ! !

● ● ●

وأطال الشيخ عبد الباسط النظر إلى الأوراق التى أمامه ، فى غيظ ونقمة وكراهية ، وحيرة وارتباك ، ثم أخرج قلمه الأحمر ، وأخذ ورقة ، وبدأ يقرأ . .

يا لله : إنه لم يفهم شيئاً . . ولم يعرف كيف يقرأ هذا الخط العجيب . . إنه لم يمرن على قراءة هذه الخطوط السريعة ، والأساليب التى تختلف إلى حد كبير عن أساليبهم فى الأزهر القديم . . وإن نظره لا يساعده على الحملقة فى هذه الورقة ، أو غيرها على السواء . .

ماذا يفعل ؟ لقد كان يتمنى أن يكون معه زميل يقرأ له ، ويكتفى هو بالحكم ، أو بمعنى أوضح يتابعه فى الحكم الذى يريد . .

يا للحيرة ! إنها أوراق علم النحو ، وهو يتطلب دقة بالغة ، فى القواعد والتطبيق الذى لا يحبه ولا يوافق عليه . . لم يكن يطبق على القواعد أيام كان يدرس ، وإنما كان يكتفى بدراسة القواعد فحسب ، ومناقشتها فى دقة وحرص ، وإيراد الاعتراضات التى لا تكاد تنتهى ، والإجابة على هذه الاعتراضات ، وكأنها ثورة صاخبة بين الشروح والحواشى . . ! !

إنه لا يكاد يفهم معنى لهذه الأمثلة الحديثة ، التى افتن فيها الطلاب ، وبرع فيها المتحرجون من شباب المدرسين . . لقد طغا علم الأدب والإنشاء على النحو والصرف والفقه كذلك . . بل والتفسير والحديث والتوحيد ، فعرضت مسائل هذه العلوم فى صورة إنشائية لا ترضيه ، ولا يوافق عليها بحال من الأحوال . . فكيف بالله يصححها ويعطى عليها درجة ؟ . . إنه لسيء الحظ ، فاسد التقدير ، فليصبر على هذا البلاء الأليم . فلعل الله أن يفرج الكرب ، ويكشف الخطب . ولو بنار تلتهم هذه الأوراق التى أمامه . .

يا لله . . لقد كانت الكلمات مضطربة حائرة أمام عينيه ، ولم تجده الأناة والتؤدة شيئاً فى الوصول إلى فهم هذه الطلاسم ، وحل هذه الرموز . . وخيل إليه أنها عقد وألغاز مبهمة لشيطان قاس ، وجنى بعيض عنيد . .

ووضع الورقة أمامه فى يأس قاتل ، وظل يطيل النظر إليها ، وأخذ قلبه يئز أزيزاً وكأنه القدر توقد تحته النيران ، وتتابعت ضرباته فى عصبية مخبولة ، وثورة مجنونة ، فراح يقرأ بعض آيات من القرآن الكريم ، عسى الله أن يفتح عليه ، وتهدأ أعصاب هذه الكلمات التى يراها غير مستقرة على حال . .

واعتقد أنها أقوى من الشيطان ثورة ، وأكثر جموحا ، وأبعد إيذاء وعناداً ، وأنه لو كان يقرأ ما قرأ على أشد المردة جبروتا للان جانبه ، وأصبح طوع أمره ، ورهن إشارته . .

• • •

وتطلع يمنة ويسرة ، فإذا به يجد إخوانه المدرسين مقبلين على العمل فى سرعة ونشاط ، وقد بدا على كل منهم المرح والحبور ، وكأنما يزاول عملا حبيباً إلى نفسه ، قريباً إلى فؤاده . .

وعجب لهؤلاء كيف يقرءون هذه الطلاسم ، ويحلون هذه الألغاز . . وأدركه الشك ، فظن أن المراقب أراد به شراً ، ليوقفه موقفاً حرجا ، وأنه جمع له هذه الأوراق قصداً وإصراراً على إضراره والإيقاع به ، وأنه لا توجد الآن ورقة تشبه هذه الأوراق التى أمامه ، لأن نصيبه حثالة هذه الأوراق . . ! !

واستبد به ذلك الشعور ، وكاد يسلب نور عينيه فلا يبصر شيئاً ، وأظلم الجو أمام ناظريه ، وضاقت الدنيا فى وجهه ، وكاد يخرج ثائراً ناقماً ، ويرفض عملية التصحيح ، وليفعل به الرؤساء فى الأزهر ما يشاءون . . ! !

وتحسس جيبه ، فإذا به يجد المنظار المكبر ، فطرب وفرح ، وكاد يهتف من شدة الفرح بكل من حوله معلناً ظفره وانتصاره . .

ووضع المنظار المكبر على أنفه ، فوضحت أمامه الحقائق ، وتكشف غامضها ، وشعر بالفرق الكبير بين الحالين ، وطفق يقرأ من جديد . .

● ● ●

لم يذكر الإرشادات التى زوده بها المراقب ، وحاول أن يستعيدها ليسير على منوالها فلم يستطع ، وأصبحت كخيال آبق لا يستقر على حال من القلق ، فأسقط فى يده ، وبخاصة وهو يريد أن يعوض ما فاته من الوقت ليلحق بزملائه ، وإلا ساءت العاقبة ، وكانت على غير ما يبغى ويريد ، فماذا يفعل ؟ . . لقد اعتزم أمراً ، ينقذه من هذا المأزق ، فقام من فوره إلى بعض زملائه ، متظاهراً بتناول شىء من السعوط فرأى أنهم يضعون خطوطاً حمراً فى مواضع مختلفة من الورقة ، فعاد من فوره ، وأخذ يتناول الورقة . . ورقة الإجابة المسكينة ، ويقرأ بعض عباراتها من مواضع مختلفة ، ويجرى على ما قرأ خطوطاً حمراً ، ثم يقدر لها درجة على حسب جودة الخط ، ووضوح الكتابة . .

ولم تتطلب منه هذه العلمية كبير جهد ، ولا طويل عناء ، فسرعان ما انتهى من تصحيح أوراقه كلها ، وأخرج علبة الدخان ، ولف سيجاراً ضخماً ، وراح ينفث دخانه فى شيء من العظمة والـكبرياء . . ! !

● ● ●

— ما هذا يا شيخ عبد الباسط ؟ إنك لم تصحح شيئاً فى الأوراق . .

— كلا ، إنى انتهيت من تصحيحها ، وأعطيت كل ورقة ما تستحق من درجات .

وارتجف الشيخ عبد الباسط رجفة عنيفة ، عندما جبهه المراجع الفنى بهـذا الكلام ، وبخاصة حينما نظر إليه نظرة ألم ورثاء . .

وراح المراجع يصحح الأوراق كلها من جديد ، وقد أمسك بالممحاة يمحو بها الخطوط التى أحدثها الشيخ عبد الباسط خطأ ، ويعطى درجات جديدة محاولا قدر الإمكان أن يبقى على ما قد يكون أصاب فيه المصحح المسكين . .

كان المراجع شابا من خيرة شباب الأزهر ، الذين قامت على أكتافهم النهضة الحديثة فى الأزهر ، يفهم حقيقة موقف هذا الشيخ المسكين ، فآلمه أن يكون على هذا الوضع من الجهل بشئون الامتحانات ، فأخذ يرشده ، ويسدى إليه النصائح فى أسلوب رقيق ، كله الأدب الجم ، والحياء الوفير . .

وكان الشيخ عبد الباسط يرى قلم المراجع وممحاته ، يعملان عملهما فى الأوراق فيكاد يجن ، لأنه سيثبت عليه الخطأ والجهل ، وأنه لا يليق بشاب أن يخطىء شيخاً كبيراً . .

وفهم ذلك المراجع فطمأنه ، وأفهمه أنه يفعل ذلك بالقلم الأحمر ، الذى تجرى به عملية التصحيح ، ومعنى ذلك أن الشيخ عبد الباسط هو الذى قام بهذه العلمية ، وأخيراً أخرج قلمه الأزرق واعتمد الأوراق كلها ، التى صححها هو . . ومع هـذا كله ، كان الشيخ عبد الباسط ذاهلا لا يكاد يفهم شيئاً مما وقع ، ولا يدرى كيف وقع ، إلا أنه أدركه شيء من السرور حينما أعفى نهائياً من عملية التصحيح رعاية لسنه وفضله . . ! !

# التركة . . ! !

— هل تذكر المبلغ الذى تركه الميت بالضبط ؟

— نعم أذكره . . لقد مكثت ساعتين فى تقسيمه . .

— كم جنيهاً ترك الميت ؟

— ثلاثة آلاف ! !

— الأمر أسهل مما تظن ، ستحل المشكلة بأمر الله ، هيا إلى المنزل لنقسم المبلغ لنعرف الأنصباء فى هدوء . .

— أفضل ألا يكون الآن ، بل بعد صلاة العشاء . .

— كما تحب . . السلام عليكم ورحمة الله . .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . .

● ● ●

وافترق الشيخان ، واتجه أولهما إلى شارع النحاسين ، واتجه ثانيهما إلى شارع أم الغلام ، وقد جمع كل منهما ذيل جبته فى قبضة يده اليسرى ، وأمسك باليمنى كتبه وملازمه الصفراء . .

هما من العلماء الذين يقومون بالتدريس فى الأزهر الشريف ، ولكل منهما عمود يجلس بجواره ، ويعرف به . . وطالما كان هذا العمود أمنية كل منهما وأمله الذى ليس وراءه أمل ، ولا بعده غاية . .

لم يلتفت أحدهما خلفه ولا مرة واحدة . . ولو التفت الشيخ صالح العشماوى خلفه لرأى رجلا يتبعه من بعيد ، وهو سائر فى شارع أم الغلام . . ولو التفت ورآه لم يعره أى اهتمام ، ولحسبه أحد السابلة الذين لا يهمه أمرهم ، ولا يعنيه شأنهم ، ولكنه لو علم الحقيقة ، لارتعدت فرائصه ، واضطربت جوانحه ، واصطكت أسنانه خوفاً وفزعا . .

لم يكن هذا الرجل الذى يتبع الشيخ صالحاً العشماوى سوى المجرم الجرىء منصور العفى ، الذى يبعث الخوف فى القلوب لمجرد ذكر اسمه . . إنه رئيس عصابة تدين له بالطاعة والخضوع لا تعصى له أمراً ، ولا تحجم عن فعل ما يريد مهما كان فى ذلك من المشقة والجهد ، والهلاك المحقق ، والدمار المبين . .

لقد كان منصور العفى سائراً فى طريقه أمام الأزهر متجهاً إلى العتبة الخضراء ، لقضاء بعض الشئون التى تهمه ، فإذا به يسمع فجأة هذه العبارة :

— كم جنيهاً ترك الميت ؟

فانتبه واستيقظ ، وأصاخ إلى المتحدثين ، فإذا به يسمع العبارة الأخرى :

— ثلاثة آلاف . . ! !

لقد اهتزت مشاعره واضطرب ، وهو القوى العاتى ، الشديد البأس ، وأحس لهذا الرقم الكبير لذة تسرى فى بدنه ، ومتعة وجد أثرها حلواً سائغاً وكأنما أصبح مغموراً فى النعيم . .

إن هذه المهمة سهلة ميسورة ، مادام هذا المال فى حوزة الشيخ . ! إنه رجل واهن القوى مضعضع البدن ، مضطرب الأعصاب . ! وإن بيته لا بد وأن يكون غير حصين ! ! على كل حال لا بد أن ينال هذا المبلغ مهما كان الأمر ، حتى ولو أدى إلى قتل هذا الشيخ الحطمة ! . وما قيمة هؤلاء الشيوخ الذين يغدون ويروحون بين بيوتهم وبين الأزهر ، وهم يحملون فى أيديهم براهين الضعف والخور ، والعجز والاستسلام . . إن هذه الكتب التى يحملونها توحى إلى النفوس بالرخاوة والخمول والنوم العميق . . إنهم لا يجيدون شيئاً إلا إثارة حفائظ الناس على اللصوص والمجرمين. وماذا يجنى اللصوص والمجرمون ؟ ! أليسوا أناسا من حقهم أن يعيشوا فى رفاهية ونعيم كما يحيا غيرهم من البشر ، الذين يستحقون الحياة ؟ إن الله ساق إليه هذا الصيد ، فلا بد أن يحكم القنص ليوقعه فى الشرك دون حاجة إلى استعمال آلة حادة ، أو إراقة دماء.

ولم تمض نصف ساعة حتى كان أربعة من عصابة منصور يضربون نطاقا قويا

حول بيت الشيخ صالح العشماوى ، بعدما اختبر منصور الحى ، وعلم جميع منافذه ، حاراته ودروبه وزقاقه ، واطمأن إلى سهولة المهمة ، لأن البيت لا يستحق هذا الاسم ، ولا يسمى بيتا إلا تجاوزاً ، لأنه بناء قديم مهدم ، ليس به أكثر من حجرة واحدة مظلمة ، لا يكاد يدخل إليها الضوء فى وضح النهار ، ولهذا حار منصور ، ولم يهتد إلى المكان الذى يمكن أن يكون الشيخ قد وضع فيه هذا المبلغ العظيم . .

• • •

طرق الشيخ عبد الظاهر المنياوى باب زميله ، ولم تمض سوى دقيقة حتى بادره بالترحيب والإعظام ، وجلسا على حصير قديم ، وشربا القهوة التى أعدها الشيخ صالح ، ثم أمسك كل منهما ورقة وقلما وراحا يحسبان ويكتبان على ضوء ذلك المصباح الضئيل ، أو بمعنى أدق على ضوء ذلك الشعاع المتهافت الواهن ، الذى تلق به تلك الذبالة المضطربة ، التى تعبث بها الريح . . ! !

وطال الوقت ، وتصرمت الساعات ، وتضايق منصور وزملاؤه وبخاصة وأنه لم يفهم مما يقال حرفا . . إنه لا يدرى معنى لهذه الكلمات التى يفوه بها هذان الشيخان الغبيان فى نظره إلى حد كبير . . العول . . التعصيب . . الفرض . . الحجب . . ما الداعى لكل هذا التعقيد والالتواء . . إنه لا يعنيه هذا كله . . وإن هذا لحديث تافه لا قيمة له ، ثم ماصلة هذه الكلمات والعبارات بموضوع الثلاثة الآلاف جنيه ؟ ! إن المسئلة فى غاية الوضوح ، فلا داعى لإطالة الكلام . .

وخيل إليه أن يقوم إليهما ويخمد منهما الأنفاس ، ولكنه تذكر أنه لا يعرف طريق النقود . . طريق الجنيهات الكثيرة التى سيكون لها أثر فى رخاء عيشه وعيش عصابته ، فعاد إلى مكانه ثانية ينتظر إظهار المبلغ أو معرفة مكانه على الأقل . .

وسبح فكره قليلا ، فعلم أنه حقيق بأن يأخذ المبلغ كله ولا يعطى واحداً من أفراد عصابته شيئا مهما قل .. أجل وهل يلام فى ذلك ؟ وهو الذى اكتشف سر هذا الرزق ؟ إنه حقيق بهذه الثروة كلها ، وفى مكنته أن يأخذها ويشترى بها قصرا كبيرا ،

أو بمعنى أصح ضيعة تدر عليه المال كل عام ، فيحيا حياة المترفين المنعمين، الذين يروحون ويجيئون على خيولهم المطهمة ، ومركباتهم الفارهة . . ويترك حياة الجد التى لا يؤمن جانبها ، والتى جعلته مضطربا دائما لا يستقر على حال من القلق والخوف . . ويكفى أن كل حادثة تقع فى القاهرة يؤتى به سواء كان له ضلع فيها أم لا . . إنه يريد أن يهدأ وينعم بالحياة . . وإن هذا المبلغ لكاف جداً ، إنه يضمن له كل ما يريد . . ولكن مادا سيفعل بأفراد العصابة ، هل يسرحهم ؟ إن هذا تفكير عقيم لأنه لا يأمن جانبهم والحالة هذه إلا إدا أغدق عليهم من هذا المال ، وأجزل لهم العطاء ، وهذا شىء لا يوافق عليه ولا يرضاه ، إذن يجعلهم مزارعين فى أرضه ، وحراساً فى ضيعته ، وبهذا يكونون دائما بالقرب منه ، يشرف عليهم ، ويطلع على أحوالهم ، ماظهر منها وما بطن . . إن هذه فكرة جليلة يضرب بها عصفورين بحجر واحد . .

وانتبه فجأة حينما سمع الشيخ صاحب الدار يقول :

— يظهر أن هذه المسئلة صعبة ياشيخ عبد الظاهر ؟ !

— قطعا إنها صعبة جداً ، ولا تناسب أدهان الطلاب . . إنك توصلت إلى حلها بصعوبة ، فما بالك بالطلاب ياشيخ صالح ؟ إن الطالب فى الامتحان بنصف عقله فقط ، وأنا موقن أن واحداً من الطلبة سوف لا يفهم هذه المسئلة بحال . .

— هذا صحيح . .

— لقد جعلت الوارثين كثيرى العدد ، وليس هدا فحسب بل أودعت المسئلة كل معقدات الإرث . . ثم جعلت المبلغ كثيرا . . أحل فثلاثة آلاف جنيه مبلغ ليس فى خيال الأزهرى ، وخير لك ألا تجعل فى المسئلة عولا ولا حجبا ، وأن تجعلها واضحة . وأن تجعل التركة ثلاثمائة جنيه فحسب حتى يكون المبلغ قريبا إلى ذهن الطالب . .

— لك ذلك لئلا ينقم على الطلاب . . ! !

● ● ●

وذهل منصور ، وذهل أعوانه ، حينما تكشفت الحقيقة ، واتضح الأمر وعلموا أن التركة وهمية ، وأن هذا المبلغ — ثلاثة آلاف جنيه — سؤال فى الميراث كان فى ذهن ذلك الشيخ الحطمة وكان يريد أن يضعه لطلابه فى الأزهر فأخطأه التوفيق . ،

ومن ذلك اليوم آلى منصور على نفسه ألا يأبه أبدا بكائن ما يلبس جبة وقفطانا ، ويضع فوق رأسه عمامة لئلا يضيع وقته الثمين . .

# الشيخ على . . ! !

لم يغمض للشيخ على الطالب بالأزهر الشريف جفن طوال هذه الليلة النابغية ، التى قضاها بالأمس ، على أسوأ ما يقضى إنسان فى هذا الوجود ، ليلة من ليالى العمر بالغاً ما بلغت به الشدائد والأهوال ، وتوالت عليه النكبات الحسام . .

كان يرجو لو أرق جفنه من جراء حب قاهر يقرح عينيه ، ويرهق جفنيه ، ويذبل وجنتيه ، ويملك عليه حواسه ومشاعره . . أو هوى تفعل به تباريحه وأشجانه ما تفعل بالمحبين الوالهين ، حتى يكون علما فى تاريخ المحبين ، تنشر صفحاته وتطوى ، وتدرس وتنقد ، وما أجمل حياته على هذا الوضع خالداً له ذكر وصيت ، وشهرة وقدر مرموق . . ! !

كان يرجو هذا ويتمناه ، على أى لون من ألوانه ، وضرب من ضروبه ، مادام هذا الحب طاهراً نقيا ، وذلك الهوى غير مدنس أو مستقذر . .

وليكن هذا الحب إلهيا ربانيا ، يحيا به منعما ، ويخلد ذكره متصوفا بين المتصوفين عارفاً من بين العارفين . . أو ليكن حبا عذرياً ، مع أية امرأة خلقها الله ، وأراد لها أن تحظى بقلب هذا الشاب الأزهرى ، الذى لم تكد تتفتح عيناه فى هذه الحياة إلا على حياة ريفية طبيعية ، لا كلفة فيها ولا رياء . .

لقد كان يرجو أن لو كان تفكيره متجها هذه الوجهة ، منتحيا ذلك النحو . . بيد أنه لم يكن من هذا القبيل ، وإنما كان حاداً عصوفا ، كالريح الهائجة لا تبقى ولا تذر . . كان يفكر فى الحجج التى يحبه بها الخصم ، ويقهر مناظريه ، فكان يقوم بين الفينة والفينة ليكتب عبارة ، أو ليمحو أخرى ، ويقرأ نصاً ، أو يردد بعض أبيات من الشعر فى ترنم وتنغيم ، وقد بدا على محياه علائم الجد والنشاط ، وارتسمت على وجهه دلائل التعب والنصب والإرهاق . .

● ● ●

لم يدر الشيخ على نفسه داعيا لهذا الجهد الذى يبذله فى بلدته أثناء العطلة الصيفية كل عام . . إنه جهد يرهق أعصابه ، ويضنى بدنه ويرهق روحه . . لقد نشأ فى قرية من قرى مديرية الشرقية بالقرب من مدينة الزقازيق ، وحفظ القرآن ، وأجاد حفظه ، وكان له صوت حسن حينما يرتل آياته ، ويتلو أجزاءه ، حتى لا يجد المستمع له بداً من الإصاخة والإجلال . وسرعان ما تفيض من عينيه الدموع . . وعلى الرغم من ذكائه وقوة حفظه ، فإن والده مانع فى إلحاقه بالأزهر الشريف ، ليظل مجاوراً فيه مدة ، يصبح بعدها من العلماء العاملين ، الذين يشار إليهم بالبنان ، أينما حلوا أو ارتحلوا . .

ولهذا بقى الشيخ على متمتعا بالحرية والطلاقة ، يجوس خلال القرية ، فى عظمة وكبرياء ، فهو أحسن حظا من كثير من لداته وأقرانه ، فأبوه من أثرياء القرية الذين يعرف لهم أهل القرية مكانتهم ومنزلتهم . وبخاصة وقد عرضت عليه ( العمودية ) فرفضها ، وآثر أن يبقى هادئاً وادعا . بعيداً عن المشاكل والأقاويل التى لا تقف عند حد ، والأراجيف التى لا تنتهى إلى غاية . . وزاده قدراً ومكانة علمه القليل ، الذى كان يسعفه فى كل مجلس من مجالس القرية ، فى الأفراح والمآتم ، فى المسجد وبيت العمدة ، فى منزله والمضيفة ،حيث يجتمع الناس ، فيتخذ من ذلك فرصة إلى تفسير آية ، أو شرح حديث ، أو ذكر حادثة طريفة من حوادث التاريخ . .

وكان شعور الشيخ بذكائه مدعاة للالحاح على والده ، ليلحقه بالأزهر ، حتى إنه استعان على ذلك بأخواله ، وبعض أعيان القرية ، الذين يحترمهم والده ، وينزل رأيهم من نفسه المكان اللائق . .

• • •

والتحق الشيخ على بالأزهر ، وعلى الرغم من شهرته بالشيخ ، وتلقيبه به ، من حين دخوله مكتب القرية ، وقبل أن يدخل الأزهر — على الرغم من هذا ، فإنه ذاق طعما جديداً لهذا اللقب الجميل ، لقب ( الشيخ ) حين التحاقه بالأزهر ، ولم يكن

يتذوقه من قبل ، وأصبح له فى نفسه موسيقى جميلة ، ونغمة حلوة ، تملأ عليه جوانب نفسه ، وآفاق قلبه ، وأرجاء حياته بأسرها . . ! !

سبحانك اللهم ، مقلب القلوب . . إن قلب هذا الشاب يكاد يتميز اعتزازا بأزهريته . وشعورا بكرامته ، ويرى فى كل عبارة يسمعها ، أو لفظ يرن فى أذنيه سهما مريشا يجب أن يتبعه بناظريه ، ليعلم اتجاهه وسبب تصويبه . . ومن هنا كانت حياته سلسلة من المتاعب والمشاق . . كلها نقاش وجدال ، وأخذ ورد ، وصراع عنيف فى سبيل الغلبة والنصر ، والظفر بخصمه ومناظره بأى سلاح ، كائنا ما كان .

ولم تكن تلك الليلة التى ظل فيها مؤرقا مسهد الجفن ، حتى مطلع الفجر — بأولى لياليه فى هذه السبيل . . بل كانت واحدة من ليالى كثيرة متشابهة من حين دخوله الأزهر ، واعتزازه بهذا الزى الذى يرتديه ، والعمامة التى تتوج هامته . . ! !

وكان لمنظره الفخم ، دخل فى انتصارة دائما فى جميع مناظراته ومناقشاته . .

هو فى الثانية والعشرين من عمره ، ضخم طوال مفتول الساعدين ، قوى العضلات. إذا سار يخيل إليك أنه السيل تدفقا وقوة . . يلبس جلبابا أبيض فضفاضا واسعا إلى حد يلفت النظر ، ويسترعى الانتباه ، ويكور على رأسه عمامة كبيرة ضخمة ، لاتناسب سنه ، وإن ناسبت جسمه وحجمه . . وكأنها لشيخ من شيوخ الإسلام الغابرين ، لا لطالب لم يمض على التحاقه بالأزهر أكثر من ثلاثة أعوام . .

وما أجمل لحيته السوداء ! لقد أرسلها حرة طليقة ، تستطيل كما تشاء ، فهى كثة تجاوز القبضة ، مسترسلة فى عناية بالغة ، واهتمام كبير ، يمشطها دائما ، ويشذب ماتنافر من شعرها هنا وهناك ، فبدت لحية خليفة من خلفاء العباسيين ، وبدا الشيخ على كهارون الرشيد عظمة ومهابة وجلالا . .

وكان بهى الطلعة ، جميل الوجه ، وسيما ، دقيق التقاطيع والملامح ، لعينيه بريق حاد يدل على الذكاء ، وصفاء الطوية ، ونقاء السريرة . . وله لسان ذرب لا يهدأ أو يلين وهو إذا تكلم أخذ يهدر كما يهدر البعير لا يكاد يغلب أو يقهر أو يهزم . . وخيل

إليك أن أربعة يتكلمون فى نفس واحد ؛ ولعل هذا أيضا كان سر هيبته مع حداثة سنه . . ! !

● ● ●

لقد أنكره أهل القرية انكاراً تاما بعد عودته فى أول عطـلة . . بعد التحاقه بالأزهر . . لقد انتفخت أوداحه انتفاخاً كبيرا ، ولم يعد يقبل يد العمدة كما كان يقبلها أولا ؛ ولم يعد كذلك يقبل يد سيده صاحب الكتاب الذى تعلم فيه القرآن ، ومبادىء المطالعة والحساب ، ولم يعد يصغ إلى إمام المسجد حين يلقى دروسه بين المغرب والعشاء بل على العكس ، يناقشه ويسفه آراءه ويدحض مزاعمه ، وبخاصة فى الموضوعات الهامة التى يقيم لها الفلاحون وزنا أى وزن . . يا لله . . إن موضوع القضاء والقدر . . والتوسل . . وكرامات الأولياء . . وتشييد المقابر . . وزيارة النسوة لها . . وخروج النساء خلف الجنائز . . كل هذه الموضوعات وأمثالها حينما تثار فى القرى والريف ، تجد لها ميدانا يخب فيه — كل من يريد الطعن فى غير ميدان — ويضع . وتسمع لها دويا هائلا يصم الآذان . . ويتصاعد لها فى الجو دخان . .

ووجد الشيخ على ميداناً رحباً للنضال والنقاش ، فهو يرى فى هذه الأشياء رأياً غير رأى فقهاء القرية الذين لم يذهبوا إلى الأزهر كما ذهب ، ولم يجلسوا إلى الشيخة الفضلاء كما جلس . ولم يسمعوا منهم الدرر الغوالى ، كما سمع . . !

إنه يخالفهم فى التمسح بالأولياء وكنس الأضرحة ، والاعتقاد بأن الولى يضر وينفع ، وغير هذا من المظاهر التى تـكاد تجعل هؤلاء الأولياء قديسين ، أو أصناماً تعبد من دون الله ، وتجعل من هؤلاء الزائرين عبدة أصنام وسـدنة أوثان . . وإنه ليعتقد أن الولى حق لامرية فيه ، وأن الولاية إخلاص لله ومحبة طاهرة يستحقها العبد باحترامه شعائر الدين ، واتباعه أوامره والتزامه حدوده واجتنابه نواهيه . . وأنه لامانع من إكرام الله لهذا العبد ، وإظهار شىء من خوارق العادات على يديه . . ولـكن هذا لايستدعى أن نرفعه على هذه الصورة العجيبة الغريبة ، وأن نجعل منه إلهاً يعبد ، لا إنساناً يعظم . .

نحترمه ونعظمه لقربه من الله ، ولا ندعوه هو ، وإنما ندعو الله الذى خلقه كما خلقنا ، وسواه كما سوانا .. وعلى كل إنسان أن يسعى ليحصل على هذه المنزلة ، التى لم يجعلها الله وقفاً على طائفة دون طائفة ، وطبقة دون أخرى ..

وحارب النذور والأنعام التى تذبح قرباناً لهؤلاء ، وحارب مروجى هذه العادات الباطلة . وكسر صندوق النذور من أصرحة أولياء قريته — وهم كثيرون — حتى ليخيل إليه أن الولاية أصبحت طريقاً للكسب الآثم والربح الحرام ..

وما كان أعنف نضاله مع أولئك الأدعياء المارقين .. هؤلاء الذين يرسلون لحاهم ويرسلون عليها لعابهم يروبها على الدوام ، مكورين عمائم خضراء وحمراء كتلال النفاق فوق هذه الرءوس الخادعة الماكرة ، العامرة بالشر والإثم والضلال المبين .

لقد كانوا أقوياء فى نضالهم معه ، وكان قوياً كذلك فى نضاله معهم ، فما وهن ولا استكان ، ولكنهم وهنوا وضعفوا واستكانوا ، وانتصر حقه فهزم باطلهم ، ولم يجدوا بداً من ترك هذه القرية كلما جاء موعد العطلة الصيفية .. ولكنه مع ذلك كان يلاحقهم فى القرى المجاورة ؛ حيث يبذرون بذور الضعف والانحلال ؛ بدعوى الصوفية والتصوف ، وهم أبعد الناس عن هذا الحق الذى لايفقهون معناه ؛ بل يعكرون ورده ، ويطمسون حقيقته ، ويضرون الإسلام ..

وكم كانت له من صولات وجولات فى سبيل منع النساء من زيارة المقابر واتباع الجنائز ؛ حتى إنه استعمل القوة حيث لم يفلح اللين ، والشدة والعنف حيث لم يجد لكلامه صدى ولا لنصحه نتيجة .. فكان يخرج شاهراً عصاه غير مبال بشىء .. ثم كون فرقة من شباب القرية الذين آنس فيهم الصلاح والتقوى .. من الفلاحين الذين لم يذهب بهم الشيطان مذاهب الفساد ؛ وكانوا له نعم الأعوان والجنود .. لقد كانوا يتبعون كل جنازة ومعهم العصى الغليظة ؛ وفى وجوههم عزمة صارمة ومعنى مخيف . وكانت النساء ترى هذا فترتعد منهن الفرائص وتضطرب النفس وتتزايل الأعضاء ..

وأصبحت عادة ؛ وهجر النساء الجنائز ؛ وهجرن المقابر كذلك ؛ وقضى الشيخ على هذه العادة النكراء .

● ● ●

وفكر إمام المسجد فى الأمر فعلم أن مركزه مهدد ؛ وأن هذا الشاب الأزهرى خطر عليه .. إنه فصيح اللسان بليغ حين يخطب ؛ يهجم من أمامه ويتغلب عليه . . وإنه حين يعلو المنبر ويخطب الجمعة يهتز له المنبر اهتزازاً ويهدر فوقه كما يهدر البعير ؛ معلناً الثورة والنقمة على العادات الشائعة والبدع السيئة . . إنه يعترف له بالتقوى والمقدرة ، فهو لايخطب من ورقة أو ديوان كمايفعل هو ، وإنما يرتجل الخطبة ارتجالا يلقيها فى ثورة عاتية لايفر منه لفظ ولا يستعصى بيان ولايتكاءده معنى ؛ فماذا يفعل والحال كما يرى تعقيداً وضيقا ؟!

لقد انكشف أمره ؛ وظهر جهله للناس عياناً ؛ ومل الناس بيانه وخطبه ؛ حتى لقد بلغ الأمر ببعض التلاميذ أن يسبقه فى الخطبة رافعاً بذلك صوته ليشعره بأن الناس حفظوا جميع الخطب التى يتلوها كل عام ولايغير منها حرفاً واحداً . . لقد كان يتلعثم حينذاك وهو على المنبر ؛ والموقف رهيب فيضطَر إلى أن يغير بعض العبارات التى أمامه فى الديوان ؛ فيلتوى عليه الأمر ويشكل الموضوع فيعيد قراءة ما أمامه بلا تغيير ولا تحوير .. حقاً ؟ لقد أصبح عالة على المجتمع .. إنه الآن يشعر شعوراً صادقاً بالفقر العقلى والنضوب الذهنى وأن العلم هو كل شىء ؛ ويكاد يحسد الشيخ على لهذه النعمة التى ينعم بها .. نعمة البيان والقوة الخطابية المنقطعة النظير ؟ ! .

ولم يجد حيلة للنجاة من خطر الشيخ على ، إلا أن يرفض السماح له بخطبة يوم الجمعة . بيد أن هذه الخطة جعلت الناس تنقم عليه أشد النقمة ، وترميه بالأنانية ، والأثرة ، وتعلن سخطها عليه ، وتتجه إلى الشيخ على ، وتلح عليه إلحاحاً ؛ ليلقى عليهم درساً كل ليلة ، إن لم يكن فى المسجد ففى بيت العمدة ؛ أو مضيفة القرية . . وكان لهم ما أرادوا . !

ووجد الشيخ على أن الفرصة سانحة ليضرب الضربة الأخيرة ، فأخذ يرشدهم إلى تعاليم الدين الصحيح الخالى من البدع والخرافات ، وعلمهم الوضوء ؛ أركانه وسننه ؛ والصلاة أركانها وشروطها وسننها ، والصوم والزكاة ..

وكان يتخذ من ذلك كله مادة يطبقها على الحياة العامة . ويعطى الناس فرصة للسؤال ، وربط هذه الموضوعات الدينية بحياتهم الخاصة ، مما أنتج أحسن النتائج ، وأتى بخير الثمار ، وتذوق الناس هذه الروح الجديدة . وكانوا بها فرحين ..

وقاوم الجهل والحماقات ، وأنقذ الفلاحين المساكين من استبداد المالكين وجشعهم وطمعهم الذى لاينتهى عند حد ، ولا يقف عند نهاية .. وكأن هؤلاء الفلاحين عبيد لهم ، يتحكمون فى رقابهم وأرزاقهم ، ويسيمونهم سوء العذاب ..

• • •

وهكذا ارتفع نجم هذا الطالب الأزهرى ، وأصبحت له مكانة فى قريته ، والقرى المجاورة ، لاينكرها إلا كل مكابر جاحد .. وبتوالى الأيام أقبل عليه الناس من كل صوب يستفتونه فى أمر دينهم ؛ ويستشيرونه فى أمور دنياهم . . وزال ما بينه وبين فقهاء القرية ، فلقد آثروا العافية ، وعلموا أن التسليم له فى كل ما يأمر ويقول هو العلاج الوحيد ..

ولم يكن الشيخ على عالماً غزير العلم ، واسع المعرفة ولكنه كان دقيق الفهم ، منظماً لمعلوماته ، يجدها دائما فى متناول يده ، ويدعوها فتلبى نداءه ، وتكون له فى الشدائد حينما يشتد وطيس الجدل والنقاش المنقذ الأول والأخير .

لقد كان خيراً وبركة فى قريته وغيرها من القرى المجاورة .. فما قام نزاع إلا كان خير مزيل لأسبابه ، فى براعة ولباقة . لا تدع فرصة للمتنازعين ، بل تأخذ عليهم كل سبيل ، وسرعان ما يعود الصفاء والوئام ، وترجع المياه إلى مجاريها . . ! !

ومن العجب أن حكمه كان يقع موقعاً جميلا من النفوس ، ويصادف قبولا من

الطرفين وكأنما هو القاضى العادل ، الذى خبر القضية ودرسها فى دقة بالغة ، وفهم اتجاه الميول ، ودخائل النفوس . وخبايا القلوب . . .

● ● ●

ولجأ إليه رجال الإدارة فى فض المشاكل ، وإجراء الصلح بين الخصوم ، وما كانت أعنف المشاكل وأعقدها تتطلب منه أكثر من جلسة واحدة ، يصبح بعدها الخصوم الألداء ، خلانا وأصدقاء ، وإذا بالتعاون يسودهم ، والإخلاص ينشر عليهم لواءه ، ويسدل ستاره . . .

ومع هذا كله كان يناله كثير من رشاش التهم والانتقاد ، وكان يسمع هذا ولا يحاول إنكاره ، أو إقامة وزن له ، فليس عنده متسع من الوقت لتفنيد هذه التهم ، والقضاء على هذه الأراجيف ، واطمأن أخيراً إلى سياسة الصمت ، وعدم إقامة وزن لكل ما يقال ، معتقداً أن الثوب الأبيض يدنسه اليسير مما لا يظهر فى غيره من الأثواب غير البيض، وأن الأزهرى فى وسطه ومحيطه ، وبيئته وجوه الذى يعيش فيه كالثوب الأبيض يدنسه أقل شئ يعلق به ، فلا مانع من النقد ، ولا مانع من إشاعة الأقاويل ، فلكل شىء نهاية ، وخير علاج لهذه أن يتركها لتموت . .

● ● ●

ونشبت الحرب العالمية الأولى ، ولم تعد المواصلات كما كانت سهولة ويسراً ، ولزم الشيخ على بلدته متحسراً على أيام الطلب فى الأزهر ، ووجد أن العلم غير قاصر على الأزهر فحسب ، فانكب على الدرس والتحصيل ، وله من فكره المنظم ، وعقله المستنير خير معوان له على التقدم واطراد النجاح . . ومكث على هذا الوضع ثلاثة أعوام ، حصل فيها كثيرا واستفاد وأفاد وكان ضياء ونورا ، يشع فى كل مكان ، وقدوة صالحة يضرب أروع المثل ، حتى ملك على الناس عواطفهم وأحاسيسهم . وأصبحت بلدته وما حولها مثلا عاليا فى الكرم والشجاعة والوفاء والحب وانتشر الأمن ، وامتنعت الحوادث وعرف ذلك أهل الشرقية جميعا . .

وعادت المواصلات ، وزالت العوائق ، وأصبح فى وسع الشيخ على أن يذهب إلى الأزهر ليواصل دراسته ، وينتظم فى سلك الطلاب دائب السعى والجد والنشاط ..

ولـكن . . ولـكن أهل بلدته وقفوا فى طريقه ، ومنعوه من الذهاب إلى الأزهر كما يريد . . لقد تنازل له العمدة عن منصبه ، راضياً مرتاح الضمير ، ووفروا له سبل الراحة والعيش ، ولم يجد مناصاً من النزول على إرادتهم ، والرضوخ لرغبتهم . . بيد أنه تذكر حديث رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . . » ، فتصور ضخامة المسئولية ، وعظم التبعة ، وأنه لن يهدأ له بال بعد هذا وأن عمله الذى يقوم به طائعاً مختاراً ، سوف لا يحمل هذا المعنى بعد الآن ، وإنما يحمل معنى آخر فيه الإلزام والاضطرار . . وفيه السؤال أمام الله سبحانه يوم الدين . . تصور هذا كله فتردد فى الأمر ، واضطرب ، وحاول أن يعفيه أهل بلدته من المسئولية المرهقة ، والتبعة المضنية ، ولـكن مجهوده ذهب ثانية أدراج الرياح . .

لقد أخذ ورقة وقلماً ، وأخذ يحصى الأشياء التى هو مطالب بها ، وخلا إلى نفسه قليلا ، فإذا به يملأ ورقة وأخرى ، وثالثة وهكذا . . ما هذا ؟ إن ما يدخل فى حدود عمله لا يكاد يحصى . . إنه مسئول عن كل فرد فى القرية عظيما كان أم حقيراً ، عن راحته وطمأنينته ، هدوئه وأمنـه ، أو اضطرابه وخوفه . . عن الجائع والمحتاج ، والفقير والمسكين . . والحيوان والطير . . والنبات والزرع ، والشجر والثمر . . و . و .

يا لله : إذن فكيف يهـدأ له بال ، ويستقر له خاطر ؟ الآن فحسب أدرك سر الحديث ومعناه . . وأدرك ما كان عليه الخلفاء من الإجهاد والنصب ، وأن الأمر جد ليس بالهزل ، وأن الإسلام إن لم يفهم على حقيقته ، ويصل المسلم إلى الغاية من التشريع ، والغرض منه ، لا يأتى بالفائدة المطلوبة والأمل المرجو . . حسبه كتابة وتقييداً . . إن المهمة التى نيطت به الآن معناها السهر الدائب ، والعمل المتواصل ، والرقابة اليقظة ، والقدرة على تنفيذ حدود الله . . وليس معناها الخمول أو الـكسل أو التواكل ، أو النوم على السرير طوال الليل حتى تطلع الشمس وتصير فى كبد السماء

وليس معناها التمتع بلذيذ المأكل والمشرب ، والأوز والبط والدجاج والحمام . . إن معناها أن ينال الفقير كفايته ، وأن تجوع قليلا هذه ( الكروش ) الواسعة الضخمة وتلك البطون التى أصيبت بالتخمة ، وشغلت بهذا كله مما لذ وطاب عن الله والتفكير فيما خلق وصور وأودع الكون من عجائب وغرائب تؤدى بالإنسان إذا فكر فيها كما يجب إلى العقيدة السليمة والإيمان الصحيح . . إن معناها الجهاد ليعرف كل إنسان حقه وما يجب عليه ، وأن ينال هذا الحق كاملا غير منقوص . وأن يؤدى هذا الواجب كذلك كاملا غير منقوص .. وليس معناها المظهر الخادع ، والصولة الكاذبة والأبهة المرذولة ، والعظمة الزائفة . . وليس معناها أن تمتد يده لينقص من حق كل إنسان جزءاً ليكون ثروة ، وليأخذ الرشوة ليمحو أثر جريمة ، أو ينال من فقير نيلا ليرضى غنياً ..

ويحك يا على ! لقد أراد الله أن يبتليك ويختبرك ، ليعلم مبلغ إيمانك ، إنك طالما تحدثت فى رسالة العمدة ، والرئيس بوجه عام . . وطالما سمع الناس رأيك وأنت بعيد عن هذا المنصب . . وعلم الله بما كنت تقول ورآه ، وليس القول كالعمل . فهيا إلى المعترك مستعيناً بالله ..

● ● ●

وشعر أهل بلدته بالتغيير الكبير ، والفارق العظيم فى كل ناحية من النواحى من يوم أن أصبح الشيخ على عمدة عليهم .. لقد خف الحمل عن كل منهم ، إذ أحس الصغير والكبير أن العمدة بجواره على الدوام يشاركه عمله ، ومسراته وأحزانه وأتراحه . . هو مع كل فرد فى الحقل والبيت والمسجد والشارع .. لا يكاد يهدأ له بال ، ولا يستقر له خاطر ، ولا يتمتع بدنه بالراحة والهدوء .. وما حاجته إلى راحة البدن ، وروحه تنعم بهذه الراحة . . إن هذا يكفيه ويثلج صدره ، ويريح ضميره ، وبخاصة وأنه يتمنى أن ينال تلك الدرجة العليا ، وأن يكون ممن يظلهم الله يوم القيامة تحت ظل العرش ، يوم لاظل إلا ظله .

# قِدْرُ الفول !

## ١

كانت الريح تعصف بشــدة وعنف ، وتلال الدراسة ينبعث منها غبار كثيف ، يتجه شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، فى شكل زوابع ودوامات هوائية . تبقى حيناً تخيف السابلة ، وتروع الناس . .

ولم تمنع هذه الحالة الجوية السيئة المعلم عثمان الفوال من الخروج قبيل الفجر إلى تلال الدراسة . حيث يشرف على قدور الفول المدمس التى تدر عليه الربح الطائل ، والمـال الوفير .. فلقد أثرى من بيع الفول بحانوته أمام الأزهرالشريف وأصبح من أصحاب البيوت الـكثيرة المتعددة فى نواحى القاهرة . .

وكان المعلم عثمان ملتفاً بعباءة من الصوف الأحمر ، رافعاً صوته ببعض التسابيح والاستغفار ؛ فهو رجل دين ، يعبد ربه دائماً ويخشاه فى جميع أعماله . ولهذا بارك الله له فيما أعطاه . .

وأخرجت القدور من مكانها ، إذ تم نضجها ، وحمل بعضها إلى الدكان ؛ حيث تجرى عملية البيع والشراء على أشدها ، وبقى البعض الآخر ينتظر دوره .. وماأجمل منظر هذه القدور التى ينبعث منها الدخان والبخار ، فيفيض على المكان دفئاً وحرارة فى هذا الوقت الذى اشــتدت فيه وطأة البرد القارس ، مما جعل بعض الحشرات والأفاعى تحوم حول المـكان ، وتـكمن فى نواحيه وأرجائه لتتمتع بهذا الدفء الحلو ، الذى لم يلبث أن زال بعد ساعة تقريباً ؛ لشدة الهواء وقسوة الريح ..

وكشف العامل المختص هذه القدور ليتأكد من مقدار المـاء الذى بها ، فاطمأن إلى مافيها من المـاء ، إلا أنه نسى أن يغطى واحدة ؛ وانـكمش فى مكانه من بعيد ،

ولم أطراف نفسه قليلا وسرعان ما غلبه النعاس وهو جالس لا يريم .!

وهبت زوبعة عاتية حملت معها بعض العقارب استقر بعضها فى القدر المكشوفة مع مقدار من الحصى والتراب .. وكأنما أريد لهذه القدر أن تكون مباءة للسموم فسقط فيها أرقم لعين . وفى هذا الحين أفاق العامل من نومه ؛ فلمح القدر المكشوفة فأسرع إليها ولا يزال النوم فى عينيه ، ووضع عليها الغطاء . ثم جاء بعربته ووضع هذه القدر فيها مع غيرها من القدور ، ومضى يجر العربة متجهاً إلى دكان المعلم عثمان الفوال . .

## ٢

وقوبل العامل بالنقمة والثورة .. النقمة الحانقة ، والثورة الطاغية لأنه تأخر ، وكادت آخر قدر تفرغ مما بها ، والناس مجتمعون من كل حدب وصوب ، يريدون الفول المدمس اللذيذ ، الذى يحفظ لأبدانهم قوتها ، ويبعث فيها الحرارة والدفء ، والحياة ، وقد أمسك كل بطبقه ، ولا يقف فى هدوء وصمت ؛ بل ينادى فى استعاثة مفتعلة وتضليل كبير .. فهذا يهتف :

— يا عم عثمان الله يبقيك ، ويطيل فى حياتك ؛ أنا تأخرت وأبى لابد وأن يضربنى . اعمل معروف ..

وهذا يصرخ فى ضراعة :

— أنا هنا من الفجر وأخشى أن أموت من شدة البرد . .

وهذا ثالث ينادى مسترحماً :

— الله يبقى لك أولادك يا عم عثمان .. إخوتى ينتظروننى . وهم جائعون .. نحن لم نتناول طعام العشاء بالأمس .. الله يعمر بيتك . !

وهكذا اختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض ، واحتدم البيع ، والمعلم عثمان يجيب الجميع بالإيجاب ، وأن كلا سيأخذ ما يريد بإذن الله ، وأن الخير كثير . . وأن

الصبر مطلوب .. وبينما لسانه يتكلم تعمل يداه عملهما . أما اليمنى فقد أمسك بها المغرفة يلقى بها داخل القدر يحركها حيناً ثم يخرج منها مايشاء . وأمااليسرى فيمسك بها الطبق فى عناية بالغة ، ولا يمكث الطبق فى يده أكثر من دقيقة ، يضع فيه الفول ثم يصب عليه بعض الزيت والخل ، ويرش عليه الملح والفلفل ؛ أو الشطة والكمون وأخيراً نصف ليمونة صفراء ؛ كأنها قطعة من (الكهرمان) ..!

وكان الرجل غير غافل عن خالقه رغم هذه الضجة البالغة ؛ فهو ينتهز الفرصة من حين إلى حين ويقول فى صوت مرتفع :

— يا فتاح يا عليم ، يا رزاق يا كريم .. يامفتح الأبواب لخلقك يا رب العالمين يامن بيده الأمر والتدبير ..

وهو مع هذه الحركة والضجة الصاخبة يرد التحية بأحسن منها ، ويحى السائرين فى الطريق ، والمارين به من حين إلى حين ، وكأنما جميع بدنه عيون ترى من كل ناحية ، وآذان تسمع من كل ناحية . فهو يسمع الجميع ، ويرد عليهم دون توان وبغير اضطراب . .

ومن عجب أن العرق كان يتصبب من بدن الرجل ، رغم البرد وقسوته ، والجو ورداءته ، وكأن هذه الحركة الدائبة أغنته عن الملابس الثقيلة ، إذ كان لايرتدى غير القميص الأبيض وفوقه صديرى مقلم . وتحت القميص سروال أبيض طويل ..!

## ٣

تحرك الشيخ زكريا عاشور فى مكانه ، وأخذ يفتح عينيه ويفركهما فى بلادة وفتور . ويستطيل برقبته إلى الأمام ، وكأنما ينظر شيئاً من بعيد أو يستمع إلى صوت من جانب الغيب ، يلقى إليه أمراً أو يدله على كائن ما . .

وطفق يهرش بدنه في مواضع كثيرة متعددة ، حتى شك الجالسون بجانبه فى مقام السيدة زينب رضى الله عنها فى أمره ، واعتقدوا أن هذا الرجل لابد وأن يكون ملتاث العقل ، مشترك اللب ، مذهوب الفؤاد . .

كان يقرأ آيات من كتاب ، تفيض دموعه بين الحين والحين ، فإذا ما اشتدت به العبرة وانتابته حالة روحية عنيفة صمت ، وأصبح كالصنم فى مكانه ، وأغمض عينيه لئلا ينكشف أمره . أو يعلم به إنسان . .

بيد أن الكثيرين كانوا يعلمون من هو الشيخ زكريا عاشور ، وأنه هو ذلك الشاب الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر ، والذى يطلب العلم بالأزهر الشريف دون قيد ولا شرط . فهو لا يحضر دائماً ، وهو غير مقيد فى الكشوف الأزهرية ، وإنما يحضر بعض الدروس التى لا يقبل عليها الطلاب ، ولا يرون فى أصحابها كفاءة تجذبهم إليهم ، ولا مزية من المزايا التى يغرم بها الطالب الأزهرى القديم منذ نصف قرن أو يزيد . . وليست هذه المزايا فى العادة غير شقشقة اللسان ، وارتفاع الصوت وجهارته ، وقدرة الشيخ على الإيضاح إلى حدما . .

أما الشيخ زكريا عاشور فكان لا يقبل إلا قليلا من العلماء ، الذين كان لهم قدم راسخة فى العلم والمعرفة ، يفهمون لغة القلوب ، ويطبون لأمراض الأرواح والصدور ولهم مع الله حالات وصلات . . مما قربه منهم ، وقربهم منه ، وأصبح مريداً وطالباً وما أجمل العلم يأتى من طريق الروح ، ويتصل بالعقل والقلب ، ويهدف دائماً إلى المثل العليا التى تهدف إليها الأديان ، ويعنها أهل الحقيقة من أولياء الله . .

وكان الشيخ زكريا يترك فراشه فى الأزهر قبيل الفجر من كل ليلة ويذهب إلى السيدة زينب حيث يؤدى فريضة الفجر ، ويعود بعد شروق الشمس . . أما هذا الصباح ، فإنه قام من فوره ، وتناول عكازته بيده ، واتجه إلى الأزهر ، حيث وقف أمام دكان المعلم عثمان ، وسط ذلك الزحام الشديد . وهو شارد اللب . .

وأخذ الناس يتدافعونه فيبعد تارة ، ويقرب أخرى ، والألسنة تناله حداداً من كل ناحية ، فهو لا يحمل طبقاً يأخذ فيه الفول ، كما يحمل كل منهم طبقاً أو وعاء كائناً ما كان ، وهو متألم واجم ، لا يحاول أن يأخذ مكانه قريباً من المعلم عثمان ، ولكنه ترك نفسه للناس يدفعونه حيث يريدون . : فمن هذا الشاب العجيب الذى

يضايقهم ، ويعطل مصالحهم ؟ وكاد أحد الواقفين يضرب به على قفاه ، لولا أنه لم يستطع أن يرفع يده لتمتد إلى ذلك الشاب النحيل ، فبهت الرجل وأحس بالرهبة ، واعتراه شيء من الذهول . .

ورأى المعلم عثمان هذا المنظر . فقطب جبينه ، واعتقد أنه شاب مسكين ، وانتوى أن يعطيه قليلا من الفول والخبز ليدفع بهما جوعته ، ويسد خلته ، بيد أنه تركه وشأنه حتى ينفض الناس ويخف الزحام ، لتقع حسنته موقعها حيث يريد الله لها من السر والكتمان ، وعدم الفخر والرياء . . وهذه دائما عادة المعلم عثمان ، يتصدق فى الخفاء ، ولا يعرف المن والأذى ، وهو يعتقد أن النعمة التى يتمتع بها ، وتغمره من كل ناحية ، سببها هذه الصدقة الخفية ، التى تجود بها نفسه من حين إلى حين ، وإنه لبشعر بلذة ومتعة حينما يسمع دعوات الفقير له بالخير والبركة ، بعد أن يجود عليه ، ويحسن إليه . ويؤمن على دعائه له بقلب ضارع إلى الله . .

## ٤

وإذا كان المعلم عثمان لا يعرف شيئاً عن الشيخ زكريا ، فإن زكريا يعرف الكثير عنه ، ويعلم أنه رجل متواضع متفائل ، فهو مع ثرائه الجم ، لا يترك هذا الدكان الحقير لاعتقاده أنه سبب غناه ، فلا يصح أن يدركه البطر والأشر ، ويعرف أنه يؤوى كثيراً ممن أدركتهم الفاقة ، وأضناهم العوز ، وأنه يحسن إليهم فى بيوتهم دون أن يعلم واحد من الناس عنهم شيئاً . . وأنه لا يرضى أن يغير هذه القدور التى ينضج فيها الفول ، مع أن منظرها أصبح غير مرغوب فيه . . وفى مكنته أن يأتى بدلها بقدور جميلة من النحاس ، بيد أنه لم يفعل ، ويصر أن تصحبه هذه القدور الفخارية حتى يأذن الله . . ومع هذا كله ، كان الناس يؤثرونه على عشرات سواه ، لتساهله فى البيع ولأنه يعطيهم كمية كبيرة تربو على أية كمية يعطيها سواه . .

## ٥

وتصايح الناس فرحا حينما فرغت القدر ، ووضع المعلم عثمان قدراً غيرها ، وأهوى بمغرفته داخل القدر يقلب ما فيها بعنف وقوة ، وقد أرهقه التعب ، ونال منه الجهد والنصب مبلغاً كبيراً ، فهذه آخر قدر بعـدها سينال نصيبه من الراحة والهدوء ، وحظه من الربح الوفير بإذن الله . . الربح الحلال الذى لا تدنسه شبهة ، ولا يشوبه غش أو شيء من أموال الناس . .

وما كاد يتناول الطبق من أحد زبائنه ، ويضع مغرفته في القدر ليعطيه منها ما يريد ، حتى هجم على القدر ذلك الشاب الذى ظل أمامه واقفا لا يتحرك إلا مرغما عند مايتدافعهالناس ، والذى كان يريد أن يحسن إليه عند مايخف الزحام . . هجم على القدر فى ثورة عاتية جعلت الناس ينفضون بعيداً عنه ، وضربها ضربة قوية بعكازته الصلبة ، فهوت إلى الأرض شظايا هنا وهناك ، تناثر الفول على الأرض ، وسال ماؤه . . ثم لم يعد أحد يرى هذا الشاب . .

وجرى الناس هنا وهناك ليقعوا له على أثر ، ولـكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح . . كأنما قد ابتلعته الأرض ، أو حملته الرياح . .

وبكى كثير من الصبية لعنف هذا المنظر ، وشعروا بأن هذا الرجل الذى حطم القدر سينالهم منه مكروه ، وأخذ بعض الشبان يسبون ويشتمون ، ويهددون بأيديهم وبعض الرجال يواسون المعلم عثمان ، ويقولون :

— أخذت الشر وذهبت . . الله يعوضك خيراً . .

فيجيبهم فى إيمان ثابت :

— الحمد لله الذى انتهى الأمر عند هذا الحد . . أنا آسف لأنكم لم تأخذوا نصيبكم من الفول . .

— كل شيء نصيب يا معلم ، لا أحد يأخذ أكثر من نصيبه . . كل فرد يحصل رزقه فى الحياة . الذى من نصيبك لا بد أن يصيبك .

— الحمد لله الذى كفانى شر هـذا الرجل . . فمن يدرى ربما كان يريد أن يضربنى فيفلق رأسى ، فخفف الله القضاء ، ونزلت عكازته على القدر فحطمتها . .

— ربما . . يظهر أنه مجنون . .

— بلا شك . .

## ٦

وأفاق الناس إلى أنفسهم ، وأخذ المعلم يجمع ما تناثر من الفول ، والناس يساعدونه فمن الفقراء من يغسله ويأكله ، ومن الناس من ينتفع به ، فيعطيه لدوابه ومواشيه . .

وما كان أشد دهشتهم وعجبهم . . لقد استولى عليهم الذهول ، فهتف المعلم عثمان :

— الله أكبر . . الله أكبر . . إنه من الأولياء . . إنه من العارفين . .

واجتمع الناس من كل فج ، ونظروا . وأمعنوا ، فإذا مع هذا الفول النثير على الأرض هنا وهناك ، بعض العقارب ، وأرقم لعين . . ! !

ولم يعلم أحد كيف وقعت هذه الأشياء فى القدر . . ! !

ولم يعلم أحد كيف عرف ذلك الشاب ما فى داخل القدر . . ! !

وحاول الناس أن يعرفوا هذا الشاب الذى كان يحمل العكازة فى صمت ، وليس معه طبق أو وعاء يأخذ فيه ما يريد من الفول ، والذى تندروا به ، وسخروا منه ، وكان يريد المعلم عثمان أن يعطيه شيئاً من الإحسان والصدقة . . حاولوا هذا ، ولكنهم لم يصلوا إلى شىء . .

وانتابت المعلم عثمان حالة روحية ، وأخذ يدعو الله أن يلتقى بهذا الشاب . . وحقق الله الرجاء . .

وما كاد يراه حتى أخذ يقبل يديه ، وعيناه تفيضان بالدموع . . ! !

# الفرج..!!

## ١

ظل الشيخ عبد الفتاح جمعة يذاكر درس الفقه فى صحن الأزهر الشريف ، أصيل يوم من أيام الخريف ، وقد كان الأزهر صامتا على غير عادة ، وذلك لأن الطلاب جميعاً ، الكبار منهم والصغار خرجوا للتنزه فى شوارع القاهرة ، وقد وجدوا فى تعطيل الدراسة بسبب المولد النبوى الشريف ، فرصة لهم للتفرج والترويح عن النفس ، حتى يمكنهم أن يعودوا إلى دروسهم ، وهم أوفر نشاطا ، وأكثر إقبالا على البحث والتمحيص . . !!

ومكث ساعتين يذاكر هذا الدرس ، الدقيق فى نظره إلى حد كبير ، فالاستبراء باب لا يكاد يفهم الحكمة منه ، ويخل إليه أنه تعبدى ليس من اللازم مناقشته ، والوقوف عند مسائله . .

لقد كان الدرس صعبا ، وعبارات الخطيب كأنها طلاسم وألغاز ، بيد أن صبره وجلده . ومحاولته التغلب على هذه المصاعب الجمة ، والمشاق الكثيرة ، بعثت فى نفسه القوة والعزم ، حتى اكتمل له فهم الموضوع ، والوصول إلى الغاية التى يريدها ، وهى تلخيص الدرس ، عناصره ومسائله ، حتى يكون على ذكر منه إذا سئل فيه ، فى أى وقت من الأوقات . .

وهنا هتف فى فرح ومرح :

ــ الآن أستحق الأكل . .

وما كاد يتم عبارته حتى سمع المؤذن يؤذن لصلاة المغرب ، فأخذ يردد معه الأذان فى خشوع وخضوع ، متمثلا هذه المعانى الحية ، التى تأخذ بمجامع القلوب ، وتسيطر

على النفس ، وتملك على الإنسان أحاسيسه وعواطفه ، وبخاصة إذا فكر فيها بطمأنينة وإخلاص . .

وما كاد المؤذن ينتهى من أذانه ، حتى أسرع الشيخ عبد الفتاح إلى الميضأة ، فتوضأ مسبغا وضوءه . محللا بين أصابعه ولحيته ، وأدرك الإمام قبل أن يرفع من ركوعه بتسبيحة واحدة ، أدرك بها الركعة لحمد الله . .

ولم يكن وراء الإمام أكثر من عشرة أشخاص ، هم الذين فى الأزهر . ولم يجدوا داعيا للخروج والتزاحم بالمناكب فى شوارع القاهرة التى تغص بالناس من كل صنف وجنس . . ! !

وكانت هذه الجماعة الصغيرة تحفها الملائكة ، وتنزل عليها الرحمات ، والفيوضات الإلهية ، فللقبلة القديمة ، ذكريات فى نفس كل أزهرى ، وتمتعه بالدراسة القديمة على الحصير فى الحلقات الحرة ، التى كان الإقبال عليها أساسه قدرة الأستاذ على عرض معلوماته ، وارتفاع صوته ، ومعاملته الحسنة لتلامذته ، الذين يقبلون عليه إقبالا ، دون اكراه أو ضغط خارجى ، وهذا دائما سر الإفادة والنبوغ .

وما كاد الإمام يسلم ، حتى كان الشيخ عبد الفتاح أمام خزانته ، فى رواق الشراقوة يخرج منها بعض الخبز الجاف . . كسراً صغيرة لا تكاد تكفى طفلا صغيرا . .

وذهب إلى الميضأة ، وأخذ يرش الماء على هذه القطع الجافة التى تشبه الحجارة الرقيقة . .

ثم عاد إلى حيث كان . فى صحن الأزهر الشريف .

## ٢

سبحانك اللهم ، خلقت اليسر والعسر ، والغنى والفقر . .

وما أشق هذه الحياة الجافة ، التى كان يحياها طلاب الأزهر فى ذلك الحين حوالى عام ستة عشر وثلاثمائة من الهجرة ، ولا يزال يحياها إلى الآن بعض الطلاب فى أروقة الأزهر ، وخاصة الأجانب غير المصريين ، من شتى الطوائف ، ومختلف الأجناس . . ! !

فقر مدقع ، وحاجة ملحة عنيفة ، وأبدان تكاد تكون عارية ، تقاسى الألم ، وتجابه العناء والجهد الشديد، بصدر رحب ، وقلب مطمئن ، ونفس راضية وفؤاد ملىء بالإيمان المطلق ، والثقة بالله ، والإذعان لحكم القضاء . . ! !

وطفق الشيخ عبد الفتاح يأكل هذه اللقيمات ، التى لم يؤثر فيها الماء ، وظلت كما هى جافة ، تدمى أصابعه ، وتقاوم أضراسه ، وتشتجر مع أسنانه بين الحين والحين . وليت هناك بعض الخضر والأدم واللحم ، يكسر من شرتها ، ويوهن من قوتها ، ويضعف من حدتها إذن لهان الأمر ، وسهلت عملية المضغ والهضم ، ولكنه الملح ، ولا أدم لهذا الطالب سواه ، وإن هذا الطعام فى أكثر الأحايين فى الصباح ، والظهر والمساء . . ! !

أما حين تصبح حياته رخية ، وعيشه رغداً ، يهنأ به ويجد فيه المتعة والنعيم ، فعندما يضم إلى الملح مقداراً من البصل الجاف أو الأخضر ، أو شيئا من الخضرة ، كالفجل أو الكراث أو الجرجير ، وقليلا من الفول النابت ومرقه ، أو بعضا من الفول المدمس مع قليل الزيت الطيب . . زيت الزيتون . . وإذا كثر الرخاء فيشترى قليلا من الطعمية ، أو لحم الرأس والأكرعة . . ! !

وكانت هذه العيشة الرغدة ، تواتيه غالبا فى أول كل شهر ، حينما يصله من والده الزوادة ، المكونة من الخبز الجاف، المصنوع من الذرة الشامية التى تشتهر مديرية الشرقية بزراعتها ، مع الحلبة التى تكسبها شيئا من لذاذة الطعم ، وتماسك الأجزاء . . وبعض الجبن والسمن والمش . . ! !

أما النقود فتتراوح بين الستين قرشا ، والخمسين . . ! !

وهو قانع بهذا المبلغ ، بل كان يدخر منه ثمانية قروش كل شهر ، وهو فخور به بين إخوانه وزملائه الذين يتقاضى بعضهم نصف هذا المبلغ ، ويحيا على الخبز الجاف والملح، وبعض ما يحصل عليه ليلا من قشر البطيخ حيث يجده ملقى فى صناديق

القمامات ، بين أكداس الأوبئة والقاذورات ، فيسرع بانتشاله ، ويبالغ فى غسله حتى إذا اطمأن إلى نظافته أضافه إلى مائدته الجدباء . . ! !

إن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر . .

بهذه العبارة كان يسلى كل منهم نفسه ، وينتظر الآخرة التى ستكون موطن نعيمه وراحته الأبدية فى فردوس الجنان . . ! !

وكان خير مافى حياة الشيخ عبد الفتاح ، وسر رضائه وفرحه ، ما فيها من هدوء البال ، وراحة الضمير ، والإقبال على العبادة ما وسعه الجهد ، وواتته الطاقة ، فهو لا يدع فرصة تمر هباء فوقته كله مقسم بين الدرس والبحث والتمحيص ، والطعام والشراب ، والعبادة . . . أما الارتياض والتنزه ، فلا يقيم له وزنا . .

بيد أنه يقوم ظهر الخميس من كل أسبوع يغسل ملابسه ، ثم يخرج فى المساء يضرب قليلا فى الشوارع والزقاق حول الأزهر ، يستمع إلى الأخبار العامة يتحدث بها الناس فى المقاهى الكثيرة ، المنتشرة فى شوارع هذا الحى ، والتى لا يجلس أحد داخلها ، وإنما يجلس الجميع على الأرائك الخشبية فى الشوارع أمام المقاهى والبيوت . .

كما يستمع كذلك إلى الأغانى الشعبية التى تروقه من شاعر الربابة ، أو الأغانى البلدية التى تذكره بحياة الريف الجميلة فى قريته الهادئة ( العصلوجى ) قرب مدينة الزقازيق . . كل هذا وهو واقف فى الشارع ، أو سائر على مهل إذا لزم الحال ، لئلا يرتاب أحد فى أمره إذا طال وقوفه ، ويشك فى سلوكه . .

ثم يعود بعد هذه الجولة إلى مسكنه فى الأزهر الشريف ، وهو أسعد الناس حظا ، وأوفرهم نشاطا ، وسرعان ما يقبل على المتون يستظهرها استظهارا ، ثم يختم هذا بتلاوة جزء من كتاب الله ، ثم يروح فى نوم عميق . . . ! !

# ٣

ولأمر ما اضطر الشيخ عبد الفتاح لشراء بعض الأقمشة ، لعمل جلباب وقميص وسروال ، مما استنفد منه كل ما ادخره ، ولسوء الحظ أن والده تأخر فى إرسال النقود والزوادة . . ! !

ولم يجد مناصاً من الاقتراض من بعض زملائه الموسرين ، الذين أقرضوه خمسة وعشرين قرشا صاغا ، شعر بأنها أصبحت حملا ثقيلا عليـه ، فليس من عادته أن يقترض من أحد ، وكانت هذه ميزته ، ولـكن ماذا يفعل والظروف لا تواتى المرء كما يحب ، ولا تسعفه بما يريد ؟ !

وانقضى الشهر ، دون أن يرسل له والده شيئا فعجب لهذا وأرسل عدة خطابات ، يستفسر عن الصحة والعافيـة ، ويستعجل الزوادة والنقود ، فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وليس معه ماينفق منه .. ولا فى استطاعته أن يقترض أكثر مما اقترض ، وبخاصة وأن زملاءه لم يعد معهم ما يقرضونه إياه . . ! !

وكانت ليلة ليلاء . . لم يذق فيها طعم النوم ، لأن الأمر لم يقتصر على حاجته فحسب ، بل ابتدأ دائنوه فى مطالبته بما فى ذمته ، من هذه القروش الضئيلة ، التى لها فى حياتهم شأن وأى شأن . . ! !

لقد كان يفكر فى إلحاح وإلحاف ، ولم ينقذه إلا صوت المؤذن ، يعلن صلاة الفجر ، فأسرع إلى الميضأة ، وتطهر وتوضأ ، وخرج إلى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه ، ليجد فى ذلك الحمى المنيع متعة نفسه ، ولذة قلبه ، عسى الله أن يكشف عنه الغم ، ويفرج مابه من كرب يقاسى شدته ، ويكابد أهواله وأسقامه . .

يالله ، لقد فرغ ما عنده من كسيرات يسد بها الخلة ، ويمسك بها الرمق ، حتى إنه كاد أن يقترض رغيفا من جاره ، ولـكن نفسه لم تطاوعه ، وأنف أن تصل به الحاجة إلى هـذا الحد ، فظل طاوى البطن خمصان ، وكان بهذا فرحا فخورا ، فليس أشق

على النفس ، وأقسى على الفؤاد ، من دلة السؤال ومرارته . . ! !

لقد ذكر السلف ، وما كانوا يقاسونه فى هذه السبيل من شدة ، ويعانونه من بلاء ، وإن أحداً منهم لم ينج من ألم المسغبة ، وقسوة الحاجة ، فشد ذلك من أزره وقوى عزيمته ، واكتفى بالماء يوماً كاملا طعاماً وشرابا . ! !

٤

واستقام الصف الأول ، واستقامت حلفه صفوف كثيرة متتابعة فى انتطام عجيب ، يبعث فى النفس حب النظام والترتيب ، فتتعوده فى كل أعمالها دون أن تجد فيه شيئاً من العناء أو المشقة . .

وكبر إمام المسجد فى صوت ملؤه الخوف من الله ، والخشية الغامرة ، والورع والتقوى . . وجلجل الصوت فى أرجاء المسجد حينما كبر الناس من خلفه فى مثل هذه الخشية ، وذلك الخوف . . وكانت ثورة عاصفة مدوية . اتجهت فيها القلوب إلى الله خالقها وبارئها ، وأنه أكبر الكبراء ، وأعظم العظماء ، وأن ما سواه باطل وبهتان ، مآله الفناء والعفاء . . ! !

ثم هدأ المسجد قليلا وأخذ الشيخ الإمام يقرأ الفاتحة فى تؤدة وأناة متمثلا معانيها، وما كاد يقول : ولا الضالين ، حتى هدرت الأصوات ثانية ، مدوية فى أرجاء المسجد مرددة فى نفس واحدة ، متجهة إلى الملاذ الأسمى :

« آمين . . » ! !

كانت هذه الأصوات مختلطة . لا تكاد تفرق بين صوت وصوت ، بل كلها كصوت واحد ، له قوة أصوات هؤلاء جميعاً ، الذين يضج بهم المسجد من أقصاه إلى أقصاه ، وكأنما هى ثورة أعلنها هؤلاء المسلمون على الشيطان ، الذى هو عدو مبين للانسان . .

وارتفع صوت الإمام مرة ثالثة يدعو الله فى حرارة إيمان ، ويهتف من صميم قلبه ، مناجياً ربه . قائلا :

— اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت . . إلخ الخ

وكان الناس يؤمنون على كل دعاء . . ثم هوى ساجداً لله فى خشوع وخضوع ، وهوى الناس على الأثر فى تسليم وذلة . . لقد هوت إلى الأرض قامات طالماً تاهت كبراً وعجبا ، وملأها الزهو الشديد ، وكأنما لا ترى على وجه البسيطة أحق منها بالكبر والتعاظم ، وأجدر منها بالفخر والدلال . . ! !

واتهز الشيخ عبد الفتاح فرصة السجود ، فهو يعلم أن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد ، فأخذ يدعو الله كلما سجد . . يدعوه بحرارة المحتاج الذى لا يجد شيئا يتبلغ به ، أو يعينه على هذة الشدة العاصفة ، والضائقة الجائحة ، التى أذابت الشحم وأكلت اللحم ، وكادت توهن عظامه . . يدعوه أن يسهل له الأمر ، وأن يرزقه من لدنه رزقاً يقيه شر المسئلة ، وألم الاستجداء . .

وكان يطيل السجود . ويصعد من قلبه زفرات حرى ، هى الدعوات الذائبة من حرارة قلبه ، ولذعة فؤاده ، وكان يحس كأنما كبده أصبح فلذات متناثرة ، فاتصل ما بينه وبين الله . . ! !

وسلم الإمام وتابعه المقتدون به ، وارتفعت الدعوات متتابعة عقب الصلاة ، وارتفعت الأكف إلى أعلا وشخصت الأبصار نحو السماء . وأخذ كل يناجى ربه مناجاة خاصة ، ويدعوه بما يريد . .

وانطلق صوت رخيم مردداً :

— اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام . .

وتمثلت بعض العقول هذه المعانى الحية ، وظهر لها خطأ الناس فى ابتعادهم عن

هذه الحياة الروحية، التى تؤلف القلوب ، وتقوى العلائق ، وتجمع الناس جميعاً على الخير والهدى والصلاح ، والمحبة الدائمة ، والخير المطلق ، ولكن هى الاستجابة التى لا نهاية لها لداع أثيم ، ذلك هو داعى الشيطان . . ! !

وطفق المؤذن يختم الصلاة ، فقرأ آية الكرسى ، وسبح الله ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين والناس يتابعونه واحدة بواحدة . .

وتصافح المصلون ، كل يصافح جاره عن اليمين والشمال فى إخلاص وحب ووفاء . . إنها ظاهرة طيبة ، تصل القلوب بالله ، وتجمع النفوس على الخير ، وتؤلف بين الرغبات والميول . .

وصافح الشيخ عبد الفتاح من على يمينه ، ولكنه ارتجف حينما نظر إلى يساره ، وخشى أن يصافح ذلك الرجل العظيم ، الذى يدل مظهره على الغنى واليسار . وأنه لا بد أن يكون من ذوى الرتب والباشين الذين يسمع عنهم ولا يراهم إلا من بعيد فى المناسبات المختلفة من حين إلى حين ، فى موكب من المواكب أو يرى صورهم فى جريدة من الجرائد ، ومجلة من المجلات . . وأجفل قليلا ، ولكن الرجل كان أسبق منه ، فصافحه فى رفق ولين ، وأدب ولطف ، سرى عن الشيخ بعض ما داخله من الخوف واعتراه من الوجل والاضطراب . :

وعجب الموسر لهذه العمامة الكبيرة ، وذلك المظهر الوقور ؛ مع صغر السن ، وضآلة الثياب ، التى لا تصح أن تكون لخادم فقير . !

وقال الرجل مخاطباً الشيخ فى عطف وهدوء :

— إن مولانا من طلاب الأزهر الشريف .. أليس كذلك ؟ .

— أجل ياسيدى .

قالها فى تؤدة وأناة ، وقد زال عنه ذلك الخوف الذى كان يحس به ؛ وعاودته شجاعته وقوته وانطلاق لسانه حتى خيل إليه أن فى مكنته أن يقوم خطيباً فى هذا

الجمع الحاشد دون أن يخشى أحداً ، أو يرهب إنساناً ، على الرغم من جوعه الشديد ، وحرمانه الأليم ..

ووجد فى هـذا الحديث العابر باباً من أبواب الفرج ، لأن الرجـل الثرى كان منبسط الوجه ، متهلل الأسارير ، كأنما هو سعيد بالحديث معه وبخاصة عندما قال له :

— هل تتـكرم بزيارتنا يا أستاذ ؟ !

وصمت الشيخ عبـد الفتاح ذاهلا حائراً . . لقد خيل إليه أنه فى حلم ، إن الله سيفتح عليه ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ويرفع هـذا الضيم ؛ ويفرج السكرب الشديد . .

ورنت هـذه العبارة فى أذنيه مرات ومرات . . هل تسمح بزيارتنا يا أستاذ ؟. إنه لم يألف من الناس هذا الأسلوب المؤدب اللين الرفيق . . يا للسعادة والنعـيم .. طبعاً إنه يسمح بالزيارة ، وهل فى ذلك شك ؟ إنه فى حاجة إلى هذه الزيارة ليملأ بطنه الخاوى ، ويقيم أوده الواهى . فقال فى احترام :

— نعم .. ولى عظيم الشرف يا سيدى الـكبير .

## ٥

وذكر الشيخ عبـد الفتاح ربه ، وأنه لن يدعه لنفسه يعاني قسوة الحرمان ، ويقاسى مرارة الفاقة ، ولذعة الجوع .. إن فى هذه الدعوة أكلة طيبة على الأقل ، لم يأكل مثلها من قبل ، وفيه تشريف له وإعظام لقدره ، ورفعة لشأنه . !

يالله .. لابد أنه سبحانه وتعالى قبـل دعاءه ، واستجاب نداءه الحار ، ورجاءه الذليل ، وهو فى مكان الفضل الإلهى ، راكعاً وساجداً ، فى خشوع وتضرع وابتهال

وخرجا من المسجد ، وأحس الشيخ عبد الفتاح أن بطنه قد امتلأ وشبع ، وأن الله قد وهب له قوة من لدنه ، فهو لا يكاد يشعر بألم ؛ أو يحس بوهن ولا ضعف أو خور .. إن القوة لتتدفق فى بدنه تدفقاً قوياً ؛ وإن الدم الحار ليجرى فى عروقه

وشرايينه فيبعث فى جسمه النشاط والحركة والشجاعة والإقدام .

إنه يسير الآن جنباً إلى جنب مع هذا الرجل الثرى العظيم الذى تدل مظاهره على عراقة الأصل وطيب العنصر وأنه من أصل تركى ؛ من الذين لم تغرهم لذاذات الحياة ، ولم يؤخذوا ببهرجها اللامع ومظهرها الخلاب ،ولم ينتهج نهج قومه من الذين غرتهم المدنية الغربية ؛ فحسبوا التقدم هو لبس القبعة وترك الدين والتحلل من تكاليفه وأوامره واحتقار اللغة العربية والرطانة كما يرطن الفرنجة .

ليس هذا الرجل من هؤلاء وإنما ضم إلى عراقة الأصل وشرف المحتد التمسك بأهداب الدين فعرف طريقه إلى المسجد وإلى قلب الفقير والمسكين ؛ فاتجه بذلك إلى الله رب العالمين .

إنه رجل من المحافظين ، الذين يرميهم دعاة المدنيــة بالرجعية والتأخر ، لا لشىء إلا لتمسكهم بالدين فى قوة وصرامة ، وعزم وإخلاص . . إنه يسير بجانبه ، وقد وضع يده فى يده ، وكأنه طالب من زملائه الطلاب ، لا تفرق بينهما غير فروق السن . .

والتف الفقراء والمساكين حول هذا الرجل ، عند خروجه من المسجد فى هذا الصباح الباكر ، فأخذ يفيض عليهم من كرمه ، وسخائه حتى أرضاهم جميعاً ، ولم يرد سائلا أو ينهره ، وسرعان ما ارتفعت دعوات هؤلاء الفقراء والمساكين لهذا الرجل طالبة من الله أن يمد فى حياته ، وأن يطيل عمره ، وأن يوسع عليه رزقه ، وأن يبقى له أولاده وأحفاده سعداء آمنين ، بعيدين عن كل مرض . .

وكانت العيون شاخصة إلى الشيخ عبد الفتاح فى إجلال وإكبار لا عهد له به من قبل . . لقد أحس بالعظمة . . عظمة الغنى والثراء فى هذا الحين ، واعتقد تماما أن المال زينة الحياة الدنيا ، وأنه نعمة عظمى إذا استغله الإنسان فى الخير ، واستعان به على إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج ، والتوسعة على الفقراء والمساكين . . وكم فى البيوت من عائلات فقيرة ، وأسر محتاجة ، يمنعها الحياء أن تعلن أمرها ، وتكشف سرها ، وتبقى هكذا متضورة أياما طوالا ، ولها من ثقتها بالله خير معين على مقاومة الداء ،

ومجابهة الخطر ، والتجلد فى البأساء ، والصبر فى الضراء . . ! !

وجال فى فكره الكثير من أقوال العلماء والأدباء والشعراء فى المال ومزاياه ، وقيمته فى الدنيا ، وأنه عصب الحياة ، وأنه مناط السعادة إذا وفق الإنسان للشكر عليه ، وأداء ما فرضه الله من زكاة وحج وصدقة ومساهمة فى مشروعات الخير . .

وسار خطوات مع جاره الغنى ، جاره فى صلاة الفجر ، وخيل إليه أن يعرض عليه التفضل بزيارته أولا ، وبخاصة والأزهر على خطوات منهم ، ولكنه شعر بالهم ، وتذكر أنه لا يوجد فى خزانته ولا فى جيبه قرش واحد . . فكيف يذهب بهذا الرجل الوجيه ، ويجلس معه فى صحن الأزهر دون أن يقدم له شيئاً من طعام أو شراب على سبيل التحية ، وإكرام الضيف . . ؟ !

وصمت فى تباله وتصام عن نداء الواجب ، وتعام عن صوت الضمير ، والطبيعة الشرقاوية التى تدفع دائما إلى الإيثار بالغا ما بلغت حال الإنسان من الفقر ، فهو مادام يملك شيئا فمن السعادة أن يجود به فى فرح ومرح ، دون أن يجد للحرمان من هذا الشيء ألما بحال من الأحوال . .

وآلمه ألا يحصل هذه المرتبة — مرتبة الإيثار ، فينال بها أعلى الدرجات ، مثوبة من الله وفضلا — لأنه لا يملك شيئا يقدمه وهو فى حاجة إليه . . ! !

## ٦

وبهت الشيخ عبد الفتاح عندما رأى سيارة كبيرة فخمة تتقدم إليهما فى بطء ، وتقترب منهما فى عظمة ، وسرعان ما نزل منها السائق فى أدب ، وفتح بابها فى احترام ممسكا بالمقبض اللامع الجميل . .

لم يتقدم الثري الوجيه ، ولم يدخل إلى السيارة ولكنه قدمه هو فى أدب ووقار . بيد أن الشيخ عبد الفتاح اعتذر ، وأبى أن يدخل قبله ، فأصر على موقفه ، فلم يجد الطالب الأزهرى بداً من الدخول فى هدوء واطمئنان ، وهو يكتم ما يشعر به من سعادة ونعيم . .

لقد أخذ مكانه الوثير ، وكأنما يجلس على حشايا من ريش النعام الذى يسمع عنه ، ولم يره إلى الآن . . أيكون ماأعده الله من نعيم لعباده الصالحين أفضل من هذا وأحسن ؟ . .

إنه لم يتعود ركوب السيارات بل لم يركبها قبل الآن . . إنه تعود أن يركب النورج فى بلدته ، ويجد فى ذلك الركوب لذة وراحة لكثرة ما ركبه ، بل كان أحب شىء إليه حينما يذهب إلى البلدة فى أيام الحصاد ، أن يتعهد هو طوال بقائه هناك بركوبه فى وقدة الشمس وحمارة القيظ . . وكان يركب كذلك العربات الكبيرة التى تجرها الخيول والثيران ، تحمل محاصيل التفاتيش من جهة إلى جهة . .

وكان أخشى مايخشاه أن يركب القطار ، ولكنه بعدأن ركبه مرات عديدة اجترأ عليه وأصبح لايجد فى ركوبه مايدعو إلى الخوف والرهبة ، والذعر والاضطراب . . وإنه ليعزو هذه الطمأنينة إلى كثرة الآيات التى قرأها قبيل ركوبه فى كل مرة . .

وكان يرى هذه السيارات الفخمة المريحة ، تسير فى الطريق وتطوى الأرض طيا حاملة مابها من كرائم الأسر ، من سادة وسيدات ، تفوح منهن العطور الجميلة ، ويضعن فوق وجوههن غلائل رقيقة شفافة ، تزيد هذه الوجوه جمالا وروعة ، فيخيل إليه أن القصور تتحرك بمن فيها ، وأن ركوبها حلم من الأحلام ، وأمل الآمال وأمنية الأمانى ، وأنه سيظل على ذكر من هـذا حتى يدخله الله الجنة ، فيطلب أن يركب سيارة من هذه السيارات ، أليس فى هذه الدار كل مايتمنى الإنسان ويتخيل ؟ !

لقد كان يسلى نفسه ، ويسرى عنها ماتجد من ألم وهم ، ونصب وكرب ، بقوله فى صوت خافت : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، والآخرة جنة المؤمن وسجن الكافرين . . ! !

فكأنما كان أصحاب هذه السيارات جميعا فى نظره من الكافرين . .

إنه الآن يركب واحدة من هذه السيارات العجيبة التى تطوى الأرض طيا ، كما يقول مدرس الإنشاء فى وصفها وتصل بين أطراف البلاد النائية ، وتقرب البعيد

فإذا هو بعد زمن يسير قريب جدا . . فهل فى هذا أى حرج ؟ أهو آثم بركوبها ؟ أليس هذا من النعيم الذى لايليق بالمؤمن لأنه معجل فى الدنيا ، وإن المؤمن ليؤثر أن يدخر له نعيمه فى الآخرة ؟ !

هذه مسئلة فيها شك ، أو بالحرى فيها قولان . . ! !

وغلب عليه بعد لأي جانب الأمان والسلم ، وأنه من المؤمنين ، لأنه لا يمتلك هذه السيارة ، بل يجلس فيها فقط . . وما كاد يطمئن إلى نجاته من النار بهذا التمحل ، حتى أخذ يعرض الأمر من جديد على عقله ليرىء هذا الرجل الوجيه الذى أسدى إليه هذه النعمة العظيمة ، واليد الجليلة الشأن . .

لماذا يرى من يركب أمثال هذه السيارات من الكافرين ؟ هدا وهم خاطىء دون ريب ، يجب أن يكون من أعاظم المؤمنين . . وكاد يتورط فى تعليلاته ، وأدلته وبراهينه ، ويروح فى مباءة من الاعتراضات والردود ، لولا أن الله مد إليه يد المساعدة ، وانتشله من هذه الوهدة السحيقة التى يضطرب فيها دائما الفكر الأزهرى العتيق حينما قال له الوجيه الثرى :

— مرحبا بك يامولانا الشيخ . .

— مرحبا بكم ياسيدى البك . : حياكم الله وأجزل لكم الفضل . .

— أأنت من القاهرة ؟ !

— لا ياسيدى . .

— إدن فمن أى إقليم ؟

— من الشرقية .

— أنعم بها وبأهلها . . إنهم قوم كرام . .

— إنه بعض ماعندكم من خلال الخير ياسيدى . .

— لقد ظل أخى يرحمه الله مديراً للشرقية ثلاثة أعوام ، كانت أسعد أيامه على الإطلاق . .

— إنه من كرم أخلاقكم ، وطيب عنصركم . .
— عفوا يامولانا بارك الله فيك . .

## ٧

وساد الصمت ، وأخذ البك يسبح الله فى هدوء وطمأنينة ، وأخذت أصابعه توالى حركاتها السريعة على مسبحته ، فتحدث صوتا موسيقيا فيه توقيع جميل . .

أما الشيخ عبد الفتاح ، فقد شغل عن التسبيح ، وقراءة ماتيسر من القرآن كعادته كل صباح ، بالنظر إلى الطريق العام ، الذى تطويه السيارة طيا ، فيبصر المارة وهم سائرون على أقدامهم ، فيرى نفسه خيرا منهم لقد بكر كل منهم إلى عمله ، وإنهم بلا شك من طبقات العمال والصناع الذين لابد لهم من الذهاب مبكرين إلى مصانعهم حيث ينتظرهم عمل شاق عسير ، يظلون فيه طوال النهار لقاء أجر زهيد لا يوازى عملهم الضخم العظيم . .

وكان يخرج دماغه بعمامته الكبيرة البيضاء من نافذة السيارة ليراه المارة ، ويعلم من لم يعلم أنه يركب سيارة فخمة كالعظماء الموسرين سواء بسواء . . ! !

وكانت العيون تشخص إليه فى عجب ودهشة وحيرة ، وسرعان ما ترتسم على الشفاه بسمات متناقضة فيها كثير من الألم والسخرية ، والإشفاق والرثاء . . ! !

وأفاق الشيخ عبد الفتاح من خياله ، حينما وقفت السيارة أمام قصر كبير ، شامخ البناء ، تحيط به حديقة فخمة ، بها كثير من الأشجار الوارفة الظلال ، وفرشت طرقاتها بالحصباء والرمال ، وفاحت منها روائح الورد والفل والياسمين ، ورصت على جوانب الطرقات أصص جميلة بها أنواع مختلفة من الزهور ، التى لم يرها قبل هذا ، ولكنه كان يسمع بها من مدرس الإنشاء ، حينما يصف حديقة من الحدائق العامة أو قصراً من قصور العظماء .

يالله .. ما هذه الرحلة الجميلة التى أتته على غير انتظار ؟ . إنه لا يكاد يشعر الآن

بالجوع كما كان يشعر .. بل إن بدنه من القوة والاحتمال بحيث يمكث على هذه الحال أياماً دون أن يجد عناء أو تعباً . . إنها المناظر الجميلة البديعة التي تذهب السآمة ، وتبعد الكلال والملال ، وإنه الفضل الإلهي حيث ينعم على بعض الناس بجزيل النعم ، ويجمع لهم بين الأولى والآخرة ، وما ذلك على الله بعزيز .

وحار عبد الفتاح فى أمره ، ولم يعرف فى أية ناحية من نواحى القاهرة هو الآن ؟ ثم كيف يعود إلى الأزهر بعد ذلك ؟ وتطلع حواليه فإذا به يلمح دكان بدال ، فقرأ (لافتة) كبيرة : « بقالة المنيرة » . !

واطمأن خاطره ، وارتاح باله ، وعلم أنه فى ذلك الحى العريق الذى يسكن فيه العظماء والكبراء ، وأنه رأى الآن ما كان يسمع عنه من قبل ، ولا يعرف من أمره شيئاً . . إنه سيقبم الدنيا ويقعدها عندما يرجع إلى الأزهر ، ويعود إلى إخوانه يحدثهم خبر ما رأى . . إنهم بلاشك سيقابلون حديثه بالعجب والدهشة ، والوجوم والإنكار ، مما يعيد إليه ما كان يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع الكافرين والمشركين ، عند ما يحدث له ما يكلف بتبليغه وأدائه ، فلا يجد بداً من قصه عليهم ، فيرمونه بالكذب ويتهمونه بالجنون .!

## ٨

وغاصت أقدام الشيخ عبدالفتاح فى البسط الغالية الثمينة ، وخيل إليه وهوداخل أن يخلع حذاءه القذر القديم ، الذى بلى فى غير موضع ؛ وكادت الرقاع التى به تنسيك لونه وشكله ونوعه . . وما كاد يدخل حجرة الاستقبال حتى أخذت عيناه تدوران فى محاجرهما فى سرعة ودهشة ، فهذه لوحات لمناظر جميلة ، رسمت بالزيت ، فكانت رائعة المنظر جميلة الشكل ، وهذه صور مختلفة الحجوم والشكول لأفراد الأسرة الأموات والأحياء . .

لالا .. إنه الآن فى حلم ، وماذا تكون الجنة إذن ؟ وعلى أى حال من الراحة ،

ودرجة من النعيم ؟ ! إن الصبر فى الدنيا والبلاء الشاق والاحتمال الرهيب ، لأهون من أن يكون ثمناً للجنة التى أعدها الله لعباده المؤمنين ، ما دام أمثال هذا النعيم الدنيوى لايساوى شيئاً بجانب ذلك النعيم الموعود .!

وامتدت المائدة ، ودعى لتناول طعام الإفطار ، مع صديقه الوجيه صاحب الدار .!

يا لله ! ما هذا الإسراف والتبذير ؟! .

إنه لا يكاد يعرف لهذه الأنواع أسماء .. فأين له من علم حتى يسميها بأسمائها الحقيقية التى يخشى أن يسأل عنها فلا يجيبه أحد فيكون عرضة للسخرية ، وهدفاً للتندر والاستهزاء .. ولكن ممن ؟ أمن هذا الرجل الصالح الذى جاء به إلى داره ، ويقدم له من صنوف الطعام فى الصباح ما لم ينعم به فى أسعد الأوقات ؟.

لالا .. إن هذا لن يكون ، لابد أن يسأله ..

وكأنما فهم الرجل ما يجول بفكر الشيخ عبد الفتاح ، فأخذ يقدم له الأنواع مشيراً إليها واحداً بعد الآخر فى لباقة وأدب ، لئلا يجرح شعوره ، وينال من كرامته فكان يقول له :

— هذا مربب مشمش .. وهذا مربب تين .. وهذا جبن رومى .. وهذه فطائر خفيفة سهلة الهضم ..

وبهذا أتيحت الفرصة له ، فعلم ما لم يكن يعلم ، وأكل فى شهية ، حتى امتلأ بطنه وخيل إليه أن عينيه أنارتا بعد إظلام ، وأن الحياة أشرقت فيها شموس جديدة لاعهد له بها من قبل ، وأنه أصبح الآن هو ومالك هذا البيت سواء .. ولا مانع من أن يعود بعد دقائق إلى حياته الأولى فى « رواق الشراقوة » بالأزهر الشريف ، ويكفيه أنه جرب لذة الحياة ..

وشرب الشاى الممزوج باللبن ، وأحس بأنه يسرى فى عروقه ويتدفق فى شرايينه وأنه لا يكاد ينزل فى حلقه حتى يصبح دماً نقياً يبعث فيه الحياة والنشاط ..

وانتظر أن تنتهى الزيارة ، ويأذن له البك بالانصراف ، على أن يلقاه إذا أراد

لقاءه فى المسجد الحسينى ، أو فى الأزهر إذا شاء ، ولـكنه فوجىء بهذا السؤال :

— ما رأى مولانا فيمن حلف بالطلاق الثلاث أن لايأ كل ولا يشرب ؟

وصمت الشيخ قليلا مذهولا حائراً .. إنها مسألة فيها نظر ، ولابد من التفكير والبحث العميق ، فقال :

— من الذى حلف هذه اليمين ؟

— أنا ..

وكأنما شعر الرجل بخطئه فأخذ يبرر فعلته بقوله :

— والله يامولانا ! لقد قلت ما قلت الليلة ، وأنا لا أكاد أفهم ما أقول . . لقد كنت فى حالة غضب واستفزاز ، وكنت مرهقاً بالتفكير فى بعض الموضوعات الخاصة بضيعتى فى الفيوم ، ولم تدرك ذلك زوجتى ، فأثقلت على ببعض الأسئلة التى اعتبرتها محرجة لاتليق بى ، وكنا فى ذلك الحين نتناول طعام العشاء ، فتركت الأكل وحلفت هذه اليمين . !

## ٩

وأدرك الشيخ عبد الفتاح السر فى أن البك لم يتناول معه طعام الإفطار ، وأنه ظل يقدم له الأنواع التى أمامه ، دون أن يشاركه ، معتذراً بأن هـذا ليس وقت إفطاره المعتاد ، وأنه لـكبر سنه يحرص على أن يتناول وجبات طعامه فى الميعاد المحدد . .

ولـكنه ارتبك ، وحار فى أمره ، وآثر التروى فى الإجابة ، وسرعان ما فتح الله عليه ، حينما تذكر أن الخلع مخلص من الطلاق الثلاث ، وأنه شرع لحكمة عظيمة هذه ناحية منها . . وتذكر متن أبى شجاع فى فقـه الشافعية فى هذا الموضوع ، فتلاه بنصه فى صوت خافت :

« والخلع جائز على عوض معلوم ، وتملك به المرأة نفسها ، ولا رجعة له عليها إلا بنكاح جديد ، ويجوز الخلع فى الطهر ، وفى الحيض ، ولا يلحق المختلعة الطلاق» .

هذا عظيم . . بيد أنه لا يليق به أن يجيب بهذه السرعة وإنما عليه أن يظهر المسألة على صورة أخرى ، حتى يكون لها وقع فى النفوس ، وأثر فى القلوب . .

أجل إنه لو أجاب بسرعة لمرت المسألة سهلة هينة وكأنها أمر لا خطر فيه ، وأنها من التفاهة بمكان . . وماذا عليه لو أعطاها صورة من الأهمية ، وكساها ثوبا من الجلال لينال بها شيئا من رزق الله ؟ !

وأجابه صوت خافت داخلى :

— لا شىء . .

واطمأن إلى هذا الصوت ، ووجد فى هذا الباب لونا من ألوان الفرج ، لاحرج فيه ولا إثم . . إنه طالب فقير ، ولا يكاد يمتلك من الكتب ما يساعده على الدرس والبحث ، مع رغبته الشديدة فى التبحر والاستذكار ، فلا مانع أبداً من انتهار الفرصة ليحصل على كتاب أو كتابين من كتب الفقه الشافعى ، التى تفيده وتساعده على متابعة حياته الدراسية الحبيبة إليه . .

وواتته الفكرة سريعاً فأجاب :

— إن هذه المسألة يا سيدى الفاضل تحتاج إلى بحث بعض الكتب الكبيرة فى الفقه ، وإننى أذكر أن كتاب الخطيب ، وكتاب المنهاج ، وحاشية الشرقاوى على التحرير ، قد تعرضت لهذا الموضوع . . بيد أننى لا يمكن أن أقطع برأى الآن حتى أرجع إليها فى إحدى المكتبات العامة ، أو مكتبة الأزهر . . وسيتطلب هذا منى بعض الوقت لارتباطى بمواعيد هذه المكتبات . .

— ألا تباع هذه الكتب ؟ !

— أجل إنها تباع فى المكتبات التى فى حى الأزهر . .

— إذن فما الداعى لأن تذهب إلى المكتبات العامة ، وفى مكنتك أن تقتنى هذه الكتب ، وتكون فى حوزتك ؟

وصمت الشيخ عبد الفتاح ، وقد أدركه شيء من الحياء ، وفهم الوجيه الثرى ما يحول بخاطره ، وأن المانع له دون ريب ضيق ذات اليد ؛ فقال على الفور :

— هاك بعض النقود لتشترى بها هذه الكتب على أن تكون لك تعتمد عليها فى بحثك ومطالعتك . .

وقدم إليه عشرة جنيهات فى بساطة وعدم اهتمام ، وكأنما يقدم له عشرة قروش .

— ولكن هذا المبلغ كثير يا سيدى . .

— لا لا . . أنت حر فيما يتبقى منه ، تتصرف فيه كما تحب ، والسيارة بالباب تحت أمرك ، لتشترى الكتب التى تريدها ، وتأتينا بسرعة . فأنت تعلم أننى لا أطيق الجوع ، وعسى أن تجد لنا حلا . .

— سمعا وطاعة يا سيدى ، وأرجو الله أن يوفقنى إلى ما أريد . . .

## ١٠

وبقى الوجيه مع زوجته التى امتنعت هى الأخرى عن الأكل مشاركة منها لزوجها ولكنها أوسعته لوما وتأنيباً لاندفاعه مع عواطفه ، وحلفه يمين الطلاق ، الذى هو أبغض الحلال إلى الله ، مع أنه لم تسبق له عادة بذلك . .

وكانت أخشى ما تخشاه ألا يصل الشيخ عبد الفتاح إلى حل هين سهل ، تنكشف به الغمة ، وتنحل العقدة ، وتنفرج الكربة . . وإن معنى عدم وصوله إلى حل معقول أن تطلق من زوجها بالثلاث . . يالله إنه لهول شديد لا يمكنها احتماله ، فماذا يقول الناس عنها إذا طلقت على هذه الصورة الأليمة ؟ وماذا تقول عنها الأسر والعائلات التى تتصل بها اتصالا وثيقا ؟ إنها الفضيحة والعار ، لا شك فى هذا ولا مراء .

إن زوجها لا بد أن يأكل ، ومن المستحيل أن يظل بلا طعام ولا شراب ، ومعنى هذا أن يحنث فى يمينه . وتكون الطامة التى لا مناص منها ، ولا مندوحة عنها . .

إن هذا الشيخ الصغير لو حل الموضوع فى سلام بشريعة الله ، لاستّحق منها بالذات الإكرام الذى لا يقاس به إكرام بحال . . إنه سينقذ شرفها ، ويعمر بيتها ، ويحفظ لها كرامتها ، ويخلقها من جديد خلقا آخر . وينقذها من لذعة التفكير الأليم ، الذى يسيطر عليها الآن ، ويكاد يعصف بها عصفا شديداً ، ويؤلمها أشد الإيلام . .

إنها فى نعمة ورغد من العيش ، فضيعة زوجها تدر عليهم من الخيرات ما يكفى لأن تحيا عشرات الأسر بجانبهم عيشا رغداً ، كله السعة والرخاء ، ولـكنها الآن لا تشعر بهذا النعيم ، لـكثرة مشاغلها من هذه الناحية . . إن هذا الصباح مع أنه مشرق جميل ، لا تشعر بإشراقه وجماله ويخيل إليها أنه مظلم معتم ، لا يشع فيه ضوء ولا نور . . ! !

يالله ! إن حياتها الزوجية الآن بين يدى هذا الطالب الأزهرى الصغير . فمن يدرى ماذا ستكون نتيجة بحثه وتنقيبه فى هذه الـكتب الصفراء ، التى تمثل اكفهرار الزمن ، وقساوة الأيام ؟ !

وهكذا ظلت الزوجة على أحر من الجمر ، تنتظر الفتوى التى ستقرر مصيرها ، فإما الهدوء والاستقرار ؛ وإما تشتيت الشمل ، والفضيحة والعار . . فهى تعلم أن الطلاق الثلاث يفرق بينها وبين زوجها إلى الأبد ، أو . . أو تنكح زوجا غيره ، ثم تعود إليه مرة أخرى ، وهذا مالا تقبله ولا ترضاه . .

ولم يكن زوجها بأقل منها اضطرابا وقلقا ، إذ تمثلت له فعلته فى صورة قبيحة ، وأنه ما كان يصح أن يقدم على ذلك ، ويحلف هذه اليمين مهما كان الأمر ، وبلغ به الغضب ، وإن الإنسان الذى لا يملك نفسه عند الغضب لا يستحق أن يسمى إنسانا . .

واتجه الرجل بقلبه إلى الله نادما ، ضارعا إليه أن يعفو عنه ، ولا يفضحه فى آخر أيامه ، وإنه قد اعتزم أن لا يذكر هذا اللفظ أبداً على لسانه . . لفظ الطلاق . . فإنه أخطر شىء على البيوت ، يهددها دائما بالدمار ، ويقوض الحياة الزوجية تقويضاً ، بلا رحمة ولا إشفاق . .

ويل للانسانية الناعمة من الإنسان الذى يعرض حياة البيت إلى أمثال هذه الترهات ، وذلك العبث الصارخ ، الذى لا يليق بشخص له فكر وعقل ، وله فى الحياة أمانى وآمال ، لا تستقيم له إلا إذا هدأت حياته المنزلية ، واستقام له العيش ورغد ، واستقر به المقام وطاب . . ! !

وعلقت العيون بالباب تنتظر أوبة الشيخ ، وأصاخت الآذان إلى صوت السيارة تقله من رحلته المباركة إلى المكتبات العلمية الدينية ، والأزهر الشريف . . ! !

## ١١

اشترى الشيخ عبد الفتاح ثلاثة كتب قيمة من فقه الشافعى ! الخطيب ، المنهاج ، حاشية الشرقاوى على كتاب التحرير . . وكان يتمنى شراء هذه الكتب من زمن بعيد . . وعجب لصاحب المكتبة ؛ الذى نظر إليه نظرة ريبة وشك وهو يعطيه الثمن دون مبالاة ، وعهده بالشيخ عبد الفتاح فقيرا لا يملك ثمن كتاب واحد من هذه الكتب ، وما كان أشد عجبه ، حينما وجده يركب سيارة فخمة ، يقودها سائق يرتدى حلة غالية جميلة الشكل ، بينا الشيخ عبد الفتاح يرتدى جلبابا لا يقوم بثمن إذا أريد بيعه ، ولا يقبل إنسان أن ينظر إليه . . ! !

لقد أشفق الرجل صاحب المكتبة على هذه السيارة ، ومقاعدها التى ستلوثها دون ريب ملابس الشيخ عبد الفتاح . وتؤوى عدداً لا بأس به من القمل والبق والبراغيث وهز الرجل رأسه هزة دهشة واستغراب ، وقال :

— لاحول ولا قوة إلا بالله . . لله فى خلقه شئون . .

بيد أنه اعتزم أن يستفهم عن سر هذا الموضوع إذا قدر له ورأى الشيخ عبد الفتاح مرة أخرى . .

وشعر الرجل بألم عنيف . . ذلك لأنه باع له الكتب بالثمن الذى يبيع به للطلاب ، فكيف فعل هذا ؟ كان يجب أن يضاعف له الثمن ، ويغالى فيه . . ولكنه تذكر أنه

لم يره يركب السيارة ! إلا بعد أن اشترى منه ما يريد ، فوجد فى نفسه ألماً ونصباً وعناء ، وانطوت نفسه على هم شديد ، ورمى نفسه بالغفلة والبله والجنون . .

ولم يشأ الشيخ عبد الفتاح أن يمضى إلى البيت فوراً ، ولكنه أراد أن يتحدث بنعمة الله ، وأن يرى إخوانه وزملاءه هذه السيارة الضخمة التى ينعم بركوبها ويتصرف فيها الآن كيفما يشاء ، فأمر السائق بالذهاب إلى الأزهر ، ليأتى ببعض الأوراق اللازمة ؛ فأطاع . .

وهرول الطلاب من كل حدب وصوب ، والتفوا حول السيارة الواقفة أمام باب الأزهر الشريف ، وأخذ بعض صغار الطلاب يدورون حولها فى سذاجة وطهر ، ولم يكتف بعضهم بالنظر ، فأخذ يلمسها فى تأمل ، ويجد لذة عجيبة عندما يشعر بنعومتها ويحس بملاستها . .

ولم يجد السائق بداً من الصمت ، فمكث فى مكانه لا يتحرك ، وكان رجلا طيب القلب ، يشعر بالإشفاق والعطف على هؤلاء الطلاب المحرومين من متع الحياة ، ونعيم الوجود ، وتكاد حياتهم الروحية تباعد بينهم وبين أهل زمانهم من الذين عرقوا فى المتع واللذاذات فترك لهم الفرصة للتمتع برؤية السيارة واختبار أجزائها ، وكأنهم يريدون شراءها ، ويعتزمون دفع ثمنها ، فهم يخشون أن يفوتهم بعض أجزائها دون رؤية أو اختبار ..!!

وكان فى مكنة الشيخ عبد الفتاح أن يترك الكتب التى اشتراها فى خزانته ، بعد أن يقرأ الموضوع الذى يود قراءته والإطلاع عليه ، ولكنه أراد أن يعطى الأمر صبغة خاصة ، فترك الكتب فى السيارة ليذهب بها إلى قصر ال ( بك ) وأخذ يحدث زملاءه فى « رواق الشراقوة » بعض الأحاديث التى لا داعى لها ، ويخبرهم عن عن السيارة الجميلة ولذة ركوبها ، وما فيه من متعة ، فيقبل كل من يسمع ذلك معه ، ليتمتع هو الآخر بلذة النظر .

وشق الشيخ عبد الفتاح طريقه بين إخوانه وزملائه وفتح باب السيارة وجلس فيها فى عظمة وفخار ، ولم تمض لحظات حتى كانت السيارة فى طريقها إلى الدار ، وقد

عقدت الدهشة والعجب ألسنة هؤلاء الطلاب حينا ، ثم اندفعت هذه الألسنة تلوك هذا الموضوع ، مختلفة فيه طرائق لا حصر لها ، ولكل رأى ، قل أن يتفق مع رأى الآخر ، ويجتمع معه فى قرن . . ! !

## ١٢

وما كاد الـ ( بك ) يسمع صوت السيارة حتى هرع لاستقبال الشيخ الجليل ، وقلبه يخفق بشدة ، ويضطرب فى عنف ، فما أشق انتظار النتيجة ، وبخاصة فيما يتصل بناحية الزوجية ومالها من قداسة وإجلال . .

ولم تكن زوجته بأقل منه اضطراباً وخوفا ، فهذه الفتوى لها أعظم الأثر فى حياتها . . إما استقرار وطمأنينه ، وهدوء ودعة ، وإما اضطراب وانفصال وفضيحة وعار . .

واندفع الشيخ عبد الفتاح يقمز الدرج قفزا ، وكأنما يسير على قلوب من فى القصر ، وخلفه الخادم يحمل الكتب ، وينوء بها حملا ، ولكنه لا يبدى امتعاضاً أو تأففا ، ما دام هذا فى طاعة سيده وجلبا لرضاه . .

وجلس الشيخ عبد الفتاح بين ترحيب وإكرام ، وتناول كتابا من هذه الكتب ، وأخذ يتصفحه فى تؤدة حتى وصل إلى باب الخلع ، فقرأه فى أناة ، ثم وضعه بجانبه ، وأخذ الكتاب الثانى ، وفعل به كما فعل بالأول ، ثم تناول الثالث ، وفعل به ما فعل بسابقيه . . وهكذا حتى اطمأن إلى الحكم ، وعلم أن الخلع حقا مخلص من الطلاق الثلاث وأن معلوماته لا تزال صحيحة سليمة ، وأن كتاب أبى شجاع فى فقه الشافعى كتاب لا مثيل له . .

وكان ( البك ) لايزال ينظر إليه بلهفة وشوق ، وهو على أحر من الجمر ، وإذا الشيخ يتحرك فى مكانه ، ويقول بصوت عال فيه رنة الفرح والسرور ، وكأنما ليشارك هؤلاء فرحهما :

— أبشر يا سيدى . . أبشر . . لقد وجدت حلا . .

وما كاد ينطق بهذه العبارة حتى قام الرجل المكروب إليه يقبل رأسه فى شكر عميق ، ودموعه تملأ عينيه ، وظلت مترجحة لا تغيض ولا تفيض ثم جلس فى انتظار شرح الحل الذى يراه الشيخ الفاضل الذى أرسله الله له يصحح له خطأه . .

وتحرك الشيخ عبد الفتاح قليلا ، وملأه نوع من الغرور حينما لمح خيال الهانم من بعيد ، حائرة تتسمع ما يقال ، وقد بدا عليها النشاط والقوة ، وكأنما انتشلت من وهدة ، وأنقذت من هوة عميقة . . ثم قال :

— الحل يا سيدى هو الخلع . .

— الخلع ! ما هو الخلع ؟ لا أكاد أفهم . .

— الخلع يا سيدى فرقة بين الزوجين بعوض مقصود تدفعه المرأة للزوج نظير خلعها عنه . .

— إذن فهو طلاق ؟

— نعم هو كالطلاق سواء بسواء ، إلا أنه يقع طلقة واحدة وبذلك يخلص من الطلاق الثلاث . .

— وهل يمكن أن أراجعها بعد الخلع ؟

— نعم لك ذلك ، ولا بد من عقد جديد . .

وشعر الشيخ بأن الهانم تزغرد ، ولكن فى صوت خافت خشية أن يشعر بها أحد ، فسر قلبه ، واطمأن فؤاده . .

## ١٣

وأطرق الشيخ عبد الفتاح قليلا إلى الأرض ، وأحس بثورة فكرية عنيفة ، وشعر برهبة الموقف الذى هو فيه الآن ، فلا عهد له به من قبل . . زوج وزوجه ، كلاهما جالس أمامه فى احترام ووقار ، ينتظر ما تنفرج به شفتاه ، وكأنما فيما سيقول

سعادتهما الأبدية ، وكل حظهما من الحياة ، وأملهما فى الوجود . . واستعان بالله وقال فى رجفة خفيفة ، ورعشة لم تخف على الزوجين كليهما ، وهو ممسك بسوار من الماس دفعته إليه الزوجة لهذا الغرض :

— قولى : « خالعنى على هذا السوار الماسى » .

فرددت الزوجة قوله حرفياً فى صوت مرتفع لئلا تخطىء فى العبارة ، أو تنسى كلمة ما . .

ثم اتجه إلى الزوج وقال له :

— قل : « خالعتك على هذا السوار الماسى . . »

فردد الزوج قوله فى صوت مرتفع دون أن يفهم شيئاً مما يقول . .

وخفتت الأصوات ، وشملهم جميعاً سكون عميق ، وكأنما تعمد الشيخ عبد الفتاح ذلك ليبعث فى قلبها شيئاً من الرهبة والخوف ، ويشعرها بعظم التبعة والمسئولية ، وأن الأمر جد ليس بالهزل لاتصاله بأقدس الروابط ، وأجلها أثراً فى الحياة . .

وأخيراً قال فى تؤدة وأناة :

— الآن أصبحتما غير زوجين . .

وتلاقت أعين الزوجين فى حيرة ودهشة وتساؤل قلق ، وفهم الشيخ ما يجول في خاطرها فقال :

— الخلع كالطلاق سواء بسواء . . ولقد أجمع عليه الصحابة والعلماء ، والدليل عليه قبل إجماعهم قول الله سبحانه وتعالى : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً . . » صدق الله العظيم . وقوله عليه الصلاة والسلام فى امرأة ثابت بن قيس : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » فهنا انفصال نظير عوض من الزوجة ، وهو أول خلع وقع فى الإسلام . . إن الخلع فرصة للزوجة فى حالة مضايقة الزوج لها ، فيمكنها والحالة هذه أن تخلص نفسها منه ، من سطوته وجبروته ، وسوء استغلال حقه الذى جعله الله له ، يمكنها أن تفتدى نفسها بالعوض الذى تدفعه للزوج .

وإن الزوج كما جاز له أن يملك الانتفاع بالبضع بعوض ، جاز له أن يزيل ذلك الملك بعوض أيضاً . . فالنكاح كالشراء ، والخلع كالبيع . .

وتململ الزوج قليلا فى مقعده ، لأن هذا التمثيل لم يرضه إلى حدما ، وقال فى هدوء :

— يخيل إلى أن هذا اتجاه بالتعاليم الدينية إلى المادية ، وأن الشرع الشريف لا يقصد هذا بالضبط . .

— ربما يكون فى تمثيلى لون من ألوان المادية ، ولكنى لا أرمى إلى هذا ، وإنما هو مجرد التشبيه وتقريب الموضوع إلى الأذهان ، ويهمنى كثيراً أن نفهم روح التعاليم ولو بمثل هذا الاتجاه . .

— هذا حق لا مرية فيه ، فلضرب المثل قيمته ، وأثره فى النفس ، وإن كتاب الله الكريم لحافل بالمثل يوضح بها الغامض ، ويكشف بها الخفى ، ويقرب بها البعيد .

— نعم هو كما تقول يا سيدى ، وأعتقد أن الموضوع الآن قد انجلى غامضه وتكشفت خفاياه ، ولم يعد لفظ الخلع بالغريب الخفى ، وإننى لأعتبر تطبيقه الآن على هذه الحال توفيقاً من الله . .

قال الزوج فى لهفة :

— الموضوع مفهوم ، ولكن ما هى النتيجة من هذا كله ؟

— النتيجة يا سيدى أن الطلاق الثلاث الآن لا قيمة له . . فيمكنك أن تأكل وتشرب دون أن تخشى شيئاً ، لأن زوجتك الآن طالق ، فإذا أكلت أو شربت لا يؤثر هذا فى عدد الطلاق . . فقم إلى طعامك الآن ، وإنى فى انتظارك حتى تفرغ منه كما تحب . . لأنى سأعقد لك على زوجتك من جديد لتمسكها على ما بقى من عدد الطلاق . . ! !

## ١٤

وأخذ الزوج يلتهم طعامه فى سرعة وفرح ، فلقــد أصبحت المشكلة فى مرحلتها الأخيرة ، مقتربة من الخاتمة ، فعسى أن تكون سعيدة بإذن الله . . إنه متفائل بهذا الشيخ الصغير .. إنه كبير فى نظره إلى أبعد حد ، لقد أنقذه من ورطة ليس بعدها ورطة . . يجب أن يكافئه خير مكافأة ، فإنه أهل لذلك . .

وبينما كان يتناول طعامه ، كانت الزوجة فى حجرة زينتها تلبس هــذا الثوب ثم تخلعه ، وتلبس ذاك ثم تتركه . . وهكذا ظلت تلبس وتخلع ، وتقف أمام المرآة ثم تدبر ، وتدور على عقبها تارة ثم تعتدل . . لقد كان هناك شعور باطنى ملك عليها حواسها ومشاعرها . . فلابد أن تتزين أروع زينــة . . ولم لا ؟ أليس هى الآن عروساً سيعقد عقدها من جديد ؟ !

وأبت طبيعة المرأة إلا أن تبعث فى شراء بعض الحلوى من الأنواع الفاخرة التى تناسب المقام ، وليشعر من فى البيت أنهم فى يوم عرس ، ينعمون فيه بما لذ وطاب .

وخيــل إليها أن الزمن رجع بها القهقرى عشرات الأعوام ، فأحست بالغبطة والسرور ، والفرح الغامر ، وشعرت كأن الشباب يتـدفق فى شرايينها ، ويجرى فى دمائها حاراً عاصفاً ، وأسرعت إلى المرآة ، وأنعمت النظر فلم تر أثراً لتلك الشــعرات البيض التى كانت تعلن عن سنها ، وتنبئ عن حقيقة عمرها . . وكانت فى مفرقها كالسيف المصلت فوق الرأس ، يبعث الرهبة والفزع فى القلوب ، والخوف والهلع فى الأفئدة . . ثم أنعمت النظر ثانيــة فى المرآة ، نخيل إليها أنها لا ترى تلك التجعدات التى كانت تنتشر فى وجهها وفى رقبتهــا ، وتذكرها بالقبر ودنو الأجــل المحتوم من حين إلى حين ، والتى بذلت فى سبيل محو أثرها طائل الأموال . !

يا لله ! ما أعجب السرور والفرح .. إنه يعــمل فى بدن الإنسان عمل السحر ،

فيعيده إلى الحياة الراغدة الناعمة ، ينسى فيها همومه وأحزانه ، ومشاكله وأتراحه إلى حين .

وهكذا ظلت هذه المرأة تقفز هنا وهناك وهى كتلة متدفقة من الفرح والسرور حتى أحست بزوجها ينتهى من طعامه ، ويتجه حيث يجلس الشيخ عبد الفتاح ..

إنها لتكن لهـذا الفتى الأزهري المبارك كل خير وإكبار وعرفان للجميل ، وستجزل له العطاء ، ليدرك أنه أدى إليها صنيعاً لاينكر ، ومعروفا لاينسى ، وأنها خير من يجازى بالإحسان إحساناً ، وبالمعروف معروفا ، وليتردد على القصر من حين إلى حين ، لتشملهما بركته وعلمه .

وما كادت تدخل الحجرة حتى أتم الشيخ عبد الفتاح العقد فى سرعة وبساطة ، وبقيت هـذه الـكلمات ترن فى أذنيها . . هـذه الـكلمات التى كان زوجها يرددها متابعاً للشيخ :

« أرجعت زوجتى إلى عصمتى ، وأمسكتها على مابقى من الطلاق .. »

هى لايعنيها كثيراً أن تتفهم كل ما يقال ، وأن تـكون على علم دقيق بالأمور ، وإنما يكفى أن تعرف أنها تسير فى طريق الحلال ، حيث يرضى الله ورسوله ، وليس لها وراء هذا غاية .. إنها تريد أن تعود ثانية إلى عصمة زوجها ، لترشف معه كأس السعادة والنعيم .

## ١٥

وقفت السيارة للمرة الثانيـة أمام باب الأزهر الشريف ، ونزل منها الشـيخ عبد الفتاح منتفخ الأوداج وقد أمسك بجيبه فى حرص بالغ ، وكأنما فيه ما يستحق هذا الاهتمام .

واستقبله زملاؤه من طلبة « رواق الشراقوة » وقد أمطروه سيلا من الأسئلة التى لاتنتظر جواباً لـكثرتها وسرعتها واضطرابها .

وجلس فى عظمة وكبرياء ، وهم حوله فى شبه حلقة علمية ، وأخـذ يقص عليهم ما حدث له ، متحدثاً بنعمة الله عليه . . ولم يهمهم من حديثه إلا هـذه الجنيهات الكثيرة .. لقد بقى معه تسعة جنيهات من ثمن الكتب ، ثم أعطاه الـ ( بك ) عشرة أخرى ، وأعطته الهانم عشرة كذلك . . وكادت أصوات الاحتجاج تجلجل جنبات الأزهر لولا أن ارتفع صوت الشيخ عبد الفتاح فى إخلاص :

— ستكون هذه الجنيهات الثلاثون تقريباً لنا جميعاً ، كل يأخـذ منها حاجته ومايريد ، وبخاصة دائنى الذى اقترضت منه الخمسة والعشرين ، وشاء له كرمه ألا يثقل على فى الطلب ، وإنه لفرج من الله .

# إلى الميدان . . ! !

كان زميلى داود البحيرى فى السنة النهائية من إحدى كليات الأزهر الشريف سنة ١٩٣٨ وقد أدخل التدريب العسكرى فى الأزهر والمعاهد الدينية ، فاختير ليكون ضابطاً ، لصلاحية جسمه القوى لهذا الغرض السامى الجليل . . وكان داود فرحا أشد الفرح بهذا الحظ السعيد ، الذى مهد له الطريق إلى الجندية ، حيث يطبق العلم على العمل ، فهو يعرف نظرة الإسلام إلى الجهاد ، وأننا أمرنا أن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسـول الله ، فإذا قالوها ، عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام . . هو يعلم هذا ، ويعلم كذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « لغدوة أو روحة في سبيل الله ، خير من الدنيا وما فيها » وأنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ، وسامهم أعـداؤهم الخسف والهوان ، وأن مصر فى ذلك الحين تقاسى هى والبلاد العربية ألوان العذاب والتنكيل ، والاحتقار من دول الغرب التى طغت عليها المادية الآثمة ، فلم تعد تقيم وزنا للروحانية السامية ، وعدت ذلك من ضروب الخبل والجنون . .

يالله إنه يعرف كذلك حكم الله فى الجهاد ، وأن الأعداء إما أن يكونوا فى بلادهم ، لا يصل إلينا شرهم ، ولا يؤذوننا فى قليل ولا كثير ، فقتالهم والحالة هذه فرض كفاية ، بمعنى أنه لا يتحتم على جميع المسلمين أن ينخرطوا فى سلك الجندية ، بل إذا انخرط منهم بعضهم فى هذا السلك سقط الطلب عن بقية المسلمين ، وهذا يتمثل لنا فى الجيش العامل ، الذى يرابط دائما ، ويتخذ الأهبة ، ويكون مستعدا للطوارئ فى أية لحظة كائنة ما كانت ، بالليل والنهار ، فى الحر والقيظ ، أم الزمهرير والبرد . . وإما أن يكون الأعداء معتدين علينا ، ودخلوا حدودنا ، فالقتال والحالة هذه ليس فرض كفاية ، وإنما هو فرض عين ، أى يطالب بالدفاع عن بلاده كل مسلم ذكر ، غنياً كان أو

فقيرا ، موسرا أو مدينا . . وإلا فقد ضربت على الأمة الذلة والمسكنة ، وتشتت الشمل الجميع ، وتفرقت الـكلمة معاذ الله . .

هو يعلم هذا كله ويؤمن به ويود من صميم قلبه أن تعود العزة الإسلامية إلى نفس كل مسلم ، ولهذا فقد وجد الفرصة سانحة ، والجو ملائماً ، فأقبل على الجندية إقبال النهم إلى لذيذ الطعام . .

وكان الشيخ داود البحيرى متزوجا فى ذلك الوقت ، ففرحت زوجته به حينما دخل عليها ذات مرة وقد خلع الجبة والقفطان ، والعمامة ، وارتدى بدل هذا ملابس الجندية الحاكية اللون . . كانت فخورة به أشد الفخر ، وبخاصة حينما تحل العطلة الصيفيـة ويذهبون إلى بلدتهم شبراخيت بعض الأيام . . ومن هذا الحين كانت تدعى فى البلدة كلها (زوجةالبيه الضابط) لقد كانت امرأة العمدة نفسها تدعوهابهذا الإسم الجديد ، فوجدت له لذةومتعة ، وأثرا موسيقيا جميلا يهزها هزا ، وأين هذا الإسم الجديد، من الاسم القديم حيث كان الجميع يدعونها ( زوجة الشيخ داود ) ؟ !

● ● ●

وأعجب رؤساء داود بروحه القوية ، واستعداده العسكرى العجيب ، كما أعجبوا بروح زملائه الأزهريين ، وأعلنوا فى غير مناسبـة ، أن أبدانهم وجسومهم أقوى وأسلم من أبدان زملائهم فى التعليم المدنى وجسومهم ، وعزا المرحوم الدكتور محجوب ذلك إلى أن طلبة الأزهر والمعاهد الدينية يعيشون عيشة البساطة ، وتزخر موائدهم بكثير من الخضر والفيتامينات ، ولا ترهقهم حياة المدنية وأمراضها ، وذلك لاستقامتهم وبعدهم عن لذائذ الجسم وشهواته ، وعزوفهم عن المنكرات ، وما نهى الله عنه . . !

وليس هذا فحسب ، بل لأن هؤلاء فى واقع الأمر يفهمون روح الدين وحقيقته ، ويدرسونه الآن دراسـة منتجة ، يربطون حوادثه بما يجرى فى العالم من حادثات ، وما يدور على مسرح الحياة من صور تتصل اتصالا وثيقا بالدين ، ولها حكم فى تعاليمه لا يخطىء إذا طبق كما يجب ، ولا يأتى أبدا إلا بالخير والإصلاح . .

وكانت مهمة داود أن يبث بين زملائه جميعا الروح الإسلامية الصحيحة ، وأن من الجهل أن ندعى الإسلام ، ونحن أبعد ما نكون عن تعاليمه وروحه ، وأنه لا قيمة لجميع الأحكام الشرعية التى تعلمها فى الأزهر ، وقضى فيها أربع عشرة سنة إذا لم تطبق تطبيقا صحيحا ، وبخاصة فى المسائل التى تتعلق بالعقائد والدفاع ، والعزة والكرامة ، والوحدة القومية ، وإن هذه الملازم الصفر التى تلقى فيها هذه المعلومات لتفخر به وبأمثاله ، إذا طبقوا ما فيها ، ونشروا بين الناس تعاليمها ، وإنه وجميع زملائه ليفخرون بها كذلك . . أما حيث تبقى هذه التعاليم فى معزل عن الناس ، تبقى كالسر لا يطلع عليه أحد ، أو كالأثر المهمل لا يستفيد منه إنسان ، فلا قيمة لهذه الكتب ، لأنها لم يستفد منها أحد ، ولا قيمة لنا أيضا لأننا لم نحاول الاستفادة كما يستفيد الناس . . ! !

• • •

ووقع اختيار القيادة عليه ليكون فى الجيش العامل ، وبهذا انخرط الشيخ داود البحيرى فى سلك الجندية انخراطا تاما ، وأصبح من ذلك الحين الضابط الهمام ، والجندى الباسل ، الذى لا يقيم وزنا للمظهر الخلاب ، والزينة والرواء ، ولم ير فى هذه النجوم اللامعة البراقة دافعا يدفعه إلى الشر ، أو استغلال سلطته حيث لا يرضى الدين والضمير والوطن ، بل كان مظهرا من مظاهر العزة الإسلامية الرفيعة ، والكرامة الوطنية السامية ، يجب أن تستغل أحسن استغلال حينما يحين الوقت ، ويقف فى الميدان وجها إلى وجه أمام الأعداء ، يشبعهم ضربا وطعنا وتنكيلا ، حتى يدركوا ما غفلوا عن إدراكه ، ويضعوا فى حسابهم وتقديرهم ، هذه الأمة الفتية التى أساموها الخسف والهوان ، ظلما وعدوانا ، منذ عام ١٨٨٢م ، وسيأتى ذلك اليوم عن قريب إن شاء الله .

• • •

ومضت السنوات متتابعة ، وانقطعت فيها عن زميل الدراسة ، فلقد حالت بينى وبينه ظروف الحياة وطالما حالت هذه الظروف بين الأوفياء والخلان ، إلى أن اشتدت

أزمة المشكلة الفلسطينية ، واتجه كل عربى إلى مايعرض فيها من حلول ، وظهر للعالم كله حق العرب فى بلادهم ، ومع هذا وجدنا بعض الأمم التى لا ضمير لها تظاهر اليهود على اغتصاب أرض فلسطين ، وتعاونهم على الظلم والعدوان ، متجاهلة الغضبة العربية التى تعصف بالظلم والظالمين ، مهما بلغت بهم القوة ، لأن الله القادر أكرم من أن ينصر عباد المال والدرهم ، والذهب والنضار ، على عباده الذين يخلصون له العبادة ، ويتجهون بقلوبهم إليه دائما فى الأهوال والخطوب ، والنوازل والجائحات . .

ثم كان يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ م وهو موعد جلاء البريطانيين عن أرض فلسطين ، ودخول الجيوش العربية الظافرة هذه البلاد ، بقدم ثابتة ، وشجاعة بهرت العقول ، ولفتت الأنظار ، ودفعت هؤلاء الواغلين فى الإثم والفساد ، إلى اليقظة من غفلتهم ،والانتباه من رقدتهم ، وإلى الاعتقاد الراسخ بأن الأمة العربية هى هى الأمة القوية ، التى لا يؤثر فى جوهرها عنف الزمن ، ولا جبروت الأيام . .

وعلمت أن صديقى قد سعد بوقوع الاختيار عليه ضمن من اقتضت الإرادة الملكية السامية أن يكونوا فى ميدان فلسطين ، ذائدين عن الحق ، مدافعين عن بيضة الوطن وحياضه . .

وهزنى الفرح الغامر ، وتملكتنى نشوة مبهمة ، ذلك أننى أعرف مبلغ حب صديقى للجهاد فى سبيل الله ، ورأيه فيه ، فما أنسب هذه الظروف للقائه بعد هذه الغيبة الطويلة ، وأقدم له التهنئة من صميم قلبى ، أن صادفه هذا التوفيق الكبير ! !

● ● ●

لم تغير الأيام من روح صديقى ، ولم تهن من عزيمته ، وإذا به الجندى الذى أعرفه من عهد الزمالة . . أصاخ إلى نداء الواجب ، ودعوة القائد العام ، وملك ذلك عليه مشاعره وأحاسيسه ، ووجد له فى نفسه صدى يتجاوب فى قوة وعزة وجبروت.

واجتمع ، حوله الأهل والأصدقاء والخلان ليلة سفره يودعونه إلى ميدان النصر والظفر ، والرجولة الحقة ، بيد أن طول الحديث ، وكثرة المتكلمين ، وتشعب الآراء

وبخاصة آراء بعض الذين طبعو على الخوف والجبن ، ولم يقدر لهم أن ينقلوا قدما فى سفرة قصيرة ، أو يرفعوا رجلا إلى رحلة هينة يسيرة ، جعلت من صديقى ميدانا عاصفا حارا لعواطف متباينة ، فلمحت فى عينيه الحيرة والتردد ، والتساؤل والاستخذاء فتظاهرت بالاستئذان ومغادرته ليخلو بأحبابه وأصدقائه ، ومريديه ، ولكنه نظر إلى نظرة ذاهلة ، وكأنما كان استئذانى على هذه الصورة مذكراً له بواجبه ، فنظر لهذا الجمع الحافل ، واستأذن فى أدب ، وقد أدرك أن له من الأصدقاء العدد الوفير ، مما يحسد عليه ، ويخيل إلى أنه فهم أن صداقة أكثر هؤلاء هباء ، وصلاتهم هواء ، فما أكثر من تخالل وتصاحب وقت الرخاء واليسر ، وما أجمل ما تجد منهم من مظاهر الوفاء والمحبة ، والعطف والحنان ، فإذا جد الجد ، وحانت الساعة ، تضاءل العدو ، واختفت المظاهر ، وانزوت الوجوه الكثيرة إلى حيث لا تدرى ، ولم يبق حولك إلا من يمكنك أن تعتمد عليهم دائما ، وأن تلقى إليهم بالزمام . .

وهذا ما كان ، إذ انصرف أكثر الموجودين ، وخلا الضابط الهمام بخيرة الأصدقاء الذين لم يتجاوزوا إصبع اليد الواحدة مع أهله ، وانفرد بذويه . . وهنا خيم الصمت على المكان ، وشمل الهدوء الجميع ، فكان للصمت بلاغة مثل ما للكلام بلاغة ، وللهدوء روعة وبهجة دونهما روعة النشاط وبهجته . . !!

أجل فلقد اعتمد الجندى برأسه على يده ، وأسلم نفسه إلى عالم فسيح من الخيال والتصوير ، لقد ارتخت أجفانه ، وهدأ تنفسه فى انتظام تنفس الحالم وتنغيمه ، وارتفعت هذه الروح من مادية الأرض إلى روحانية السماء ، فأشفقت على هذا الجسد الذى تمثلت مبلغ ما فيه من صراع وحرب ، وما أقسى حرب العواطف ، وأعنف صراع المشاعر والأحاسيس . . ! !

من العبث أن يقول قائل ، أو يتسائل متسائل ، كيف يمكن أن يصور المرء أو يصف مايجول بخاطر غيره ، ويمر بمخيلته ، ويتلون فى نفسه . بل من الجهل أن لا يصور الإنسان ذلك ويصفه أدق وصف ، ويعبر عنه أوضح تعبير وأصدقه . . ! !

فالنفس البشرية لها مرآة صادقة كل الصدق ، معبرة أوضح تعبير عما يفتعل فى هذه النفس ، ويختلج فى فؤادها ، ويعتمل فى مخيلتها . ومن يعجز عن فهم ما ينطبع على هذه المرآة ، وما ترمى إليه من أغراض وماتعطيه من نتائج ، فليس من الأدباء فى شىء ، وليس من الشعراء والكتاب فى قليل ولا كثير .. وهذه المرآة — دون ريب — هى الوجه . . ! ! ففى كل خلجة من خلجاته ، ولمحة من لمحاته ، وانقباضة من انقباضاته أو انبساطة من انبساطاته ، مغزى ومعنى له قيمته ودلالته . .

لهذا كانت نظراتى إلى الجندى نظرات الفاحص الخبير بأحوال النفس والعليم بتقلبات العواطف وتباين الأحاسيس . . فإذا لى من هذا الوجه وهـذه الجلسة ، والتفاف الأبناء حول والدهم وهم فى استلقائهم على ظهورهم تارة ، وانكبابهم على وجوههم أخرى واضطجاعهم على جنوبهم حينا ، وقيامهم حينا آخر ، وجلوسهم أحيانا ، وهم فى جميع حالاتهم ضحية للقلق ، وعرضة للاضطراب النفسى الذى لا تقدر ألسنتهم على تصويره والتعبير عنه ، فهم بعد فى سن لا تسمح بذلك . وإذا لى من هذه الزوجة الوفية التى أخذت وضع زوجها مثلا بمثل ، على مقعدها الوتير ، بقطع النظر عما بين المنظرين من فروق هى فقط الفرق بين منظر الرجل فى ثياب الجندية ، ومنظر المرأة فى ثياب المنزل ، وكأن هذه الزوجة قدوجدت الراحة واللذة فى جلسة زوجها فتمثلتها ، وكأنها أيضا ظنت أنها بذلك ربما اتحدت معه فى التفكير ، وشاركته فى خوالج النفس . . فإذا لى من هذا كله مجتمعاً مادة ووحى وإلهام ، كشف لى هذه النفس وأبان حقيقتها ، وما يجول فيها من خواطر ، فإذا هى تستعرض الماضى فى سرعة ولذة ونعيم حلوه ومره ، فالماضى حلو كله ، وإن كان يشوبه الكثير من الألم ، والعديد من المتاعب ، وفى الغالب إن الآلام بأنواعها تختفى حينئذ ، وتتلاشى حتى لا يبقى لها أثر اللهم إلا خيال هزيل يمحى رويداً رويداً حتى يتبـدد ويفنى ، ويبقى كل ما يفرح ويطرب فيبدو الماضى بأسره جميلا تحب النفس الخلود إليه ، والتمادى فى التفكير ، والإمعان فى هذا إلى حد بعيد . . ! !

وهكذا نعم الجندى باستعراض الماضى ، وكأنه يمر أمامه على لوحة فضية قد تتابعت عليها الحوادث وتكاثرت ، ولكن بها من الروعة والجلال والبهجة مالا يكون فى الحقيقة الواقعة ، ولا يوجد فى المناظر الطبيعية ، ذلك لأن الخيال يجسم كثيراً من هذه المناظر ويضفى عليها ثوبا من الروعة التى تأخذ باللب ، وتغرى على التفكير الملح ، والإمعان فى ذلك كل الإمعان . . شاهد حياته مع زوجه وأولاده ، فبهره نعيم القـرب منهم والود من خلانه وأصفيائه ، وأدهشته حياة رافلة فى قشيب من الرخاء الغامر ، والهناءة الشاملة . . وسبح خياله فى دائرة أوسع فتحركت فى نفسه عوامل الأثرة ، ودواعى الأنانية ، فعجب كيف يترك هذا النعيم ويقضى عليه باختياره ، ويذبحه بيديه ! !

وتحرك الشيطان فصور له كيف أن أولاده سيؤلمهم الزمن ويقسوعليهم الدهر ، ويلحق بهم من الألم والهم مالا طاقة لأحد باحتماله ومجالدته . .

ووجدت هذه الفكرة من نفسه مكانا رحيبا ، فهو أب قبل كل شىء ، بل وأب رحيم ، فصور له ا لخيال من الصور المخيفة التى تمثل أولاده الذين لا حول لهم ولا قوة — أبشع هيئة ، وأفظع منظر ، الأمر الذى جعله يرتجف ويرتعد ، ويخرج عن سكونه وهدوئه . .

ولم يلبث أن هدأ وسكن ، فلقد تحرك عقله ، وأطل عليه من عليائه ، وهتف به ضميره : إن من العبث أن تخنع للشيطان ينتهب أفكارك ، ويدنس خيالك ، فوراءك واجب ، حتم عليك أداؤه ، وواجب عليك مباشرته ، وإنك لو رضيت بحياة النعيم والراحة والدعة التى لم يخلق لها الرجل ، لمـا كنت جديرا بذلك الرداء الذى ترتديه ، رداء الخشونة والجندية ، رداء الدفاع والذب عن بيضة الوطن .

يا لله ! ! ماذا يكون مآل الوطن إذا تخاذلت أنت وتراجعت وتخاذل غـيرك وتراجع ، وتخـادل ثالث ورابع وخامس وهكذا ؟ ! إن الوطن دون ريب يصبح عرضة للمطامع وغاية للغزاة ، بل لقمة سائغة للفاتحين بل للضعفاء والجبناء . . ! !

وأثار ذلك النداء نفس الجندى فجرى دمه حاراً فى عروقه ، وتدفق فى شرايينه

بقوة وعنف أنساه العاطفة ودواعيها ، والحنان وتوابعه ، وأحس ببدنه كله يكبر ويكبر ويقوى ويقوى ، حتى خيل إليه أن الله أودع فيه قوة جيش ، ووهبه شجاعة خميس موغل فى جيش الأعداء ، منتصرا ظافرا . . فأعجبه ذلك وفرح به .

ولـكن . . قاتل الله الشيطان فلقد صور له الميدان وقت استعاره ، وقد حمى فيه وطيس القتال؛ فالرءوس تطاح ، والرقاب تحصد ، والنفوس تزهق ، والأرواح تسيل على شبا السيوف ، والدماء تتدفق هنا وهناك حتى تغطى أرض الميدان ، وتبرز الغزالة حينذاك فترسل أشعتها دامية قانية ، فيعكس الدم هذه الأشعة فيبدو الجو وقد تكهرب كله فاندلع لهيباً حاراً ، يغرى الشجاع الصنديد على التقدم والاستماتة فى القتال ، ويلهب الجبان فيمعن فى الفرار . . ! !

مثل له الشيطان هذه الصورة ، فرأى الهلاك واضحا ، والموت جليا ، وأيقن أنه مفارق الحياة إذا هو سافر إلى الميدان ، وهنا عاوده العطف على أولاده والحدب عليهم ، هؤلاء الذين لاعائل لهم سواه . . وهنا أيضا خفت صوت الضمير ولـكن إلى حين . . فلا يلح الصوت إلا عند الحاجة ، ولا يلحف إلا حيث يحب التقدم والاستبسال وهذا تراه فى الجندى ممثلا واضحاً يتردد أولا ، ويذهب إلى القتال خائفاً وجلا ، حتى إذا دهمه الخطر وقابله الموت ، ألفيته يبـــدى من صنوف الشجاعة والإقدام مايدهشك ويأخذ بمجامع لبك ، وهذا ما كان من أمر هذا الجندى القريب . .

فلقد دقت ساعة الحائط الـكبيرة فى رحبة الدار الثالثة مساء معلنة قرب قيام القاطرة التى تقل الجند إلى مقربة من الميدان ، فإذا بصاحبنا يقوم تواً ، وكأنه طعن من الخلف ، فكانت انتفاضة مفزعة ، ورجفة غريبة ، وقد تجهم وجهه ، فتمثلت فيه كل علائم الجد ، ودلائل الأقدام والشجاعة والاستبسال ، وإذابه يتناول حقيبته ويقبل أولاده الواحد تلو الآخر فى إسراع وحنان ، ثم يصافحنى فى حرارة وإخلاص . . ثم يمضى سريعا لا يلوى على شىء . . وقمنا جميعا ، داعين الله أن ينصر الجيوش العربية على هذا العدو اللعين ، أو بالحرى ذلك الوباء الذى يحاول أن يفتك بالشرق والشرقيين ،ولـكن الله أكرم من أن تتحكم هذه العصابات فى رقاب عباده المسلمين ! !

# الربيع !!

لى صديق شاعر — ولكنه بلا قافية ولا وزن ، فهو شاعر إحساس وعاطفة — تلهمك عيناه أروع القصيد وأجزله ، وترتسم على صفحات وجهه ألوان شتى من المعانى المتجددة الحارة . . هو عاشق معنى ، لا يعرف فى حبه هوادة ولا أناة — وأى شاعر لا يعشق ؟ وأى شاعر لا يسرف فى الحب ويوغل فيه ؟ . ليت الناس جميعا عشاق مثله ، مولهون والهون . إذن لسعدوا واستراحوا مما يعانون . . ! !

وهل فى حب الطبيعة ، وعشق الربيع شقاء ؟ ؟

كنت أطلق عليه (ابن الطبيعة) لشدة حبه لها ، ، وتدلهه بها ، وغرامه بما فيها . ولو أنصفت لسميته (ابن الربيع) فالربيع كل ما يهمه من الطبيعة ، ويحبه فيها . .

● ● ●

فى رقدة السكون ، وقد أخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، وقبيل انبثاق الفجر كان يخرج من المدينة متملصا هاربا ، كما يفر الغزال الشارد من مطارد جبار ، ويمضى إلى الطبيعة الساذجة ، النقية الطاهرة ، التى لا يعكرجوها سموم الدواخن ، حيث لا تهدأ المصانع حتى فى الليل ، ولا يدنس محيطها أو زار الناس ، ولا يقطع حبل سكونها مقاصف الرقص ، وجلبة المواخير . . وهناك بين أحضان الطبيعة الزاخرة بكل جميل وجليل يلجأ ، فيجد الراحة ، ويتمتع بالهدوء ، ويروى غلته من مجالى السكون ، ومكنمات الأسرار . .

كان يعبس للشتاء إدا جاء ، لأنه يرى فيه هاوية وسعيراً ، وعذابا أليما ، ولكن لا بالنار تحرق الأجساد ، أو الحرارة تصهر الأبدان ، وتلفح الوجوه ، بل بالبرودة القارسة تشل حركة البدن ، والزمهرير الأليم يرين على العاطفة ، ويخمد الإحساس

والشعور ، ويكبت النشاط العقلى ، فيصاب الذهن بالبلادة تطغى عليه ، والكلالة تحول بينه وبين الإنتاج ، وتصويرمايجول فى خياله ، ويرتسم فى ذهنه ، من مختلف الصور ، التى ينتزعها أحياناً من الواقع الأليم . .

ولم يكن هذا لحسب سبب بغضه للشتاء ، فهو لايعرف أثرة ولا أنانية ، ولاتعنيه نفسه أكثر مما يعنيه غيره ؛ بل فى غالب الأحايين يقدم غيره على نفسه ، وهو راض بهذا ، مغتبط أشد الاغتباط . .

كان إذن يكرهه لأنه يؤذى الفقير والمسكين وأبناء السبيل ، الذين لايجدون مايتدثرون به ويقون به أجسامهم وأبدانهم من زمهريره الأليم . . فهو يحدب على هؤلاء ، ويشفق بهم ويحنو عليهم ، ويرى فيهم ضحايا الشتاء ..!

● ● ●

كنت اجلس معه فى ليالى الشتاء وأطيل الجلوس — فى مكتبته الخاصة التى تضم نتاج العقول ، وثمار الألباب .. ويتشعب بنا الحديث ، ويتناول الفقير .. وهنا أجده يحملق فى المدفأة الكهربية ، وينتفض كالملسوع ، ويقذف بالطنافس هنا وهناك ، ويعضى إلى المدفأة كالسهم الخاطف ، ويوقف حركتها فى تشنج عصى غريب ، ويرغى ويزبد قائلا :

— نحن هنا تؤوينا حجرة صفيقة الجدران ، محبوكة النوافذ والأبواب ، تعمد الصانع أن يبدع فيها حتى لايدع للذر سبيلا للدخول منها عند الحاجة . وهنا وهناك طنف وأنماط ، وطنافس ورياش ..لماذا ؟ إنها الأثرة والأنانية .. يالله ! لنحتفظ بدفء المكان ، ولندخر الحرارة التى تشعها المدفأة فى انتظام لا نكاد نحس فيه بفارق ، و لانشعر معه بألم ينشأ من الانتقال من درجة حرارية إلى درجة أخرى . .

يالله ! هكذا أراد المال أن يوفر كل أسباب النعمة والمتعة ، وعوامل الراحة والهناءة يالظلم الناس !..! أين الفقراء إذن ؟ ! إنهم يرتعدون من البرد ، ويفرقون من البرق

والرعد ، ويجدون في ثورة الـكون ، حينما تعصف الرياح ، وترعد السماء ، شقاء لهم وإعناتاً لأبدانهم ، وإرهاقا لأرواحهم . .

وكيف لا تـكون ثورة الـكون حرباً عليهم ؟ أى سلاح لديهم يدفعون به عادية البرد ، وهجمة الزمهرير ؟ ! .

ثم ينفجر باكياً ، وتفيض عيناه وتسحان ، حتى ليخيل إلى أن دموعه تفيض من جارية ؛ لا باصرة . . !

وأخذ يتمتم ويغمغم بمـا لا يكاد يفهم . وكان البرد شديداً والهواء يدخـل من النافذة التي هو ممسك بمصراعيها بقوة مزعجة . وأخيراً تبينت ما يقول :

ـــ أجل من العدل . . هكذا يجب أن أظل فى مهب الريح ، يهز بدنى كما يهز بدن الفقير . . هكذا يجب . . ه . .

ولم أطق صبراً على هذا ، فأغلقت النافذة ، وحملته بعد لأى على الجلوس ، فرضى مقهوراً ، وجلس مكرهاً ، وهو ناقم ساخط ، ثائر العاطفة ، مضطرب الأحاسيس .

من هنا فهمت سبب كراهيته للشتاء ! .

● ● ●

وكان يشمئز من الصيف إذا حل ، ويرى فى قيظه جحيما مصغراً فى دنيا الناس يصل ما بينهم وبين ما هو مستور فى عالم الغيب من أخبار القيامة ، وأنباء الآخرة ، ولـكنها صلة قاسية تعم الـكون ، وتشمل العالم ، وتلف الخلائق بثوب صفيق لا ينفذ منه نسيم عليل ، ولا هواء بليل ، ولـكن تنفذ منه حرارة وقيظ ! فتضيق منهم الصـدور ، وتـكاد ترهق الأنفاس ، فيهربون إلى الشواطئ ، وسواحل البحار ، حيث يثأرون من حمارة القيظ ، ولهيب الشمس ، فلا يكادون يبرزون من الماء ، وهم ما بين سابح يستبق والأسماك وغائص يحاور المصطافين بين طبقات الماء . ، ولـكن . . ولـكن مع هـذا كله ففى كل مكان صيف ، وفى كل وقت قيظ وحر ، حتى وقت الشروق أو الأصيل بين طبقات الماء . !

وكان أشد مايؤلمه من الصيف كثرة الأمراض فيه ، حيث ترعى الأدواء الأجساد وتجد الجراثيم مرعى خصباً لا تجدى معه وقاية مريض ، ولاعناية طبيب ، فالحرارة كما تمدد الأجسام ، تنمى الأوباء والجراثيم فيفشو الخمول ، وتنتشر هنا وهناك علائم الضجر ودلائل التذمر ويشتد الضغط ، فتشاهد العجب العاجب من مروع الحوادث فى الصيف ! فكل شئ فى الصيف ثائر فائر هائج ، حتى العجماوات والأشجار والنباتات . ويكفى أن تنظر إلى « البطيخ والشمام » لتعلم كيف يؤثر الصيف فى فواكهه ؟ !..

● ● ●

وكان يسخر من الخريف ويهزأ به ، حينما تهدأ فيه حرارة الحياة ، وتتخلص نواميس الكون من وطأة الصيف وجبروته ، وتأخذ عصارة الأشجار تغيض فتذوى الأوراق ، وتجف السوق ، وتأخذ الطبيعة منظراً كئيباً ، ترتدى فيه حلة السواد ، ولباس الكآبة والحزن والقنوط وتغط فى نوم عميق ، يزيده فصل الشتاء طولا على طول ، حتى يخيل للناس أن معين الحياة قد غاض ، ومباهج الكون قد بادت ، حتى الطيور تغدو خماصا وتعود بطانا فى صمت وحزن وهم ، تأوى إلى أوكارها العارية المعلقة فى الأفنان مكشوفة سافرة يراها كل إنسان ، فهى لهذا تؤثر الصمت ليتوهم الناس أن هذه الأعشاش والأوكار خربة فلا يرمونها بنبالهم ولا يرجمونها بمقذوفاتهم فى غير شفقة ولا رحمة ؛ بل فى سرور وهناءة ، وكأن الواحد منهم يمتع ناظريه بمنظر هذا الطائر الصغير يتمزق عقب سهام النبال ورش البنادق . !

● ● ●

أما الربيع . . أما الربيع فكان ينتظره طول العام ؛ فى كل حين يلهج بالثناء عليه ، ويعدد مزاياه ، ويرقبه كما يرقب الصادى فى فلاة زلال الماء ! . حتى إذا ما بزغ نجمه — الربيع — وذر قرنه ، كان أفرح الناس ، لأنه أخبرهم به . . ولا يكاد يتمالك شعوره وحسه ، ويتمالك عواطفه فى الربيع . . فهو شاعر ؟ ! وأنا أعرف أن

الشاعر أمام الطبيعة بمعانيها الدقيقة ، ومظاهرها الرائعة ، وجمالها البديع لايملك إلا أن يطرب ، ويهتز غبطة ومرحاً ، ويهزج أهازيج النصر ، وينشد أناشيد الظفر ، وكأنه ظفر بما لم يظفر به إنسان — وهل أروع من الطبيعة وأجمل منها وأبدع فى الربيع .

إن الطبيعة لتموت تسعة أشهر لتحيا ثلاثة ! !

أعرف هذا ، فكنت ألتمس لصديقى المعاذير ، ولا أصدم شعوره ، بل أترك له الحرية المطلقة فى إظهار شعوره ، وإعلام فرحه ومرحه — لأنى أعرف أنه لا يكاد يغادر منزله إلا فى الربيع — فهو فى بلهنيةمن العيش ورخاء ، فلا حاجة داعية إلى السعى والكدح ، وما أشق السعى فى سبيل العيش ،. وأما فى الربيع فكان لايمكث فى داره إلا بمقدارمايتناول طعامه ، ثم يهرع إلى الحدائق الواسعة ، والغياض الناضرة والمتنزهات العامة حيث يقضى فيها وقته لايتصفح كتابا أو جريدة ، بل يتصفح أوراق الورود والزهور ، دائباً لايمل ، راغباً لا يكل .. حتى إن جميع بستانى هذه الحدائق ليعرفونه كل المعرفة لكثرة تردده فى هذا الفصل ، فهو يصاحبهم ولايخرج إلا بعدأن ينبهه الخفير المختص بأن وقت إغلاق أبوابها قد حان ! ! .

● ● ●

قابلته مرة فى روضة عامة ، غصت بالمرتاضين من كل فج ، وكان ذلك فى إبريل منذ أعوام خلت ، وكان واقفاً أمام مجموعة من الأزهار الحمر النادرة الوجود ، مشدوهاً ذاهلا ، مأخوذاً بهذا الجمال الرائع ، والتناسق البديع ، يحملق فى كل زهرة فى بلاهة وسذاجة وطفولة صريحة ، لا يأبه بالناس حوله فى أوضاع مختلفة ، وصور متباينة ، فلا حاجة له بهم . .

وكان الموقف شاعرياً حقاً ، يأخذ بكل قلب ويملك كل لب، ويشرح كل صدر فلقدكان بجانب هذه الزهور الغزيرة الكثيرة المتكاثفة، والتى تبدو كبحر أحمر قان من الدماء ؛ لافرق بين لون صفحته إلا كالفرق بين تكسر الأمواج وتفاوتها ارتفاعاً وانخفاضاً — كان بجانب هذه الزهور حوض من المياه ؛ تعوم على صفحاته

زهرات اللوتس البهيجة . ويرتفع الماء من نافورة فى وسطه كأعمدة من نور ثم ينتثر هنا وهناك على هضبة صغيرة من الأحجار الرقاق داخل الحوض — كأنه بلورمنثور ثم يتجمع من هنا وهناك ثانية ؛ وهو يخر فى رخامة . . ثم يتحدر أخيراً إلى الحوض فى خرير يعطى أجمل نغمة وأروع توقيع موسيقى حلال . . !!

لم تدهشنى رؤية صديقى الشاعر على هذه الحال — فهو هكذا دائما — فتقدمت إليه وربت على كتفه فى حنان ؛ ولكنه لم ينتبه إلى ؛ ولم يشعر بى . . كان فى عالم آخر كله الخيال والسحر، والهيام والأحلام، والأمانى والآمال . . وبعد لأى قال فى ذهول :

— لقد جئت فى الوقت المناسب . . هيا . .

وأخذ بيدى وهو فى شغل بزهوره عن تحيتى ؛ والترحيب بى ؛ ثم وجه نظرى إلى أنواع شتى من الزهور ؛ وطفق يشرح لى ما توحيه إليه كل زهرة من معان حية ؛ وتكنه من أسرار يفهمها هو حق الفهم ؛ ويدركها تمام الإدراك . . !

وأردت أن أتحداه ، لأثير عواطفه ، وأبعث شعورة حاداً عاصفاً ، فأتمتع بمنظره الجاد وهو يفلسف المعانى فلسفة أشهد أنها فى أكثر الأحايين على جانب كبير من البراعة واللباقة الطبيعية الساذجة ، مع عمق النظرة وبعدها .

قلت : ولكن أى شىء يستحق الذكر فى زهور الربيع ؟

وهنا زم شفتيه ، وعقد ما بين حاجبيه ، وقال :

— انظر ، هاهى ذى زهرة . . ألا تراها ؟

— أجل . . أراها بوضوح . . ! !

— ماذا تفهم منها ؟

— أفهم منها ؟ ! لا شيء . . إنها زهرة وكفى . . نبات من النباتات . . بل من النباتات قليلة الجدوى والنفع ، لقصر عمرها . .

— لا لا ، إن فى قصر عمرها معنى أجل مما تفهم . . فيه رمز إلى اللذة . . كلاهما قصير العمر ، لا يبقى أكثر من ساعات . . انظر ، إنها تبتسم . . تضحك . . ألا ترى

عودها يترنح ثملا . . ويترنح الذى بجواره ثملا هو الآخر فيتعانق العودان ؟ ويلتقى ثغرا الزهرتين فى قبلة خاطفة ؟ ألا ترى ما بينهما من تشابه كبير ؟ بين هذه وتلك . . بينهن جميعا . .

— نعم . .

— هل تفهم معنى هذا ومغزاه ؟

— كلا . .

— إنه كالفرق بين المثل العليا للجمال . . تتشابه إلى حد كبير . . ! !

— لقد شعرت أكثر من قبل . .

— دعنى من هذا ، وقل لى ما الذى يشبه هذه الزهرة الحمراء ؟

— الدم . .

— وأى دم تعنى ؟

— الدم وكفى . . دم الميدان إن شئت . .

— لا ، بل تشبه القلب ، ودمه إن شئت . . ! !

— فليكن ما تحب ، إنه لا يهمنى كثيرا ، بقدر ما يهمنى أن أعرف الفرق بين زهرات الربيع وزهرات الخريف أو الصيف مثلا . . إنى لا أجد فرقا بين هذه الزهرات جميعا . . كلها زهور . .

— لا لا ، إن زهرة الربيع لها لون الزهر وأريجه ، يعشقها القلب والبصر واللب . . وأما زهرة غيره فليس لها من هذا كله شىء . . لا اللون ، ولا الأريج ، ولا المتعة والسحر ، ولا الجاذبيه العميقة الأثر . .

— لك الله يا أخى . . إننى لا أرى فى الربيع رأيك بحال . .

— أما هـذا ، فهو أدهش ما يدهشنى فيك . . ألا ترى كيف تدخر الأرض نشاطها ، وتستعيد قوتها ، وتتجدد حيويتها ، لتخرج للناس فى هذا الفصل كل عجيب وغريب . . ؟ ليس كل شىء فى الربيع هو هو فى بقية الفصول ، كل شىء يتغير وإن

لم يختلف فى مظهره . . ! !

— عجبا ! أ إلى هذا الحد ؟ .

— أجل ، ومالى أذهب بك بعيداً . . هيا . . هيا .

وأخذ بيـــدى ، وسار بى حتى بلغنا شجرة مورقة ، وارفة الظلال ، قال وقد استشاط غضبا :

— أرأيت إلى هذه الأطيار كيف هجرت العالم فى غير الربيع إلا بقدر ما يمكنها من جمع قوتها لتحيا . . انظر ، ها هى ذى ترف أمام أوكارها فرحة طروبا ، تنشـد أناشيد المساء . . ألا ترى دم الحياة يتدفق فى جميع بدنها . . حتى ريشها هو الآخر يهتز طربا ، لا تهدأ له حركة . .

— أوه . . إنك تبالغ . .

— كلا ، لست مبالغا . . ألا تسمع هذا الصوت العرد ؟ إنه صوتها ، ألا يخيل إليك أنك تسمع أصواتاً ملائكية علوية تفيض سحرا وجمالا وإلهاماً ، إنها أصوات غريبة عن هذا العالم المـكروب الذى نعيش فيه . . إنها لا تعرف عالمنا الأرضى ، ودنيانا المادية الآثمة . . وهل تسمع مثل هذا الصوت فى غير الربيع ؟ !

— ثم ماذا ؟

— ثم هذه الشمس ، أتراها جيداً ؟ ! إنها لا تهب الحياة إلا فى الربيع . . الحياة الحقة ، لأنها فى غيره لا تملك هى الحياة . .

وفاض الـكأس ، وضاق صدرى بهذه الفلسفة المغرقة فى الخيال ، ولم أعد أحتمل أ كثر مما احتملت ، وأفلح هو فى إثارة مشاعرى ، وإهاجـة عواطفى ، وهممت أن أدافع عن الشمس التى لا تهب الحياة إلا فى الربيع ، ولـكنه قاطعنى قائلا فى عنف :

— انتظر حتى أنتهى . . يخيل إلى أنها فى الصيف جحيم وسعير ، لأنها سافرة ، وفى الشتاء حزينـة لا تـكاد تبدو ، وإن بدت فهى خجلة على استحياء كبير . . وفي الخريف وخمة لا تنفح الزهر ما يعبق به الأجواء ، أتمارى فى هذا ؟

— لا . .

— إذن فانظر إلى السماء ، كيف تبدو فى رقعتها الكواكب متلألئة زاهية اللون . . وإلى الأرض ، كيف تهتز وتربو ، فتخرج من تهاويل النبات والثمر ، ويانع الزهر والشجر ، حتى ليخيل إلى الناظر للأرض تارة ، وإلى السماء أخرى ، أنه بين سماءين ، إحداهما تنبت الكواكب ، والأخرى تنبت الورد والأزاهير . . ! !

ثم انظر إلى هذه الطوائف من المحبين ، كيف يتبرمون بغير الربيع ، ويضيقون ببقية الفصول ذرعا . . إنه لا يهنأ لهم وصال ولا لقاء إلا فيه، وهل عدهم أغلا وأثمن من الوصال واللقاء ؟ إن كل إلف يلوذ بإلفه ، وينفرد وإياه ، ليشكو له آلام تسعة شهور ذاق فيها من جدب العاطفة ، ومحل الشعور ما جعله يشك فى إنسانيته ، ويرتاب فى روحانيته . . ! !

● ● ●

فى العام الماضى ، قمت فزعاً فى هدأة الليل وسكونه ، على صوت طرق شديد ، أو بالحرى ضغط عنيف على الجرس الخارجى ، وفى سرعة لم أتعودها خففت إلى الطارق ، فهالنى صوت أعرفه يهتف بى فجأة :

— فى أى يوم نحن من أيام الله ؟ !

وذهلت .. لقد كان صديقى الشاعر ، الذى طالما تنبأت له فى أعماق نفسى بنهاية أليمة ، فعاطفة كعاطفته لا تعمر طويلا فى محيط الناس . !

وأخذت بيده لأقوده حيث أخلو به ، لأعرف خبره ، ولكنه أبي أن يدخل ، ونظر إلى نظرة طويلة بلهاء ، ارتجف لها قلبى ، وقال :

— أجب على سؤالى ..

— فى أوائل يونيو ..

— إذن قد حل الصيف ؟

— أجل .. أوليس لديك تقويم تعرف منه اليوم الذى أنت فيه ؟ .

— بلى .. عندى تقويم ، ولكنى كذبته .. !!

— كذبته ؟ ! ولم ؟ وماذا تبغى إذن ؟

— سأذهب إليه ..

— إلى من ؟ .

— إلى الربيع ..

ومضى لايلوى على شىء .. !!

● ● ●

وفى الصباح الباكر علمت أنه قضى نحبه . .

ولم يهزني هذا النبأ ، لأننى كنت على يقين من وقوعه قريباً . بيد أن طريقة الموت هى التى أدهشتنى ، وجعلتنى أطيل التفكير . . فلقد وضع فى غرفته عشرات الباقات من الزهور والورود ، ليقنع نفسه أنه لا يزال فى الربيع . . ولكنها قضت عليه . . !

# في العوامة !!

## ١

حدثنا الشيخ محاسن أبو الفضل عن نفسه فقال :

كان ذلك قبيل الغروب ، وقد أخذت الشمس تلم أذيالها عن هذه الحقائق الثابتة وقد حال لونها ، ووهنت قواها ، مما أصابها من كلل وعناء ..

وطرقت باب العوامة المتواضعة ، الراسية في البحر الأعمى قرب جسر الزمالك . فأسرع الخادم يفتح الباب في بشر وفرح وحبور ، ويعلن قدومي لسيده الذي قام من فوره يستقبلني على الرغم من تقدم سنه وضعف قواه .!

فلان باشا من رجال الجيش المتقاعدين ، الذين أدوا خدمات كثيرة للوطن المفدى وأبلى بلاء حسناً في السودان ، حيث قضى أكثر سني حياته وزهرة شبابه في هذا القطر الحبيب الذي تجمع بينه وبين مصر عوامل الطبيعة ، وصلات الدم ، ووشائج اللغة ، وروابط الدين ..

لقد ظل في السودان راضياً مغتبطاً ، لا يشعر بغضاضة ولا مضض ، ولا يحس أنه فارق وطنه مصر ، لتقارب الطباع ، وتجاوب العواطف والأحاسيس ، ووجود ذلك النهر العظيم المبارك ، نهر النيل الذي يجري باليمن ، ويفيض بالخير والبركات ، حاملا السعادة والحياة ..

وللباشا هواية خاصة يحبها ويتعشقها ، وينفق فيها جل وقته ، والكثير من أمواله فهو جماعة للكتب المخطوطة ، يدفع فيها ما يزيد على أمل صاحبها مما لا يحلم به ، ولا يكاد يخطر له على بال ، ومع هذا هو سعيد بما دفع ، راض عنه ، مغتبط به .

في حجرة نومه كتب هنا وهناك .. على السرير والمقاعد والنوافذ وفي الأركان !!

وفى غرفة الاستقبال ، كتب هنا وهناك ، على كل مقعد ونافذة ، وعلى كل نضد وفى كل ركن . .

وفى غرفة الطعام كتب هنا وهناك .

ثم مكتبته غاصة بهذا اللون من ألوان التأليف ، الذى يعتبره صورة صادقة لعواطف المؤلف ، وترجمة طبيعية لأحاسيس الكاتب ، لم يدخلها الصنعة ، ولم تؤثر فيها برقشة الحياة ومظاهرها الخداعة ! ا

ولقد فهم منه باعة الكتب هذه الرغبة ، فكانوا يحرصون كل الحرص على أصول الكتب المطبوعة ويبيعونها له بعد تغيير أسمائها ، وإدخال شىء من التعديل بواسطة مؤلفيها على صفحاتها الأولى .. والمال يغرى ويعبث بضمائر الضعفاء !

كانت هذه أول زيارة لى ، وكنت أعلم منه إدمانه على هذه الهواية التى يعترف بأنها أثرت فى حياته إلى حد كبير ، وكل مايقال عن هذا الأثر من جهة المادة وضياع الوقت ، وإتلاف النظر ، فلا يمكن إنكار الثقافة الواسعة المركزة فى نظره ورأيه ، وصرفه عن محيط زملائه ، الذى يتلف الخلق والطباع ، بجانب إتلافه المال .

وهل ذلك المحيط سوى ، الموائد الخضر ، حيث تراق الأموال فى عمل لاحد له ولا آخر ، وما يجره القمار والميسر من فساد الذمة وتأريث البغض الذميم ، وتوهين العلائق بين الناس وتمزيق الصلات ؟ .

وهل ذلك المحيط وبخاصة فى أيام السلم والدعة والهدوء ، سوى ميادين النساء ، وما يحاك فيها من شباك ماكرة آثمة ، وما يبيت فيها من نيات مجرمة تفتك بالخلق وتقضى على الضمير ، وتكون حرباً على الأعراض الطاهرة ، وتقويضاً لصرح البيوت التى يجب أن تقام عزيزة شامخة ، حتى تخرج إلى المجتمع جنوداً أعزة ، وأبطالا مجاهدين ؟ !

وهل ذلك المحيط فى أيام الرخاء والسكون سوى تفاخر بالنجوم ، وتكاثر بالأوسمة والنياشين التى تضىء ملتمعة ، تخطف العيون ، وتلفت الأنظار ، وتجعل من بعض

هذه الطائفة أغراراً ، تنفخ أوداجهم النعرة الكاذبة ، ويملؤهم الغرور الأثيم ؟!.

لقد حمد لنفسه هذه الهواية ، وحمدتها له ، وحمدها له العقلاء من الناس ، فهى التى جذبته إلى بيته جذبا ، إلا حينما يطوف بالمكتبات المختلفة ، ويزور بعض الأقارب والأصدقاء من حين إلى حين .

وسبب معرفتى به الكتب ، فلقد جمعنا كثير من المكتبات ، والطرق العامة أمام باعة الكتب القديمة ، الذين يجلسون على قارعة الطريق فى الأزقة والحارات حول الأزهر الشريف ، أو الباعة المتحولين الذين يحملون الكتب التى يعرضونها على أيديهم ، أو فوق عربات صغيرة يدفعونها أمامهم ، وكأنما هى لون من ألوان الغذاء يهم الناس ابتياعه والإقبال عليه .

وأنا وإن جمعتنى وإياه المكتبات ، أو بالحرى سوق الكتب أيا كانت ، فكلانا يختلف عن الآخر تمام الاختلاف .. فهو يجمع نوعاً خاصا ، وهو المخطوطات ولاشىء غير هذا ، وليحتفظ بها فى داره ، ولا شىء غير هذا أيضا . ويندر أن يقرأ فى كل كتاب غير المقدمة ، أو قصير بحوثه وخفيف موضوعاته . أما أنا فأكره المخطوطات ولا أشترى سوى الكتب المطبوعة الحسنة الطبع ، فأنا رجل ليس له من قوة البصر ما يجعله يأبه بهذا اللون ، الذى يسلب البقية الباقية من قوة البدن ونور العين ! .

ثم هو لايبحث ولا ينعم النظر فى المسائل والموضوعات ، وأنا لاغاية لى من جمع الكتب إلا البحث والتنقيب وتفهم المسائل والموازنة بين الأقوال والأشخاص .

وناقشته مرة فى الفرق بيننا ، أو بالحرى بين ما أحب من الكتب وما يهوى هو ، فقال :

— إن الكتب المخطوطة ، تدل دلالة واضحة على العلم الذى فى الصدور ، لاالعلم الذى فى السطور . !

ولم أشأ أن أناقش هذه العبارة ، وتركتها على علاتها ، وتركته لنفسه ، لعلمى أنه لا يقتنع بغير مايراه ويعتقد أنه الصواب .

أجل .. كانت هذه أول زيارة لى ، عقب دعوة منه ، ألح فيها وألحف ، فلم أجد غضاضة فى الزيارة ، مع ما بينى وبينه من فارق كبير فى السن ، إذ أوفى على السبعين ولم أناهز الثلاثين حينذاك .

وانتهزها فرصة وراح يطوف بى فى أنحاء العوامة ، يلتقط هذا الكتاب ويشرح لى موضوعه بقدر مافهمه من مقدمته ، أو تصفح بعض صفحاته ، وميزته ، والمشكلة التى يعالجها ، والفن الذى يحاوله .. ثم كيف حصل عليه ؟ وكيف تكبد فى هذه السبيل من المشاق والمتاعب مالا يخطر لأحد على بال ؛ وكم دفع فيه .

ولكل كتاب عنده تاريخ طويل لا يكاد ينسى منه حرفاً واحداً ؛ فهو يذكر ظروفه كلها ، ويجد لذة ومتعة فى إعادتها وتكرارها ؛ كما يردد المرء اسماً حبيباً لديه أثيراً عنده ، لا يمل من تكراره بحال .

وكنت أحاول قدر الاستطاعة إغلاق هذه الأبواب ، وإيصاد تلك الرتج ، فلقد أحسست بأن دماغى كاد ينفجر وبعينى كادتا تلتهبان .!

## ٢

وضمتنا شرفة العوامة عقب هذه الجولة الطويلة التى هى أشق وأضنى من الطواف حول العالم .. !!

وأحسست بالراحة والهدوء ، والاطمئنان العجيب ، يشملنى فى رفق وهوادة ، وكأنما هو هدوء البدن ، وارتياح الجسم بعد مجهود شاق عنيف .

وهبت نسائم النيل عليلة بليلة ، رخية عطرة ، لها أريج ما حولها من زهور متناسقة الأجناس والألوان ، وورود طيبة الشذى والرائحة ، وفل ونرجس وياسمين .

وانبسطت أمامنا صفحة النيل الجميل ، مضطربة حيناً ؛ هادئة حيناً آخر ، وبدأ القمر يلقى أشعته الواهنة الكليلة ؛ فتضوأ هذه الصفحة الرقراقة، وتتلألأ من بعد أنوار المصابيح الكهربية على امتداد الشاطىء ؛ فتكون من هذا رداء فضى جميل ؛

أشاع فى الجو الشاعرية والارتياح ، وبدت هذه العوامات الراسيات قرب الشاطىء حالمة وادعة ، وكأنها الحمائم البيض ، لاذت بالشاطىء لتهنأ بهذا الحنان وتنصت طروبة إلى هذا الخرير الأخاذ . .

وتراءت تلك العمائر العالية ، والقصور الرحبة الشامخة كأنها قلاع ضخمة . وحصون قوية منيعة ، مرهوبة الجانب ، توحى بالعظمة والجلال . .

وما أجمل المراكب الشراعيـة الصغيرة ، والقوارب المتناثرة على صفحة النهر ، وكأنها مجموعة من الطير مختلفة الأشكال والأجناس ، والألوان والحجوم ، وكأنما أجنحتها أذرع ماردة تمدها فى الفضاء لترهب بها السابلة ، وتروع السائرين . . ! !

وكانت أنغام الموسيقى تنبعث فى هـدوء ، وتصل إلى آذاننا كأنها وقع ملائكى ، فيه سمو ورفعة ، بينما انبعث صوت الباشا يهدر فى عنف ، ويدلى بآرائه فى الكتاب ، ونظرياته فى أفكارهم وأساليبهم . ونظرتهم إلى الحياة ، وأن كتاب هذا الجيل بوجه عام لا يرضى عنهم ، ولا يوافق على اتجاههم فى الكتابة ، وأنهم عالة على الكاتبين من الأجيال السابقة ، وأن الناهض الشهير الآن ، هو الذى يمكنه أن يردد ما قيل ، أو يعبر عما بحث ونوقش ، ولكن فى أسلوب غير الأسلوب ، وعرض فيه شىء من السهولة واليسر . .

وإلا فأين القواعد الجديدة التى ابتكرها علماء هـذا الجيل فى مختلف الفنون والعلوم ؟

لا داعى إذن للأستاذية الزائفة والرهبوت العلمى العجيب ، الذى يحيط الكاتب به نفسه ، بواسطة جاهه ومنصبه ، وأعوانه ومريديه ، ولو أنصف الناس لسموه بوقا لا رأى له ولا جهد ، ولا فضل فيما يقول . .

يالله لقد كان هذا الجنـدى عنيفا فى آرائه ، ينبعث صوته خشنا جافا ، تصدمك نبراته ، ويخيل إليك أنها تصك الأذن صكا قاسيا ، يرهقها إلى حد كبير ، ومع هذا فله جاذبية حينما يتحـدث ، مرجعها إلى قوة عضلات وجهه ، ومقدرتها على التعبير ،

ودقة حركات يديه حينما يمثل لك بهما المعانى ، وكأنه موسيقى بارع يعرف كيف يضرب على الوتر الحساس . .

ولم يترك لى فرصة للحديث ، فظللتِ أتابعه مصغيا إليه فى انتباه حتى هدأ . .

## ٣

تملصت من حديث الكتب تأليفا وترجمة ، وخطا وطبعا ، وقدما وحداثة ، واتجهت به إلى بعض الموضوعات الاجتماعية ، والبحوث التاريخية ، التى تحدث عنها فى بعض مقالاته فى الصحف ، ومحاضراته فى الأندية والجمعيات . .

جاذبته فى بعض ما كتب أطراف الحديث ، وهو موضوع قديم ، أخذت عليه فيه عدم إنصافه للشباب ، إلى حد يلمسه أى قارئ وينكره عليه لما فيه من التحيز للأجيال السابقة .

صمت قليلاً ، وكأنما أخذته على غرة ، ولم أدع له فرصة لاستجماع أفكاره فقلت:

ــ لا بد أنك رجعت عن هذا الرأى !

فضم ما بين حاجبيه ، ومسح تلك الشعرات المتناثرة في مؤخرة رأسه وقال :

ــ لا ، لم أرجع عن رأيي ، بل يخيل إلى أن الأيام لا تزيده إلا قوة وصلابة . .

ــ عجبا أإلى هذا الحد ؟ !

ــ وأكثر منه . .

ــ لك رأيك . .

وكأنما انفجر البركان ، فأخذ يعصف بكل ما حوله ، فى ثورة بالغة كلها التحدى والإعنات ثم مضى يتساءل فى عجب . .

ــ أين أنتم الآن منا قديما ؟ أين جهودكم من جهودنا وعزائمكم من عزائمنا ؟ وعلمكم ومعارفكم من علمنا ومعارفنا ؟ ؟

لقد كنا أقوياء أعزاء ، شجعاناً لا نأبه بالمخاطر ، ولا نقيم وزنا للشدائد والأهوال .

إن الصور القديمة لتتراءى أمام ناظرى فى سرعة ، وتتابع فى ثورة صاخبة ، وكأنها تعيد الماضى حيا تفور دماؤه ، وتنبض عروقه ، رغم تطاول الزمن ، وتباعد الأيام ، وكلها العظمة والمجد والفخار . .

أما شباب اليوم ، أو بالحرى ، أما جيلكم فهو عار على مصر ، وشنار على الشرق بأسره ، وحرب على الإسلام والمسلمين . .

— على رسلكْ قليلا ، فلا يحدر بك أن تهاجمنى إلى هذا الحد . .

— لا مؤاخذة فأنت فى دراك ، ونحن نتحدث كباحثين . .

— لم أقصد ما فهمت ، ولكنى أحب أن أقول أعطنى الفرصة لأتكلم . .

— انتظر حتى أصل إلى ما أريد . .

— إذن م تشكو من جيلنا هذا ؟ !

— إننى أشكو من ميوعته ، وليونته ، وضعفه البادى ، وخوره الذميم ، وفشله فى كل عمل يزاوله ، وميدان ينزل إليه ، وناحية يتناولها ، على الرغم من عوامل . . التشجيع ، وسهولة الطرق الموصلة إلى الغرض فى هذه الأيام . .

حدثنى إن استطعت : كم بنى لمجد مصر ؟ وماذا شيد لعظمتها ؟ وماذا أسس لعزها وفخرها ؟ إن مصر تجتاز اليوم مراحل شاقة ، تعتبر حدوداً فاصلة فى تاريخها القومى . كان يجب على جيلكم أن ينتهزها فرصة سانحة ، ليكتب فيها بدمه صفحات الخلود .

حدثنى إن استطعت لماذا يقف الشاب منكم أمام المرآة طويل وقت ، يستدير تارة يميناً ؛ وأخرى يساراً ، ثم ينظم هذا القميص ، ويرفع هذه الياقة قليلا ، ويقص هذه الشعرة ، ويصقل هذا الخد ، ويزجج ذلك الحاجب ويقوسه .. و ..

وحاولت الكلام ! إذ ضقت ذرعاً بما قال ، مع علمى بأن فى شبابنا من يفعل ذلك ، ولكنه قليل جداً ولله الحمد .. بيد أن الضابط الكبير منعنى ؛ وأردف :

— مهلا مهلا . . إنك إن استطعت أن تجادل وتمارى فيما قلت ، فلن تستطيع مناقشة أو مماراة فى اندفاع جيلكم فى تلك المغامرات الشهوانية الآثمة التى تمثل على

مسرح الحياة على الدوام ، فى الشوارع .. فى الحدائق العامة .. فى دور الخيالة .. فى المسارح .. فى الأندية والجمعيات .. فى المنازل .. فى الشرفات والنوافذ .. فى القطر .. فى الترام .. فى السيارات .. فى كل ناحية من نواحى الحياة .. فى المدن والأقاليم ، حتى ليخيل إلى أن القرى هى الأخرى لم تخل من هذا الوباء الخلق الذريع ..

يالله ! لقد أصبحت أكره الخروج وأمقته ، لئلا تقع عيناى على ما أكره ، وهو محقق دون ريب ..

- إنى أصبحت لا أفتح عينى حين أفتحها ، إلا على منكر تشمئز منه النفس ، ويضنى القلب ، ويلتاع الفؤاد ، ويبقى الفكر مشتتاً مضطرباً ، لأنه لا يرى حلا يرضى الضمير المتحفز دائماً ، والتوثب فى ثورة وعنف .

فكيف بالله تنحى باللائمة على ، وترمينى بظلم هذا الجيل ؟ والعنف على ذلك الشباب المريض ؟ ! لا لا ، يابنى .. كان الأولى والأجدر أن تلوم إخوانك وجيلك ، وتصرخ فيهم منادياً بالرجوع إلى الخلق الكريم ، وأن عليهم تبعة هذا التسكع المقيت والخبط فى الشوارع على غير هدى ، وأن لهم رسالة عليهم أن يقوموا بأدائها كما يجب وإلا فلا فائدة ترجى من آمال وأمان وطنية ، لا يسعى فى سبيل تحقيقها الشباب ، وإن شجرة لا يرويها الشعب بذكى دمائه لا تنمو ولا تستقيم لها الحياة .

- ثم ما قيمة عضو فى الأمة لا يقوم بأداء ما كلف به ، وتحقيق رسالته فى الوجود ؟ لاشىء .. لأنه لا يكون سوى عضو أشل .

كان الأجدر بك يابنى أن تكتب ، وأنت صاحب القلم الجرىء ، موجهاً هذا الشباب إلى ما فيه خير البلد وصلاحه .. إلى الخير العام ، والمصلحة السامية .. إلى القوة والمجد .. إلى العظمة والقوة .. إلى الصفوف الأولى بين الدول الحية ، حيث تتجلى قيمة الاستقلال الخالص ، البعيد عن الزيف .. أليس كذلك ؟ .

وشعرت بشىء من الاستخذاء لما فى هذا الكلام من حقائق مرة ، لا يمكن لمنصف إنكارها .. بيد أنى موقن أن للشباب اليوم فضائل لا يمكن أن تقاس بحال

من الأحوال ، بفضائل الجيل السابق . فقلت فى هدوء مصطنع وصوت خفيض :

— دعنى من هـذا كله ياسيدى . فنظرتك للشباب الآن فيها قسوة وعنف ؛ وفيها تجن كبير على جهود الشباب ، ونـكران لما يقدمه للوطن من حين إلى حين .!

أنا لا أنـكر بحال من الأحوال أن للشباب هنات ؛ ولـكنها هينات بلا مراء .. وله سقطات ، ولـكنها غير مميتة ولا قاتلة دون شك .. وله نزعات إلى الشر ، ولـكنها فى نواح أقل بكثير من النواحى التى كانت للجيل السابق .

ولا تنس ياسيدى أن له بجانب ذلك ثورة هى سر عظمته .. ولهذا لا يمكن لأحد أن ينكر فضله . . لأنه يأبى الذل ، ولا يقبل الضيم ، ولا يخنع خنوع الذليل الراضى بالهوان ، كما كان جيلـكم السابق !.

وألقيتها قنبـلة تعصف بالرجل الذى أربد وجهه وحال لونه ، ولـكنه صمت ، احتراماً لحقى فى الحديث ، فأردفت فى ثقة واطمئنان :

— ويكفى لفهم ذلك أن ترجع بذاكرتك إلى عام تسعمائة وألف ميلادى مثلا ، أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، فماذا تجد ؟ أعتقد أنك أدرى بحال الشباب حينذاك . .

إن الصور الآن تتراءى لك فى وضوح وجلاء ، ولـكنها مخزية مفجعة دون ريب . . ! !

ولم يستطع الصمت أكثر من هذا ، فتحرك فى مقعده كالملسوع وقال فى شىء من الحدة الغاضبة :

— ماذا تعنى ؟ أكان كشبابكم فيه خور وضعف ، وميوعة وليونة ؟ !

قلت فى تؤدة وأناة ، وكأننى لا أهتم بما أقول ولا أبدى أبهاً به :

— بل أكثر من ذلك !.

— وكيف ؟

— كان جباناً . !

## ٤

وساد الصمت قليلا ، وذهل الباشا لهذا التصريح ، وأخذ يهمهم فى عجب ودهشة ، ويردد :

— كان جبانا .. كان جبانا .. أتعنى ما تقول ؟

— كل حرف .

— دلل على هذا ..

— أجل كان جبانا على الرغم من قوته البادية ، وضخامته الظاهرة ، وجهارة صوته ، ووفرة ثرائه ، وطول شواربه .. و ..

— لا لا ..

— انتظر قليلا حتى أتم حديثى .. كثيراً ما سمعنا من آبائنا وأمهاتنا الشىء الكثير عن حوادث الجندية ، وكيف كان الشاب الذى لا يمكنه أن يدفع البدلية ، حزيناً كئيباً ، لا يستقر على حال من القلق ، والضنى واللوعة ، لأنه سيذهب إلى العسكرية .. إلى ميدان القتال .. كان مجرد قبوله يثير الأسى واللوعة ؛ والشجون والحزن ؛ والصراخ والعويل فى الدار ، وكأنه فقد إلى الأبد ، ولن يعود مرة أخرى ! .

وكان هذا شعور أحبابه وأصدقائه وأقاربه وذويه ، وبيئته كلها ، وعلى العكس من هذا كان شعور أعاديه .. الذين يفرحون ويسرون بهذه النكبة والمصيبة كما يعتقدون . ! !

ولا تنسى تلك الجنازة التى كان يشيع بها ، وذلك الصوات الذى يشق أجواز الفضاء ..

كان عاراً وشناراً أن يذهب الشاب إلى الجندية ، وينخرط فى سلك العساكر الذين ينظر إليهم الناس نظرة احتقار وازدراء .

وكان هذا مذلة للأسرة كلها ، تلقى من جرائه الصفع والتعيير فى كثير من المناسبات ، وتتلقى الضربات قاسية أليمة دون أن تدافع عن نفسها ، ولا تسمع لها كلمة فى هذا ، لأنه عنوان الفقر والمسكنة ، والحاجة والمسغبة . .

ولا يزال الحزن مخيما على ذلك البيت . وتلك الأسرة ومن يتصل بها من الأهل والأصدقاء ، حتى يأذن الله له بالعودة ، وهنا تتبدل شماتة الأعداء وفرحهم وسرورهم إلى حزن وهم . . ! ! أتنكر هذا ؟

— لا لا أنكره . . إنه حق

— ثم ماذا ؟ ثم كان هناك نوع آخر لا يدع ولده يذهب إلى العسكرية مع الذاهبين ، يساق سوق البهائم ، ويدفع دفع الأغنام والماشية، إلى الحظائر أو المذابح . . ولا يتركه يردد مع المرددين من إخوانه ومن هم على شاكلته فقراً وحاجة ، تلك الأغنية الشائعة :

يا أمى ليـــه تبكى عليـــه ‏ ‏ ‏ ‏ وأنا مســـافر الجهـــاديه
قالوا كتبوه بياده والا سوارى ؟ ‏ ‏ ‏ ‏ قالوا كتبوه زيادة نفر فى الطوبجيه

لا يتركه يرددها معهم فى حزن عميق ، يثير الأسى والشجن ، ويبعث الأتراح ويسيل الدموع . وكأنما هو نائحة نادبة محترفة ، تجيد ذلك اللون المقيت من تثبيط الهمم ، وتهديم الأبدان ، وتوهين العزائم والقوى . !

ثم ماذا ؟ ثم لا تكون الشكات فى ذلك الحين غير مقابر ومناحات . أما الواجب الحتم . . أما الوطن ونداؤه . . أما الشعور الحق بالذود عن الحياض ، والقضاء على على نوازع الشر فى الإنسان ، أما هذا كله فلا أثر له ولا يوجد من ينظر إليه .

أجل كنت لا تجد من يتركه يذهب على هذه الحال ولا يدفع له ( البدلية ) لأنه لا يجد هذه القيمة التى تتطاول إليها أعناق كثير من أفراد الأسرة المصرية فى الريف ، فماذا يفعل ليخلص ابنه من ربقة العسكرية التى يراها ذلاً أليما، وخطراً ماحقا ؟

هو والحالة هذه بين أمرين :

إما أن يحفظه القرآن الكريم ، أو يدخله الأزهر الشريف ، وفى هذا خير وبركة ، ولكنه لايتيسر للكثيرين ، وبخاصة وأن فيه شيئاً من الإنفاق الذى قد لايطيقه . .

وإما أن يلجأ إلى الحيلة الآثمة المجرمة ، فيعمد إلى إحدى عينيه فيفقأها له ، أو يكسر له سناً ، أو يخلع له ضرساً ، أو يقطع له إصبعاً أو أنملة أو دراعاً أو ساقا ، أو يحدث له أية عاهة من العاهات التى تعفيه من العسكرية . وقد تجره هذه العاهة فى الكثير من الأحايين إلى عاهات أخرى ، وينشأ عنها كثير من الأضرار البالغة التى لا تكاد تخطر له على بال . !

يالله ! إننى أعرف كثيراً أقعدتهم هذه العاهات التى أحدثوها بأنفسهم عن رضا واختيار ، عن الأعمال العادية ، التى تكون سببا فى الحصول على العيش الكفاف الخشن ، والحياة الجافة الأليمة . !

أليس كذلك ياسيدي الكبير ؟ !

— بلى هو كما تقول ، ولا أجرأ على إنكار هذا أو المماراة فيه .

— هل رأيت شيئا منه ؟ .

— نعم رأيت كثيراً وشاهدت أعجب مما تقول ولم أحاربه وكان فى مكنتى محاربته فى محيطى على الأقل ، بل أكثر من ذلك .

— إذن فصرح

— كنت أساعد على إجرائه ، وأنصح به الكثيرين حين كنت أتصل بهم صلة جوار أو قربى ، ولا يمكننى أن أخلص لهم أولادهم من ربقة العسكرية وذل الجندية .

— ربق العسكرية .. ذل الجندية . . ! !

ماذا تقول ياسيدى ؟ وأنت أيضا تقول ذلك وتعلنه، وتصفها بهذا الوصف الأليم ؟

— إنها فى ذلك الوقت تستحق أكثر مما وصفتها به . . إنها لم تكن كما تعرفها الآن ، وأرجو ألا تثير فى نفسى هذه الهموم ، وتبعث من جديد تلك الأحزان

والشجون .. لقد دفنت ذلك كله بين جنبي ، ولا أحاول بحال من الأحوال بعثه من جديد ، فهو فى نظرى كالجيفة القذرة المنتنة ، يجب المبالغة فى دفنها وإخفائها ، لأن فى نبشها خطراً وإثماً كبيراً .

قلت وقد أبرقت عيناى انتصاراً :

— إذن فلست فى حاجة كبيرة لأن أوضح لك الفارق بين جيلكم وجيلنا ، أو بالحرى بين شبابكم وشبابنا ، إلا أننى أسجل هنا أن نظرة الشباب الآن إلى الجندية قد تغيرت تغيراً تاما ، فهى على العكس من نظرة الجيل السابق .. إنه لم يعد يرى فى الجندية مذلة وهوانا ، وضعة تحط من شرفه ، أو وصمة تنال من قدره ، ومكانة أسرته ، بل أصبح يرى فيها مثاله الأعلى ، وأمله المرموق ، وأمانيه المرجوة .. إن الجندية الآن هى الطريق لخدمة الوطن ، وتقديم أقصى ما يستطيع الإنسان لبلاده من جهود كريمة موفقة . يرى فيها متنفسا لتلك العواطف الحرى التى طال كبتها ، وأصبح كفها وكتمانها إلى هذا الحد عاراً وشناراً ، لا ترتضيه العزائم الجديده ؛ والشبيبة القوية المتحفزة التى تسخر بالعقبات مهما كانت ، وبالشدائد مهما قست ، وبالحادثات بالغة ما بلغت .!

إن الجندية ميدان العمل ، والوصول إلى الهدف الذى يبتغيه كل مخلص فى أسرع وقت ، ومن الطريق المباشر المستقيم الذى لا التواء فيه .

هو الآن يتعشق هذه الحلة الصفراء الخاكية ويؤثرها على غيرها .. ولا أعتقد أنه يتعشقها لما يناله من ورائها من مركز واحترام وتقدير فحسب ... ولكنه يراها رمز القوة والجد ، والفتوة والصراحة ، ومظهر الجندية والعسكرية ، والخدمة الوطنية العامة .. إنها لباس الجيش المدافع العامل الذى يخوض المعارك إذا دعا الأمر ، واستلزم الحال ، للذود عن الحياض .. حياض البلاد العزيزة التى نفتديها بالمهج والأرواح .. يريد هذه الحلة ويرغب فيها ، ليتقدم بها إلى الميدان مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، عزيز النفس ، موقرا كريما ، لا يهاب الردى ، ولا يخشى الموت ،

بل هو أمنيته ، لأنه سبيل العزة القومية ، والـكرامة الوطنية . .

وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تعيش جبانا

هذا جماع نظرته إلى الحياة ، فماذا تقول بعد هذا ؟ وبماذا تفاخر ؟

انظر ياسيدى إلى الريف على ما فيه من جهل وفقر ومرض ، وكيف تقابل الأسر فيه الآن تجنيد أبنائها . . لم تعد تتهرب من التجنيد ، أو تمنع أبناءها منه ، بل أصبحت تتسابق إليه ، والحزين الآن ليس هو المقبول فى الجندية ، وإنما الحزين هو الذى لم يقبل لعلة من العلل ، أو مرض من الأمراض ، لأنهم يرون فيه الضعف والخور ، وعدم الجدارة بخدمة الوطن فى ميادين القتال . . ! !

أما الذى يقبل ، فتقام له الأفراح ، وترفع الأعلام خفاقة بعزة الوطن ، مرفرفة بكرامة البلاد ، التى تأخذ الآن طريقها إلى الحياة جادة غير لاهية ، متخذة من دينها خير مرشد لها فى الطريق التى تسير فيه . .

أجل إنه يبقى ملتقى الأنظار من فتيات بلدته ونسائها ، أينما حل أو ارتحل ، فهو مظهر القوة والعظمة ، ومثال الوطنية الصميمة ، ويبقى كذلك حديث الأسر الريفية ، العريقة فى القرية ، وأعيانها العظام ، وملاكها الذين يشاركون الفلاحين عواطفهم ، ويعطفون عليهم ، وحديث المصاطب ، وفى المساجد حيث يحلو استعراض ما يهم أهل القرية ، ويعنيهم من شئون الحياة ، وحول الدكاكين على الدكك الخشبية الواسعة . وتحت أشجار التوت المورقة ، وظلالها الوارفة ، وأشجار الجميز ، وعلى ضفاف الجداول والترع ، بين أشجار الصفصاف ، الشاعرية الحاملة . . ! !

ولعلك تدرك الآن مبلغ تحفز الجيوش العربية بعامة ، والجيوش المصرية بخاصة ، ونصرها المظفر فى ميدان فلسطين ، إنهم يحاربون الصهيونيين ، تلك العصابات الشريرة الطاغية الظالمة ، التى تغتصب حق العرب فى فلسطين ، ظنا منهم أن الأقطار العربية واهنة القوى ، ذليلة ضعيفة ، لن يمكنها أن تدفع عن نفسها شراً ، أو تمنع خيراً . . ولـكنها أدركت الآن كما يجب أن يدرك كل إنسان ، أن جيش مصر يمتاز بتلك

الروح القوية التى لا يضعفها ما يخشاه الناس ويفرون منه . . لا يضعفها رؤية الموت ، بل هى تسعى إليه فى رضا وفرح واطمئنان ، لأن القدر لا بد من نفاده ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »

وإذا وصلت الروح إلى هذا الحد ، وبلغت النفس هذه المنزلة ، فلن تكون الهزيمة أبداً، ولن يكون الضعف أبدا ، وإنما يكون النصر على طول الخط ، وتكون القوة والعزة ، والمجد على امتداد الطريق .

إن روح الجندى المصرى الآن ياسيدى تدعو إلى العجب والدهشة ، وإن روح أفراد الشعب الآن تدعو كذلك إلى العجب والدهشة ، ولقد جاءت محنة فلسطين هذه اختباراً من الله سبحانه وتعالى لهذه النفوس ، وابتلاء منه لتلك القلوب ، فإذا بنا نجد العجب العاجب ، ونرى الشعب كله يريد أن يكون جنداً محاربا فى الميدان ، يقدم نفسه وماله ، غير هياب ولا وجل ، باسم الثغر ، موفور النشاط .

لقد وجدنا من أفراد الشعب فى ميدان القتال الوالد بجانب الولد ، والأخ بجانب أخيه ، وسمعنا من روائع البيان ما يدفع الشجاعة فى القلوب ، ويثير مشاعر الجبناء . . وسمعنا عن كثير من الحوادث ما كنا نعده من مفاخر السلف ، فهذا والد يموت ولده فى الميدان ، فيظل كما هو مدافعاً مقاتلا ، ويحمد ربه الذى شرفه بقتله واستشهاده ، ويأتى إليه المعزون فلا يرى معنى للعزاء ، فهو مضيعة للوقت ، وهو يتمنى أن يحظى بهذا الشرف الرفيع الذى ناله ابنه . . إنه لا يريد العزاء ، وإنما يريد التهنئة فهى أنسب فى هذا المقام . . ! !

ووجدنا فى هذه الأيام من يعترف من قواد العالم العظام بشجاعة الجندى المصرى وإقدامه ، وبراعته فى فنون القتال ، وكيف لا وقد شهد العالم كله هذه العظمة ، وكيف حطم هذا الجيش وبقية الجيوش العربية الباسلة ، فى أيام ، ما أعده الصهيونيون فى عشرات الأعوام من قلاع وحصون ، وأنفقوا فى هذه السبيل الملايين من الجنيهات ؟

فى الحق ياسيدى إننى فخور بهذا الجيل ، فخور بانتسابى إليه ، لأنه يقوم الآن

بتحطيم الأغلال والأصفاد التى طالما أذلت مصر والمصريين ، ويعيد بناء ما حطمته الأيام ، من مجدنا التليد ، وعزنا القديم ، وسترى عما قريب آثار ذلك إن شاء الله ، فتدرك إلى أى حد يا سيدى الفاضل ، أمحضك النصح ، وأصدقك الحديث . . ! !

## ٥

وتزايلت أعضاء الباشا ، وأربد وجهه واكفهر ، واسترخى قليلا ، فلقد أخذت عليه كل سبيل ، وضيقت عليه الخناق . . فشعر بالهزيمة النكراء ، ولم يجد بداً من الصمت فلاذ به ، وأخذ يعبث بمسبحته فى تشنج ظاهر ، وغيظ مكبوت ، مما دفعنى إلى متابعة الحديث ، منتهزاً هذه الفرصة التى خدرت فيها أعصابه ، فقلت : هذه أولى النواحى التى أعتبرها فى مقدمة المسائل ذات الأثر البالغ فى حياة الأمم والأفراد . . ثم ماذا ؟ ثم هناك جهود الشباب فى ناحية الاقتصاد والمال . إنه فهم تماماً قيمة الحياة الاقتصادية ، وأنها وإن لم تكن هى السعادة بالفعل ، فهى مفتاح السعادة دون ريب ، فالفقر . . فقر الأمم أو الأفراد ، يثبط الهمم ، ولا يحقق آمال الناس ، وبخاصة فى هذه الأيام ، التى سيطر فيها الأجانب على الأسواق المتباينة ، واحتكروا البضائع المختلفة ، حتى لا تكاد تجد لنا قيمة فى الحياة ، أو كلمة محترمة ، أو رأياً مسموعا ، لأننا عالة على غيرنا فى هذه الناحية ، نظرياً وعمليا .

لقد كنا نسمع يا سيدى الكبير ذلك المثل من آبائنا وأجدادنا عليهم رحمة الله :

« إن فاتك الميرى ، اتمرغ فى ترابه » كنا نسمعه منهم فى لهجة تحمل معنى القداسة والاحترام ، والرهبوت والإعظام . . وكنا نعجب ونحن صغار السن لهذا الميرى الذى له تراب ، وله ركاب يسير حثيثا ، وأن السعادة الحقة فى اللحاق بهذا الركاب والسير فيه ، ليشمله بعطفه ورضاه ، وليدخل فى حوزته ، ويتقلب فى أعطاف نعيمه ، وإذا لم يتيسر له ذلك ، فلا بد أن يتمسك به ويتمرغ فى ترابه . . ! !

ولما فهمنا فيما بعد ما هو الميرى ، أصبح لهذا المثل أثر فى نفوسنا ، غير ما كان له

فى نفوسكم ، لأننا أدركنا أن مثلكم الأعلى سجن مقيت مظلم النواحى ، يقضى فيه على الشخصيات قضاء مبرماً ، ويميت فى الإنسان روح التوثب والتحفز ، والسعى الحثيث ، إلى حيث العظمة الحقيقية ، والحياة الجادة غير اللاهية ، إلى الحرية والطلاقة ، والنضوج والابتكار .

إن الميرى يا سيدى قيود لسواعد الشباب الفتية ، وأصفاد لأرجله القوية .. قيود من نار تتلظى فتفتك بجسمه . . وأصفاد هى الذلة والعبودية ، والمهانة الحقيرة الآثمة ، فتودى بروحه ، وتعصف بقواه المعنوية وتنزع منه كل أمل فى الحياة ، وطموح إلى العظمة والمجد . . ليبقى بعد ذلك ، برأى رئيسه ، وينافق زملاءه ويخادعهم ، ويحرص على اللقمة التى تقيم أوده ، وتمسك رمقه ، وتسد خلته . . ! !

إن الشباب لن يتمتع بالحياة يا سيدى إلا حينما يتخلص من هذه القيود ، ويحطم تلك الأصفاد ، ويشعر بالحرية والطلاقة فى كل مكان فى بلاده يحل فيه . .

إن هذه الأغلال ، وتلك الأصفاد ، التى كانت ترهقه وتضنيه ، بدأ جيلنا يتخلص منها ويقضى عليها ، وأصبحت الصراحة عماد حياته الآن ، فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فى البيت والسوق والديوان . .

أنا لا أنكر أنه كان لديكم من أغرم إلى حد كبير بالتجارة ، وربح فيها طائل المال ، ولكن الفرق واضح بين تجارة وتجارة ، وربح وربح . .

وأما بعد ، فهذه نظرتنا إلى الميرى ، وتلك نظرتكم إليه . . أليس كذلك يا سيدى .

— بلى هو كما تقول . .

## ٦

وشجعنى هذا على متابعة الحديث ، لأضرب الضربة القاضية ، فقلت فى تؤدة وأناة :

— ثم ألست معى أن نتيجة تقديسكم الميرى وحبكم له ، جعلكم تعبدون الوظيفة عبادة ، وتتحملون فى سبيلها كل عناء وألم ، وضنى ولوعه محرقة ، وذل كبير ؟ !

— بلى . . إنى معك فى هذا . .

— أما نحن يا سيدى فلم نقم للوظيفة وزنا ، وجل الشباب الآن تعج به الأسواق ، لا يأنف من عمل مهما قل ربحه ، ولا يستكبر أن يزاول المهن التى كنتم تنظرون إليها نظرة احتقار ومهانة ، فالعمل ما دام شريفا ، فهو باب من أبواب الرزق ينال الإنسان به خيرين ، الأول الربح الوفير أو القليل ، والثانى الأجر والثواب ، فإن الله يضاعف الأجر للعامل ، بينما يحرم منه المتكاسل المتهاون المتوانى . .

ليست الوظيفة إذن غايتنا وآمالنا كما كانت نظرتكم إليها ، وإنما آمالنا وأمانينا الخروج إلى ميدان الحياة ، ومزاولة الأعمال الحرة ، مزودين بكل سلاح ممكن ، وبما نستطيع من كفاءات . . وأول الكفايات فى نظرنا هو العلم فبالعلم تستبين لنا نواحى الكون ؛ وتضىء آفاق الوجود . . نخرج إلى الميدان الدائم الصراع ، ولنا من حريتنا ما يدفع بنا إلى التقدم والرقى ، فلا نتقيد بميعاد كما يتقيد الموظف ، ونرتبط بوقت ديوان ، ولا نخضع لأوامر رئيس جائر أو ظالم ، كل همه أن يقرأ الصحف والمجلات فى مكتبه ، ثم لا شىء له غير الثورة والكبر ، والتعاظم على مرءوسيه ، وإلقاء الأوامر التى لا معنى لها ، ولا داعى لتعددها وكثرتها ، سوى إظهار الرياسة ، والتعالى المقيت ، وتزداد الحالة سوءاً بين الرئيس والمرءوس ، إذا كان المرءوس ممن لهم كرامة يحافظون عليها ، وكان الرئيس من أولئك الذين رفعهم إلى منصبهم قدم الخدمة ، وطول الزمن ، الذى قد لا يسير معه الخلق الحسن ، والعلم الحديث ، جنبا إلى جنب . . ! !

أجل ففى دواوين الحكومة يا سيدى كثير من أولئك الذين هم بقية من جيلكم ، ولا ينظرون إلى الحياة كما يجب أن ينظر إليها المخلص ، والعامل النشيط ، وإنما كل همهم ، مظاهر ونفخة ، كبرياء مقيتة ، وعظمة تافهة ، ثم لا شىء وراء هذا ، من كفاية ناضجة ، أو فكر ثاقب ، أو رأى سديد . . ! !

لا تحسبنى يا سيدى مغاليا أو مبالغا ، فما جاوزت الحد الذى تعرفه عنى ، صدق حديث ، ونصفة للحق الأبلج ، الذى يتعامى عنه الناس . . وفى مكنتى أن أعين لك

كثيراً من الأسماء والأشخاص الذين تعرفهم تمام المعرفة . ولا هم لهم سوى ما قلت لك ، ولا تستفيد منهم الحكومة والمصلحة العامة بشيء ، فهم عالة على هذه الأمة المسكينة ، يتقاضون منها طائل الرواتب ، ويتقلدون أسمى المناصب ، ويقضون على مصالح الشعب ، وخير الناس ، وكأنهم مأجورون على الشر والتعطيل والفساد . . ! !

ثم لعلك تعرف يا سيدى قصة ذلك الموظف الكبير الذى كان يريد أن يزوج أحد مرءوسيه من ابنته ، متخذا من سلطته عليه طريقا وسبيلا إلى ما يريد ، وكيف أن هذا الشاب كان مثال الاستقامة والعمل والنشاط ، ولكنه لا يريد هذا الزواج ، ولا يوافق عليه ، لاختلاف وجهات النظر بينه وبين هذه الأسرة ، مع ما لها من المكانة والمنزلة ، والثراء المرموق ، الذى يتلمظ عليه كل من لم يعرف الحقيقة الواقعة . فماذا كان ؟ . . كان أن ضايقه وكتب فيه كثيراً من التقارير ، التى لفتت إليه الأنظار . وكانت ثورة من الشاب ، وكان أن وضح الحق ، وكادت تعصف الريح بهذا الموظف الكبير ، لولا أن تداركه هذا الشاب بالعفو ، وصفح عنه ، واكتفى بما كان من التخاذل والتراجع والفضيحة فى محيط ضيق لم يتجاوز أفراد المكتب . . ! !

أجل ، إن جيلنا لا يطيق غطرسة مفتش أو مدير ، فله من عزيمته القوية ، وإرادته الحديدية ، وجهده الكبير ، خير معوان على اكتساب الرزق ، والحصول على العيش ، من بين فكى النمر ، وماضغى الأسد ، وهو سعيد بما يقاسى من جهد ، ويلاقى من عناء وبلاء . . ! !

إليك يا سيدى ميدان الأعمال الحرة ، من المبرز فيه ؟ نحن دون ريب ، مع أنه يضمنا معا ، ولكن أبطال الجيل الماضى تتضاءل قيمهم الآن بجانب جهود الشباب وعزائمه ، وأفكاره وآرائه . .

إن آلاف الموظفين من الشبان ، يلحون على المصالح والوزارات طالبين إعفاءهم من العمل بها ، دون جدوى ، ولا كبير فائدة تعود عليهم أو على أوطانهم ، بدل إلحاحكم فى طلب الوظيفة والتكالب عليها ، إلى الحد الذى تعرفه أنت تمام المعرفة ، ولعلك الآن تشمئز منه

وإن آلاف الشباب المتعلم الآن ، لا ينتظر من وراء التعليم وظيفة يجرى وراءها ، أو عملا حكوميا يسعى إليه ، بل يطلب العلم للعلم ، ولأنه سلاح الرجل الحديث ، وعماد النجاح الذى لا يعتريه فشل ، ولا يدركه سقوط . .

إن فى عقل كل شاب فكرة حرة طليقة ، هي العمل الحر .. ويمكنك أن تجرى استفتاء بين شباب الجامعة ، أو طلاب المدارس الابتدائية إن شئت ، لتعرف إلى أى حد تحول الاتجاه ، وتبدلت النيات ، ولتعلم إلى أى حد يدين الشباب والصبيان الآن بفكرة واحدة ، هى خدمة الوطن عن طريق الحرية والطلاقة ، لا عن طريق الدواوين والمكاتب فى الوزارات ، حيث الضيق والأسر والقيود . . ولا عن طريق ( الميرى ) الذى كاد يعبد من دون الله . .

وأقول لك أكثر من ذلك ، وهو أن أكثر الشباب الذى حكم عليه بتجرع الوظيفة ، يعمل بجانب ذلك فى ميدان الحياة بعد أن يخرج من ديوانه ، ويؤدى عمله الحكومى كما يجب أن يعمل ، أو على الأقل ، أجود مما يعمله أفراد جيلكم الذين يتمتعون بسامى المناصب ، وعظيم المراتب ، وليس هذا على الشباب بعزيز . . ! !

## ٧

ونظرت إلى الباشا فى صمت ، ورنوت إليه طويلا ، فإذا به هادىء مفكر ، وإذا بكل عضلة من عضلات وجهه تعلن بالاقتناع بوجهة نظرى ، فهو رجل خير ما فيه احترام الحق إذا بدا له ، لهذا لم يحاول دفاعاً ولا نقاشاً ، ولم يزد على أن قال فى تؤدة وأناة :

— هذا حق . . ! !

واكتفيت منه بهذه الشهادة ، وارتضيت ذلك الاعتراف الصريح ، وكل أملى أن يقبل الشباب على أداء رسالته كما يجب ، وأن يحقق ما تبتغيه البلاد من جهد متواصل ، وسعي حثيث ، وألا يبخل على بلاده بقوته وفتوته ، وأن يدع اللاهون ما هم فيه من

ميوعة وليونة وطراوة ، فالحياة جادة ، وعن قريب سيتخلفون عن الركب الحثيث .

ودقت الساعة النصف بعد منتصف الليل ، فنظر إلى الضابط الـكبير ، ونظرت إليه . . ولـكنه أجاب على الفور :

— السيارة بالباب ، فلقد توقعت ذلك من قبل ، وأمرت السائق أن يكون على استعداد .

وشكرت له صنيعه ، وتفضله بدعوتى التى كانت مثلا طيباً فى الوفاء . . وشكر لى تفضلى بإجابة دعوته ، وزيارته ، التى كانت مثلا كاملا عرف منها اتجاه الشباب .

وبعد لحظات كانت السـيارة الفخمة ، تنفث دخانها فى شارع البحر الأعمى ، وكأنما تعجب من هدوء الجو ، وتطرب لسكون الليل . . ! !

# فهرست

الصفحة




٢ حارة باغوص — شارع فاروق
ت ٥٠٩٣٨

---

Bibliotheca Alexandrina
06953367

الثمن ١٥ قرشا